الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب: ٤١٢٣ بيروت – تلفون: ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول

الدكتور سهيل إدريس

Propriétanre - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي إدريس

Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS



الادارة

شارع سوريا – رأس الخندق الغميق – بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان: ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج: جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا: ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية: ٢٥ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

العدد الرابع (نيسان – ابريل) السنة ١١

طوبى للثورة العربية !

لعل التاريخ لم يعرف شعبا عانى في هذا القرن العشرين ما عاناه الشعب العربي من الوان الاستعمار والعبودية والاذلال .

ولكن التاريخ سيسجل كذلك ان هذا الشعب ظل يناضل ويضحي ويدفع ثمن حريته ويضرب أروع أمثلة البطوله والفداء حتى استطاع ان يشق دربه الكبير نحو حريته ووحدته .

ومن أعماق الالم والعذاب والاحساس بالذل الذي خلفته كارثة فلسطين ، بدات تتفجر القوى الثورية في روح الانسان العربي ، وبدا السير في طريق الخلاص. فاذا هي سلسلة متلاحقة من الثورات ، تنفض اجزاء الوطن العربي واحدا بعد الآخر ، ولئن ظل أحدها هادئا فالى حين ، ريثما يتمكن الشعب من تلقف المد الثوري الجارف. فمنذ عشر سنوات ، أطلقت الكنانة شرارة الثورة الاولى ، وكانت نارها آنذاك كامنة تحت رماد الارض الجزائرية ، فاندلعت تكوي الاستعمار المغتصب بألسنة من لهيب ، ثم أقبلت الشرارة تصهر سوريا ومصر في ثورة عظيمة خلقت نواة الوحدة المرتقبة ، أمل العرب الى الابد منذ الازل ، ثم انتقلت الى العراق توقد ناره ، فيتفجر في ثورة الرابع عشر من تموز التي قضت على أشد عهود العراق ظلما وظلاما.. حتى اذا بلغت حدود اليمن في العام الماضي ، كانت مفاجأة ضخمة ، ولكنها مكتوبة في ضمير الشعب العربي الذي تصهر ذرات رماله أمنية وحيدة واحدة ، وكانت مفاجأة الثورة لنفسها هناك في اليمن أبلغ رمز لتلك الامنية ، وأروع عنوان لها .

وخلال هذه السنوات الخمس عشرة ، كان طبيعيا ان تتألب قوى الاستعمار والرجعية والتجزئة والانفصال ، والانتهازية والاقطاع ، لتطفيء هذه الجذوة الثورية وتوقف ذلك المد المتفجر ، فكان انحراف ثورة ١٤ تموز على يد الديكتاتورية الحمقاء والشعوبية العميلة ، وكانت نكسة ٢٨ ايلول على يد الخونة المتصلة مصالحهم بمصالح الاستعمار ... وكان في هاتين النكستين خيبة ومرارة ، ولكنهما لم تخلفا اي يأس او تشاؤم في نفوس المؤمنين بالحرية والوحدة والاشتراكية .

ثم بزغ ٨ شباط و ٨ آذار من هذا العام ، بزغا فجرين في شهر واحد يحملان الى الشعب العربي ثمرة ناضجة من ثمرات نضاله العظيم ، بعد ان انقض على المعاقل العفنة في العراق وسورية ، فصحح بيده الجبارة انحراف ثورتيهما ، وردهما الى الطريق الحقيقي اللاحب. وها هي البشائر تنطلق في الافق بأن شعبنا العربي

سيكلل نضاله بالعودة الى وحدة صلبة ستتسع حتى تشمل كل اجزائه المتحررة ، وستبقى قائمة الى الابد ، لان هذا الشعب في كل جزء من اجزاء الوطن العربي سيعرف كيف يكون درعا تحميها وتدرأ جميع الاخطار عنها .

لقد آن اليوم للشعب العربي ان تلتمع عيونه بدمعة الفرح ، بعد ان كانت طوال سنوات وسنوات غائمة بدموع الاسى والخيبة والمرارة .

ولئن كان الثامن من شباط قد أعاد الشعب العربي في العراق الى طليعة القيادة ، فان الثامن من آذار قد استأنف الزحف الثوري العظيم للامة العربية ، هذا الزحف الجبار الذي لن توقف معركته الظافرة جيوب صغيرة ما تزال تقوم هنا وهناك بفعل الاستعمار والرجعية ومصالح الاقطاع . ان الشعب العربي سيصفي هذه الجيوب في اثناء الزحف الذي تشارك فيه اليوم جماهير أقوى الدول العربية ، متكاتفة ، متضامنة ، واقفة في وجه كل محاولة جديدة لتفرقتها او لاحداث ثغرات فيها ينفذ منها الاستعمار الجديد وعملاؤه .

لقد أنهى الشعب العربي بوعيه المتكامل عهود العمالة والرجعية والاستغلال والانتهازية ، وأضحى اليوم القوة الحقيقية الضاربة التي تضمن للجيوش العربية نصرها الظافر ، لان الجيش أصبح منها ولها ، وكف عن ان يكون آلة ارتزاق عمياء في ايدي أعداء الشعب .

ان جماهير الشعب العربي هي التي تفرض اليوم ارادتها الواعية ، مطيحة بكل عمالة للاجنبي ، وبكل دكتاتورية فردية حمقاء ، وبكل سياسة تجزيئية انفصالية، لان ايمانها بحتمية الوحدة وحتمية الاشتراكية هو ايمان اجيال وقرون ، ايمان بالقدر العربي ، قام على وحدة النضال ، من اجل وحدة المصير .

ولقد كان أعظم كسب أحرزته وحدة النضال هذا انتصار معركة العروبة في بور سعيد ، فان تلك المعركة كانت حدا فاصلا لتحويل الدفع الثوري لدى الشعب العربي في مصر الى طاقة معنوية ومادية ضخمة وضعت تحت تصرف كل بلد عربي ينشد التحرر ، فكانت خير مساعد للشعب العربي في الجزائر اذ أسهمت اسهاما كبيرا في اكتساب النصر النهائي له ، وكانت خير مساعد الشعب العربي في اليمن اذ حمت وما تزال تحمي ثورته الكبيرة من عدوان الرجعية ، وكانت خير مساعد لثورة ٨ شباط حين وضعت هذه الطاقة النفسية والعسكرية ذاتها تحت تصرف ثورة العراق الرائعة منذ اللحظة الاولى لقيامها ، وكانت أخيرا خير مساعد للشعب العربي في سوريا حين ارتفعت فوق مستوى الاهواء والجروح لتدعم ثورة ٨ آذار التي ثأرت من الانفصال .وردت سوريا الى خط التحرر العربي .

وانها لقوى تحررية ضخمة هذه التي تتآلف الآن وتتساند ، لانها ستيسر للشعب العربي ان يتحرر حيث لم يتحرر بعد ، ولانها ستضع نفسها كلها آية جديدة ودليلا أخيرا على وحدة المصير .

فما أروعه فجرا هذا الذي يبزغ اليوم على الوطن العربي ، وطوبى لكل ثورة عربية قشعت عن سمائنا غيوم التخلف ، وطوبى لكل ثورة جديدة تفسح الطريق امام المد العربي الزاحف نحو النور والحرية .

سهيل ادريس

أحداث سورية مرآة لهدف الوحدة



بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

قد يرى المشاهد الخارجي في التغيرات السياسية التي تخضع لها سورية العربية وتتوالى على مسرح حياتها، ظاهرة من مظاهر القلق وعدم الاستقرار ، أو دليلا على عجز سياسي أصيل وبنية اجتماعية غير متماسكة . وكثيرا ما نسمع من هنا وهناك ، في الصحف العربية والعالمية ، وعلى أفواه الناس وأقلام الكتاب ، أن الاحداث القلب والعهود الحول تومىء بعجز سورية العربية عن أن تجد الصيغة الملائمة لحكم نفسها .

ولسنا ننكر أن القواعد الاساسية للحياة السياسية المستقرة لم تكتمل بعد في سورية أو في أي بلد عربي آخر وعلى رأس هذه القواعد الصيغة الديمقراطية الصحيحة للحكم والمتكأ الشعبي المعتمد على المنظمات النقابية والفلاحية والسياسية والحزبية والقيادات الجماعية . غير أننا لا نستطيع أن نقول ان ما تشكو منه سورية في هذا المجال يفوق ما تشكو منه غيرها من الدول العربية . ومن هنا كان من الواجب أن نمضي الى تفسير أعمق وأصدق لهذه التقلبات السياسية التي خضعت لها سورية منذ الحكم الفرنسي حتى اليوم .

والحق اننا اذا تجاوزنا الاعراض الظاهرة والاسباب القريبة ونبشنا ما وراءها من محركات عديقة ومن وقود دائم ، وجدنا أن سبب الاسباب في هذا كله دافع أصيل رافق حياة سورية العربية منذ التاريخ البعيد ، ونعني به دافع العمل للوحدة العربية . فسورية منذ عرفت النضال، ضد الاتراك العثمانيين وضد الفرنسيين وضد الحكم الرجعي المعادي لارادة الشعب ، تبحث عن مطلب أساسي هو مطلب الوحدة وتقيم نضالها على أساس النضال العربي المشترك ، وتنظر دوما الى الافق البعيد ، أفق الامة العربية الواحدة . ولا حاجة بنا الى أن نذكر بالجمعيات الثقافية والسياسية التي قامت في سورية وناضلت ضد الحكم العثماني وبالادب الثوري الذي ظلت الحناجر تردده سنوات طوالا وما تزال ، أدب النضال من أجل كيان العرب . ولا حاجة الى أن نعود الى موقف سورية أيام الانتداب من قضايا الاقطار العربية الاخرى وتجاوبها مع الاحداث التي كانت تجري فيها وانتصارها لتلك الاحداث ونظرتها دوما الى معركة العرب أنى كانوا كمعركة واحدة متفاعلة . ذلك أننا لا نريد من وراء هذا أن نشيد بدور سورية القومي وروحها العربية ، بمقدار ما نريد أن نؤكد حقيقة أساسية لها معناها وشأنها ، وهي أن سورية اذ وضعت نفسها منذ البداية في اطار الموقف العربي وتبنت العمل للوحدة ، لخصت بأحداثها السياسية الكبرى التي مرت بها مراحل قضية الوحدة وخطوات نضالها ، وكانت المرآة لكل ما يجري في الوطن العربي من تقدم نحو هذا الهدف . وأحداثها السياسية هي في الواقع أحداث النضال من أجل الوحدة العربية وتقلبات الحكم فيها تعكس في حقيقة الامر ما يخضع له النضال في سبيل الوحدة من مد وجزر ، وتعثر واقدام . ومن الواضح لكل من يريد أن يحلل الامور تحليلا عميقا أن أحداث سورية السياسية لم تحمل يوما طابع الاحداث المحلية ، ولم تأخذ شكل المداواة لعلل جزئية تتصل بسورية وحدها ، بل أخذت دوما وأبدا معنى الاحداث العربية ، وانعكس فيها نضال الامة العربية في سبيل معركتها الكبرى ، معركة الوحدة .

ومن هنا لا نغلو اذا قلنا ان سورية كانت دوما المعيار والمقياس في ميزان القضية العربية ، وان قلقها ترجمة لقلق أشمل في معركة الوحدة العربية جملة . وما شهدناه في سورية من اضطراب في الحكم وغليان في النفوس منذ معركة فلسطين خاصة ، تعبير عن الوضع الجديد الذي خلقته المأساة في الوطن العربي كله ، وعن الهزة الكبرى التي أثارها دخول اسرائيل في الجسم العربي . لقد كشفت نكسة فلسطين للوطن العربي كله عن حيوية النضال من أجل الكيان العربي الموحد وقيمته القومية الكبرى في استرجاع ذلك الجزء المغتصب من الارض العربية وفي حماية سائر أجزاء البقعة العربية . وبينت للشعب العربي في الوقت نفسه أن أداة هذا النضال من أجل الوحدة ومن أجل القضاء على جرثومة اسرائيل وسائر أمراض الاستعمار والتخلف ، هي الخلاص من الفئات التي ارتبطت مصلحتها بمصلحة التجزئة والاستعمار والتي كانت سببا في ضياع فلسطين . وأخذ هذا المعنى الجديد للنضال العربي كامل معناه في سورية ، وأصبحت سورية مسرحا لاحداث لا تهدأ تبحث عن الحل الاصيل ، الحل الذي يضع سورية في طريق الوحدة ويقضي على العناصر المستغلة للفساد المقتاتة من الانفصال .

ولم يكن هذا الموقف في الواقع موقفا سوريا ، بل كان ترجمة للموقف العربي كله وتعبيرا عن الارادة التي أخذت تحرك جماهير الشعب العربي في كل مكان . ولم تكن الانقلابات بالتالي ، في معناها العميق ، انقلابات سورية ، وانما كانت مرآة للواقع العربي المتفجر وللارادة العربية الثائرة ، وصورة للحقيقة العربية في كل مكان . ولهذا لم يكتب الشعب الاستقرار والبقاء لكل من أراد أن يجعل من هذه الانقلابات العربية في معناها العميق انقلابات سورية ، تعود بالامور الى قوقعة التجزئة ولا تعدو أن

تستبدل أشخاصا بأشخاص . لم يكتب الشعب البقاء لامثال حسني الزعيم أو الحناوي أو الشيشكلي ، لانهم جعلوا من الانقلابات التي تمثل في الواقع تلك الارادة الشعبية العربية انقلابات تتجاهل المعاني الثاوية وراءها والدوافع التي حركتها ، نعني دوافع النضال العربي المشترك والارادة الشعبية المصممة على أهداف الوحدة وعلى التخلص من الفئات التي تقف في سبيلها .

ولهذا ظل النضال مستعرا وظلت المعركة قائمة لا تهدأ الى أن قامت وحدة الجمهورية العربية المتحدة ، وتم التحقيق الفعلي للنواة الاولى للوحدة العربية الشاملة. ومن هنا لم ينظر الشعب العربي في سورية الى ذلك الحدث العظيم نظرته الى حادث سياسي كغيره من الاحداث ، بل وجد فيه الثورة الحقيقية التي تستجيب لاهدافه وتحقق ارادته وتنهي القلق الاليم الذي كان يتهدده دوما لتجعل منه قلقا خصيبا منتجا .

وقد كان أهم أسباب اللقاء الذي خلق الوحدة ، انطلاق مصر الثورة من الموقف العربي الذي حرك سورية دوما . فثورة مصر أدركت ادراكا عميقا المعاني الحقيقية لنكبة فلسطين . والذين قادوا تلك الثورة كانوا ممن عاشوا تلك المأساة ورأوا بأعينهم تآمر الفئات الرجعية والعميلة مع اسرائيل والاستعمار ضد قضية فلسطين . ومن هنا ارتبطت في أذهانهم منذ معركة فلسطين خاصة تلك الصلة الوثيقة بين النضال ضد الحكام الفاسدين المستغلين للفساد والتجزئة والاستعمار وبين تحرير الوطن العربي من الاستعمار واسرائيل . واكتشفوا بارادتهم الثورية حقيقة المعركة العربية : انها معركة واحدة ضد الاستعمار واسرائيل ، قوامها النضال المشترك من أجل القضاء على أعوان الاستعمار واسرائيل ومن أجل الخلاص بالتالي من التخلف والتجزئة . فالتخلف والتجزئة هما ركنا الاستعمار واسرائيل وأعوانهما ، وهما موئل هؤلاء جميعا وحماهم .

وهكذا انطلقت ثورة مصر من الموقف العربي السليم، وأدركت دور القومية العربية في معركة البلدان العربية المختلفة وفي معركة مصر ، وقفزت الى مستوى العمل من أجل المصير العربي الواحد . وكان هذا الموقف هو العامل الاساسي الذي جمع بين سورية ومصر . وزادت في تعميق معاني النضال العربي المشترك وادراك حيوية الوحدة العربية ، معركة القناة وما وكدته من أهمية اطار الوحدة في حل مشكلات كل قطر عربي .

غير أن العمل لتثبيت دعائم الوحدة التي قامت بين سورية ومصر ، ظل دون مستوى ارادة الشعب العربي ووعيه لاهمية هذه الوحدة . وقاقت سورية من جديد ، وتجهم وجهها ، وانتقلت من تلك الفرحة العارمة بولادة الجمهورية العربية المتحدة ، الى ألم عميق ، حين جاء ما حققته الوحدة دون مطامحها القومية الكبرى ، ودون ما كانت ترتجيه لتلك الوحدة من خصب ونماء واتساع . لقد أرادت تلك الوحدة نموذجا مغريا يقدم أقوى صورة عن معنى ذلك الهدف القومي الجبار ، فاذا بها ترى الادواء تنهش بها من كل جانب ، واذا بها ترى رواسب الانفصال والتجزئة في النفوس تنخر في ذلك الكيان ، واذا بها ترى الجذوة توشك على الانطفاء . ورغم أن عهد الوحدة قدم أكثر من دليل على ما تقود اليه الوحدة من قوة ومنعة في الاطار العسكري والسياسي ، ظلت صورة الوحدة مقصرة في أعين الناس عما يرجى لها ، وأصيبت الوحدة بمرض مبكر .

ولسنا الان في معرض الحديث عن اسباب ذلك المرض ، ولا نريد من وراء الوقوف عنده أن نحمل المسؤولية فئة دون فئة أو أن نتهم أناسا دون أناس، والذي نريده هو ان نبين ، ضمن اطار حديثنا ، ان الاضطراب الذي أصاب سورية بعد الوحدة وبعد تقلص قواها هو أيضا اضطراب يرجع الى المحرك الاول والاخير للحياة السياسية في سورية ، نعنى مدى تحقيق هذه الحياة السياسية لمعاني الوحدة العربية ومدى قدرتها على الانطلاق في طريق الكيان العربي الشامل . والمتقري لمشاعر الناس أثناء عهد الوحدة ، يلمس في النهاية شيئاً أساسيا يثوي وراء كل ضروب النقد التي كانوا يوجهونها ، هو شعورهم بأن معنى الوحدة لم يكتمل ، وبأن التجربة قصرت عن كامل مداها.

وقد استغلت الفئات المعادية للوحدة في الاصل، هذا القلق الذي عصف بنفوس جماهير الشعب وهذا التساؤل عن صدق الوحدة مع ذاتها ، فجمعت كيدها وضمت جهودها المتضافرة ، جهود الرجعية والشعوبية والاستعمار واسرائيل ، وضربت ضربتها وفصمت الوحدة.

وههنا أيضا نلتقي من جديد بالخيط الرائد المحرك لكل ما يجري في سورية ولكل احداثها السياسية. لقد حسب هؤلاء المعادون للقضية العربية أن في وسعهم أن يستغلوا قلق الشعب على الوحدة ليجعلوا منه قلقا من الوحدة وليتخذوه مناسبة لاقتلاعها من جذورها. غير ان الاحداث تأتي لتبين مرة اخرى ان قلق سورية قلق قومي، وأن قلقها على اكتمال الوحدة أيام الوحدة يجعل قلقها عند قتل الوحدة أعمق وأشد. لقد أثارتها الصورة الناقصة للوحدة ، فكيف لا يثيرها فصل الوحدة . ولقد غضبت حين يسرت الوحدة لاعدائها مجال التخريب والدس، فكيف لا تغضب حين ينتصر هؤلاء الاعداء على الوحدة ؟ ولقد أرادت أن تكون الوحدة النواة بداية انطلاق واتساع الوحدة الكبرى ، وآلمها أن تتقلص قدرتها على الامتداد بنتيجة أخطائها ، فكيف تقبل بعد ذلك بالعودة الى قوقعة الحياة السورية الضيقة المعزولة عن دنيا العروبة كلها ؟

والاحداث التي قامت بعد الانفصال تتحلق كلها حول هذه الحقيقة . انها أيضا تعبير عن الموقف الاساسي المحرك للاحداث في سورية الثاوي وراء تقلبات الاوضاع السياسية فيها ، نعني موقف النضال من اجل الكيان العربي الموحد . ولقد كانت تجربة الانفصال في الواقع أعمق التجارب التي مرت بسورية وأفصحها دلالة عن هذا المعنى الوحدوي لحياتها كلها . فالانفصال نفسه لم يجرؤ ان يعلن معاداة الوحدة ، بل زيف شعارها . وادعاء العمل للوحدة السليمة، وتضخيم أخطاء الوحدة الماضية ، وكل وسائل التضليل والتزوير ، لم تكن قادرة على أن تغير الموقف البدهي الاصيل للشعب العربي في سورية ، موقف من لا يقبل بالانفصال مهما تكن دوافعه . وقال الشعب كلمته صريحة واضحة : لا يمكن أن يكون الانفصال نتيجة أخطاء الوحدة، ولا يمكن أن يقوم بديل عن الوحدة غير الوحدة . فلا الديمقراطية قادرة على أن تكون بديلا للوحدة ، ولا الاشتراكية يمكن أن تتخذ معناها بدون الوحدة . وبديل الوحدة الناقصة هو الوحدة المكتملة الخصيب ، هو النضال في سبيل تلك

الوحدة المكتملة . أما الانفصال فلا يلد غير الانفصـــال ، وموقف التجزئة ، مهما يحاول أصحابه تبريره ، يظل بداية انحراف كبير وأساس أخطار متوالدة متكاثرة . ومخاطر أخطاء الوحدة تأتي من الاصرار عليها وعدم تصحيحهـــا.

لقد كانت في نفوس الاستعمار واسرائيل والفئـــات الرجعية والشعوبية المعادية للكيان العربي الموحد ، بقية من شك في مدى عمق شعار الوحدة في نفوس أبناء البـــلاد العربية وفي نفوس أبناء سورية . حـــتى اذا حـــاولوا الاستهانة بهذا الشعار وخاضوا معركة مستميتة من أجـــل وأده الى الابد ، أدركوا أن شكوكهم باطلة وأن تقديرهـــم مغلوط وأنهم أمام تيار شعبي جارف لا يغالب . وحسب هؤلاء أن العودة الى التجزئة والاجماع عليها بين حكـومات المنطقة المحيطة بسورية ومن ورائها الاستعمار واسرائيـــل يمكن ان يضمن لسورية استقرارا لم يضمنه الاجماع على الوحدة . فاذا بهم يرون أن الذين يجمعون على التجزئـــة هم أعداء الامة العربية ومستغلوها ، وأن الذين يجمعـــون على الوحدة هم جماهير الشعب العربي وقواه الاساسية . ولا تمضي فترة حتى ينهار الطوق المصطنع الذي أراد أن يحمي التجزئة ، فيحطم العراق أسسه وتجهز سورية على البقية الباقية منه .

وتقوم الثورة في سورية دليلا جديدا على تلك القوة الاساسية المحركة للاحداث فيها . تقوم هذه الثورة صدى لثورة الامة العربية من أقصاها الى أدناها على نكســـة الانفصال وتعبيرا عن ارادة القضية العربية . وتأتي الاحداث في سورية مرة أخرى معبرة عن حقيقة ما يحركها ، نعني الترجمة العملية لاهداف الامة العربية والصورة المشخصة لارادة الشعب العربي . تأتي هذه الثورة رائعة مخيفـــة: انها ثورة رائعة في تعبيرها عن انتصار ارادة الوحدة، وانها ثورة مخيفة اذ تلقي على الثورة في سورية وعلى الثـورات التحررية في سائر أرجاء الوطن العربي مهمة كبرى هـــي مهمة الاستجابة الكاملة الصحيحة لمعنى هذه الثـــورة، وتوجيه الاحداث وجهة تجعلها في مستوى الارادة الكبرى المحركة لها . انها تقول من جديد ان الاستقرار مكتـــوب للعهد الذي يستطيع ان يجعل من ارادة الوحدة ورغائبهـــا حقيقة في مثل علوها وخصبها . وان القلق لا بد أن يكون الجواب الجديد على كل تقصير في أعطاء هذه الارادة شكلها المنتج الفعال . والتجربة الطويلة في سورية توحي بشـــيء واحد لا ثاني له : وهو أن ارادة الشعب العربي في سورية وارادة الشعب العربي في كل مكان تقف كالبنيان المرصوص مع كل حكم قادر على أن يعطي للوحدة معناها الاصيـــل ومدلولها الخصيب وعلى أن يجعل منها وحدة ولودا تحمل منذ نواتها الاولى طاقات الوحدة العربية الشاملة وتعبـــر عن شأنها الكبير في كيان العرب ومكانتهم . غير أن ارادة الشعب هذه ارادة صارمة قاسية لا تقبل أي جمود فـــي معاني الوحدة، ولا ترتضي أي انحراف عن معانيها الاصيلة .

ومن هنا كانت مهمة أي حكم أن يقيم الروابط الوثيقة الكاملة بينه وبين جماهير الشعب ، وأن يجعل من هـــذه الروابط قوام عمله الصحيح في سبيـــل أهداف هـــذا الشعب . ولا ينقذ أي حكم من أن يقصر عن اهـــداف الجماهير وعن الهدف الاساسي لها ، هـــدف الوحـــدة الخصيب النامية ، الا اعتماد ذلك الحكم على تلك الجماهير وافساحه المجال امام تنظيماتها القادرة على نقـــل ارادة الشعب والحيلولة دون تخلف الحكم عن تلك الارادة .

ان جوهر القلق الذي أصاب العهـــود المتتاليـــة في سورية انفصال هذه العهود عن الارادة الشعبية ، تلـــك الارادة التي تعمل من اجل الوحدة بوصفها الهدف الكبير من أهداف الامة ، والتي تريد تلك الوحدة من عماها وبنائها اذا هي أرادت أن تحافظ على جوهرها وأصلها ومعناهـــا السليم .

وكل حكم لا يلمس هذا الدافع الاساسي الثاوي وراء أحداث سورية ، دافع البحث عن اطار للوحدة وأداة للنضال في سبيلها تجعلها في مستوى ما يعلقه الشعب العـــربي عليها من آمال ، لا يمكن أن يكون أكثر من حدث بـــين الاحداث ، ولا يتأتى له أن يصبح الثورة الباقية الراسخة .

ومن هنا تنطلق الثورة الجديدة في سورية ، ومن هنا تصمم منذ لحظاتها الاولى على ان تكون الثورة الحقيقيـــة القادرة على انهاء سلسلة الاحداث والهزات ، عن طريـــق وضع سورية نهائيا في طريقها الصحيح ، طريق وحـــدة قوية تحقق آمال الشعب فيها ، ويكون الشعب العربي في كل مكان هو بانيها وحاميها .

ومن هنا ينطلق أيضا العمل المشترك الذي بدأ بعـــد ثورة سورية ، بين الجمهورية العربية المتحدة والعـــراق وسورية ، بالاشتراك مع سائر الدول العربية المتحررة ، في سبيل وضع الصيغة المنتجة للاتحاد بين البلدان الثـــلاثة ، وفي سبيل غرس البذرة النامية المتوالدة للكيان العـــربي المنشود .

عبد الله عبد الدائم

كلمات في آخر الليل

كاليفولا

– ١ –

الخزي يصفعني ، يعريني وهم
يتنفسون
طلاب (شمرا)* – ويلهم ! – يتنفسون
عمالها .. يتنفسون
أطفالها .. يتنفسون
ويل لهم .. لم يسمعوا صوتي
تناقله الرياح الجائعه ؟!
يتأوهون .. !
أيحق للموتى – ولمآذن لهم – خدش
السكون ؟
يتنهدون .. !
الويل لي، وحدي أنا وحصاني العاري
وهول الفاجعه !

. . .

هذا حصاني فوق ما يهذي به الشعراء
في أوكارهم ،
فوق البشر
علمته فض العذارى آن يزخمن
بالدفء الملون
والشذا .. غيث الربيع
عودته رشف الدماء فكل مائدة
رضيع !
سيظل في صدر الليالي ، في ثريات
المساجد ..
من سنابكه أثر
عاف المصلون الاذان المنتظر
وصهيله ينساح من الحقل ،
في الساحات ، عبر المنحدر ،
« لا اله
يهب الناس الحياه
ويذيق الموت الا كاليفولا !
فارهبوه ..
ارهبوه .. »

. . .

في (راس شمرا) لا تراث
لمن تلوث بالجراح أو العرق
فاذا سغبت فكل صغارك جهرة
وامسح لسانك بالشفق

---

* رأس شمرا : مدينة أثرية على الساحل السوري .

في (راس شمرا) لا فصول ..
الزرع ينبت في الهواء
فلا ثمار ولا جذور ولا ورق
في (رأس شمرا) يستوي الاحياء
والموتى ، ويختلط الشروق مع الغسق !

. . .

العمر محدود بمملكتي
عشرون عاما للعجوز ، وللصغار
فجر الفطام ، وللشباب
بركاتي الاولى بحب الانتحار !

. . .

أمس انتصرت على الحياه
أمس انتقمت من الحياه
حتى الهواء حبسته طي القوارير الحديد
حتى الهواء حبسته عنهم ، نزعت رئاتهم
جوعان للدم والصديد
فلكم سكرت على صدى آه وآه !
.. واليوم ينتفض الربيع الطفل من تحت الجليد
الويل لي !
عادوا وهم يتنفسون
فالخزي ، ريح الخزي تجلدني ،
تعريني .. وهم يتنفسون !

— ٢ —

كاليغولا .. محنة غاشية
داسها آذار ، آذار الخلود
كاليغولا نزوة يلعنها الشعب ويأباها الوجود
كاليغولا غيمة مشؤومة مرت
مع الليل وهيهات تعود !

نبوءة الدم

— ١ —

الضحايا ..
وأكتم الشهقة الاولى
حذار الابواب ، خوف الزوايا
الضحايا ..
حتى الهواء أداجيه ، أصلي
ألا يؤول أنفاسي كما يشتهي
فكم زفرة صفراء نامت خنقا وراء الحنايا
رهبة .. تعجن البريء على الجاني ،
تشك الجنين في عنق الشيخ ،
تساوي بالمحصنات البغايا
الضحايا ..
لترتو النار في أحشاء نيرون
كل شعبي ضحايا !

— ٢ —

ويشد الكرى عصائبه حمرا
وسودا على العيون الكليله
هو والموت توأمان فغامر
وتمرد على قواه الهزيله
سيظل السلام لوحة سمسار ،
شباك المستنقعات الوبيله
بالدم الحر تستطيع ..
تدك السور ، تجلو حراسه
بالدم الغالي تزيل الحواجز المستحيله!

— ٣ —

ويل هيلين !
لم يزل عرضها ينزف نارا
فيشرب الليل ناره
وبأسنانها أصابعها تدمى ،
صليب الذكرى يسمر عينيها
فتعيا عن حمله ، ترتمي ، تبكي
نهارا لن يغسل الدمع عاره
ويلها ، ويلها .. كفاها عويلا
ألف آخيل لن يرد البكاره !

. . .

وأرى ذاهلا الى الشمس صفراء
توارى في غامر الليل ، عجفاء
وتصحو وردية جباره
والى البذرة الولود تشق الارض
سرا ، تفت حتى الحجاره !
والى الحرف رجعه يوقظ الموتى
ويبني من الطلول حضاره
والى الكادحين تثمر في الحقل
جراحاتهم ، تفل بلا منٍّ
وتكسو عرس الرمال نضاره
فتسيل الحياة ملء شراييني ،
طريقي ضحى ، ويزهر ايماني أهيلين بشراك
فشعبي سيسترد البكاره !

آذار والبعث

لم يكن عيدا سماويا ولا عرس اله
كان من شعبي الى شعبي ميلادا، حياه
نحن عدنا أنبياء البعث لبينا شكاواكم
فهبوا يا نيام الابديه
بوجوه وقلوب عربيه
وبأيد عربيه
نبدأ التاريخ طفلا ومغاره
نحن ثرنا ، نحن مزقنا الوجوه المستعاره
وأعدنا لك يا عذراءنا ، يا عربيه
بالدم الحر أكاليل الطهاره
عربيه
عربيه
في الجذوع الجوف نار عربيه
أنا في بغداد منها
طائر يسترق البشرى ويومي بالتحيه
أنا في فرحتها طفل وفي
ساحها الهدار جندي قضيه
عربيه
عربيه
عاد من غربته آذار .. عاد
بطلا طافت بنا رؤياه ليلات السهاد
عاد ، عاد
ثائرا .. في صوته ينتفض الموتى
ويخضر الرماد
نازعا عن وجهه الميمون كل الاقنعه
عاد شمس البعث في عينيه لا تخبو
وفي كفيه (أغمار) الحصاد
عاد آذار وعاد الله يرعانا معه

. . .

لك يا بغداد ، يا بغداد أحبابي ،
بغداد القضيه
لك من قلب دمشق الثائره
لك من قلب دمشق العربيه
ألف بشرى وتحيه !

علي كنعان   جامعة دمشق

التنظيم الشعبي والثورة الفكرية

بقلم رجاء النقاش



بعد أن قامت ثورة العراق ثم تبعتها ثورة دمشق أصبحت الثقافة العربية الآن في وضع جديد ، فكثير من القيود التي كانت تعرقل الفكر العربي أصبحت عديمة التأثير . لم تعد العواصم العربية تغلق أبوابها في وجه الانتاج العربي الذي يصدر في عاصمة أخرى . لم تعد الصلات بين الادباء والمفكرين في العواصم العربية الكبرى نوعا من الصلات غير الشرعية .

لقد فتح المد الثوري الابواب أمام الجميع ، وأصبح من الضروري أن يكون لهذا المد الثوري الكبير أثره الحي على جميع العواصم العربية المتحررة .

وبالنسبة للجمهورية العربية (وأنا أكتب هذا الكلام في منتصف مارس والجمهورية العربية تعني مصر فقط .. وربما أصبحت الجمهورية العربية تعني شيئا أكثر من هذا عند نشر هذه السطور) ... أقول : بالنسبة للجمهورية العربية هناك أكثر من مسألة أساسية في الميدان الثقافي يجب أن نناقشها ونفكر فيها بعد هذا المد الثوري الكبير .

ومسألة المسائل الآن هي الاتحاد الاشتراكي .

فاذا كان الاتحاد الاشتراكي بالنسبة للجمهورية العربية شيئا هاما قبل هذا المد الثوري العربي ، فهو الآن مدرسة حياة أو موت بالنسبة للثورة العربية في الجمهورية العربية . لقد علمتنا التجارب يوما بعد يوم أن الثورة لا يمكن أن تعتمد فقط على قيادة واعية مستنيرة ، وأن الثورة لا يمكن أن تعتمد على عقيدة واضحة محددة في ذهن بعض القادة والمسؤولين ، ولا يمكن أن تعتمد على قرارات ثورية تصدرها الدولة يوما بعد يوم كلما ظهرت الحاجة الى قرارات ثورية جديدة . ان كل هذه الاشياء هي دعائم أساسية للثورة . ولكن الدعامة الكبرى والتي تسبق غيرها في القيمة والاهمية هي التنظيم الشعبي .

والتنظيم الشعبي هو الحزب الثوري الذي يمكن أن تعتمد عليه الثورة في أداء رسالتها اليوم وغدا ... وعبر مراحل التاريخ المختلفة .

والحزب الثوري الجديد ، وهو الاتحاد الاشتراكي ، شيء آخر غير الاحزاب القديمة في مصر ، فالاحزاب المصرية القديمة كانت مدارس محدودة القيمة تقوم أولا وأخيرا على رباط هو مصلحة الجماعات المسيطرة على الحزب ، قبل أن تكون مدارس كبرى للشعب تعلمه العقائد العميقة والافكار الاساسية .

ولذلك كان من السهل أن تزول هذه الاحزاب مع ما زال من آثار العهد القديم ... مع الاقطاع والرأسمالية والنظام الملكي .

صحيح أنه كان ثمة أحزاب قوية التنظيم مثل الاخوان المسلمين ... ولكنها كانت تقف على نقطة تاريخية غير موفقة ... ولذلك كانت تسير في طريق معاكس لريح التقدم ، وكانت النتيجة أن عصفت هذه الريح بتنظيم الاخوان رغم دقفه وخطورته وشدة نظامه .

ومنذ الثورة حتى الآن ... منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الى اليوم ونحن نتعثر في البحث عن صورة دقيقة للتنظيم الشعبي المناسب . والحقيقة أن كل المحاولات لم تؤد الى نتائج ايجابية حتى الآن ، بل لقد أدى بعضها الى نتائج ضارة ... مثل تجربة الاتحاد القومي في عهد الوحدة ، هذه التجربة التي أتاحت بحكم قوانينها الفضفاضة لكثير من العناصر الرجعية والانتهازية أن تتصدر المراكز الحساسة في الاتحاد القومي . وقد كشفت مأساة الانفصال عن هذه الحقائق المؤسفة عندما تبين أن مأمون الكزبري وهو رئيس أول حكومة انفصالية كان رئيسا للجنة التنفيذية للاتحاد القومي بدمشق .

أما في مصر فقد ظهر أن الذين دخلوا الاتحاد القومي كانوا عناصر سلبية غير فعالة وانتهى الامر بأن مات الاتحاد القومي بما يشبه السكتة القلبية .

واليوم أصبح واضحا أن أي ثورة يلزمها تنظيم قوي لكي تولد ، وقد تستغني الثورة في مرحلة ميلادها الاولى عن التنظيم الشامل الضخم ، ولكن بعد نجاح الثورة فانه لا بد من وجود تنظيم على غاية من القوة والاحكام والعمق لحماية الثورة ، ولكي تستمر هذه الثورة في أداء رسالتها الكبرى دون ان تتحول الى نظام جامد صلب فاقد للحيوية الثورية المطلوبة .

وهذا هو الشيء الاساسي الذي ينتظره الجميع من الاتحاد الاشتراكي العربي .

ان الجميع ينتظرون أن يكون هذا الاتحاد تنظيما قويا عظيما ملائما لثورة قوية عظيمة . فمن الضروري أن يكون هذا التنظيم مدرسة كبرى للشعب ، يتعلم فيها عقيدته القومية والاشتراكية ... ويهتدي بهذه العقيدة في مواقف الحياة المختلفة .

على أننا يجب الا نفهم هذا التنظيم الكبير على أنه مؤتمرات عامة تعقد وتلقى فيها الخطب وتنفض . كلا .

بل يجب أن نفهمه بمعنى يتسع لهذه المؤتمرات العامة ولا يقتصر عليها .

ويهمنا هنا أن نشير الى الجانب الفكري الذي يجب أن يتوفر في الاتحاد الاشتراكي . يجب أن يشرف الاتحاد الاشتراكي على اصدار دراسات نظرية عن عقيدتنا بوجهها القومي ووجهها الاشتراكي . وهذا هو الشيء الذي لم يحدث حتى الآن . وقد كان من الواجب أن يكون الجهاز الفكري في الاتحاد الاشتراكي نشيطا الى أبعد حد ... كان من الواجب أن يدرس القضية العربية بكل تفصيل ، فتكون هناك دراسات عميقة عن الواقع العربي ، وعن التنظيمات الشعبية المختلفة في الوطن العربي ، وعن المشاكل التي تواجه الشعب العربي في كل مكان سواء كانت هذه المشاكل اقتصادية مثل « المشكلة الزراعية أو مشاكل التنمية مثلا » أو مشاكل عنصرية « مثل مشكلة الاكراد » في العراق .

لم تصدر دراسات من هذا النوع ... ولم تصدر دراسات للمشاكل المحلية في مصر ، دراسات عامة دقيقة يمكن أن يستوعبها جميع المواطنين عن مشاكل مثل مشكلة السكان ، أو مشكلة الاصلاح الزراعي ، أو مشاكل محو الامية .

ولم تصدر دراسات عن التنظيم نفسه ، وما له من مشاكل ، وعلاقته بالتنظيمات الاخرى في الوطن العربي وفي العالم كله .

لقد كان هناك فكرة منذ سنوات تبناها بعض المسؤولين في القاهرة هي انشاء جمعية للدراسات الاشتراكية ، وتكون فعلا مشروع مبدئي كبير لهذه الجمعية ... ولكن المشروع ظل يتعثر ويتلاشى شيئا فشيئا حتى انتهى ومات .

مثل هذا المشروع يجب أن يعود الى الحياة في نطاق الاتحاد الاشتراكي . مثل هذا المشروع ينبغي أن يكون له وجود فعلي ، وأن تظهر آثاره بالنسبة للثقافة العامة ، داخل الاتحاد الاشتراكي أولا وخارج الاتحاد الاشتراكي بعد ذلك .

تلك بعض وجوه النشاط الحي التي يجب أن يقوم بها الاتحاد الاشتراكي في ميدان الحياة الفكرية ، حتى يساهم بدوره الكبير في اعداد الشعب لفهم الثورة وحمايتها . وحتى يساهم في اذابة كل ما علق بالشعب من آثار اللامبالاة والانصراف عن تيار الحركة الثورية ، اما عن عدم فهم ، واما لانعدام الوسيلة الدقيقة للمشاركة في هذا التيار . وحتى يساهم أيضا في القضاء على بعض الاتجاهات الفكرية التي تظهر في بعض الصحف وبعض أجهزة الاعلام الاخرى من ابتعاد وعدم فهم أو معرفة بحقيقة الثورة وحقيقة موقفها من مختلف القضايا الكبرى .

وحتى يساهم أيضا في القضاء على الكثير من العقد التي ترسبت في بعض النفوس خلال السنوات العشر الماضية ، ومن أهم هذه العقد وضع المثقفين عموما مع الثورة ، ان كثيرين منهم لم يتح لهم حتى الآن أن يعملوا عملا مباشرا في خدمة المبادىء الثورية لانعدام الفرصة الصحيحة لهذا العمل ... وهي وجود التنظيم الذي يكشف عن المواهب والامكانيات ، ويفسح لها طريق العمل والتأثير . ومن هذه العقد هؤلاء المثقفون الذي وقفوا من الثورة موقف العداء في يوم من الايام وعلى وجه الخصوص قبل عام ١٩٥٦ فأصبح بينهم وبين الثورة منذئذ شك متبادل . ومن بين هؤلاء المثقفين عناصر مخلصة كان موقفها القديم من الثورة راجعا الى أن الثورة في مرحلتها الاولى لم تكن واضحة الاتجاه ... أما بعد أن اتضح اتجاهها الشعبي العميق فقد آن الآوان أن ينتهي مثل هذا الموقف ، بأن يجد هذا النوع من المثقفين مكانهم ضمن اطار الاتحاد الاشتراكي ، للمساهمة الصادقة المخلصة في بناء هذا التنظيم الشعبي الكبير ، ومثل هذا الموقف يجب أن يتم بأسرع وقت حتى تنتهي هذه الشكوك القديمة التي لم يعد لها أي مبرر .

وأخيرا ... وبعد هذه الملاحظات العامة يجب الا يخضع الاتحاد الاشتراكي في تنظيمه الجديد لمقياس « الكم » ، بل يجب أن يخضع أولا وقبل كل شيء لمقياس « الكيف » ... فليس المهم هو العدد الذي يشترك في الاتحاد الاشتراكي ، ولكن المهم حقا هو نوع العناصر التي تشترك في هذا الاتحاد . ان الاتحاد الاشتراكي يمكنه أن يقوم على عدد قليل ولكنه قوي وفعال . يمكنه أن يقوم على عناصر محدودة ولكن ذات قدرة على التأثير الحي الصادق ، هذا التأثير الكبير الذي يمكن أن يساعد على ايجاد جو ثوري تتحقق فيه كل المبادىء الكبرى التي تؤمن بها الثورة وتنادي بتحقيقها .

اننا نلاحظ اليوم أن الثورات عندما تقوم في وطننا العربي يكون أول هدف لها هو الاستيلاء على الاذاعة ، وبعد أن تنجح الثورة يكون أول قرار تصدره بعد النجاح هو اغلاق الصحف القديمة وفتح الطريق أمام صحف جديدة تلائم العهد الثوري .

وهذا الموقف الذي لمسناه بوضوح من خلال التجارب الثورية الاخيرة في صنعاء وبغداد ودمشق يكشف لنا عن الاحساس العميق الذي تحس به كل ثورة نحو الاجهزة التي تسيطر على العقل العام . وهو احساس صادق ، فلا بد من نقل الثورة من النخبة أو الصفوة الى عقل الجماهير ووجدانها ، ونقل الثورة الى الجماهير لن يكون فقط في صورة مصالح مادية تتحقق بل في صورة فهم عميق للفلسفة الثورية التي تقف وراء هذه المصالح ... هذا الفهم الذي سيؤدي الى الايمان بالثورة والاستعداد لحمايتها حتى ولو لم ينل الانسان من وراء الثورة مصلحة مادية مباشرة .

وقد استطاعت الثورة العربية في مصر أن تخلق مبادىء عامة سليمة وجوهرية في ارتباطها بحقيقة التطور الكبير الذي يحتاج اليه الوطن العربي .

واستطاعت الثورة العربية في مصر أن تنجب قائدا عظيما شديد الايمان بأهداف الامة العربية هو جمال عبد الناصر .

ولكن الثورة العربية في مصر ما تزال بحاجة قوية عاجلة الى تدغيم التنظيم الشعبي ليكون جامعة حقيقية عظمى يتخرج منها أبناء الشعب على أساس فكري عقائدي راسخ قوي ... على أساس عربي اشتراكي سليم .

والامل كل الامل في الاتحاد الاشتراكي الذي نرجو أن يكون سدنا المعنوي العالي . خاصة في هذه المرحلة التي بلغ فيها المد الثوري العربي درجة من القوة لم تتح على الاطلاق للامة العربية ربما منذ الثورة الاسلامية الى اليوم .

وبالتنظيم الشعبي العقائدي الدقيق ... نضمن استمرار هذا المد العظيم ونموه يوما بعد يوم .

بهذا التنظيم نضمن انتصار الثورة العربية تحت رايتها العظيمة ... راية الوحدة والحرية والاشتراكية .

القاهرة — **رجاء النقاش**

رسالة الى سوريا

رفاقنا في السفر ! !
تعفرت جباهنا ..
ولم يزل على الطريق خطونا
وكلما مضت بنا
يسقط من جبهتنا رفيق
أرهقه التسيار
وارحمتا ! ! والله قد أوحشتنا
لكنما حروفك الوضاء
تنقش في صدورنا المضاء
« الصمت والاصرار والفداء »

*

غايتنا ... ! !
الملتقى غدا
الوقت من ذهب
أسرع خطاك .. لا تقل : مهلا
فما اقتناه من يظنه سهلا

*

على اليمين صيحة .. تيار
على اليمين نار
وفوق قمة الجبل
طوفاننا .. هذا الذي لم يحتمل
جراحنا .. تلك التي لم تندمل

*

يا ثورة .. يا ماردا .. يا قمه
يا قلعة توشحت بالهمه
فليندفع من كل صوب فوج
يد .. يدان .. كثرة تفوق كل عد
سواعد مفتولة تجوز كل حد
ولتكتبوا على الثرى ..
وعند كل منحنى ..
غدا .. غدا .. غدا لنا

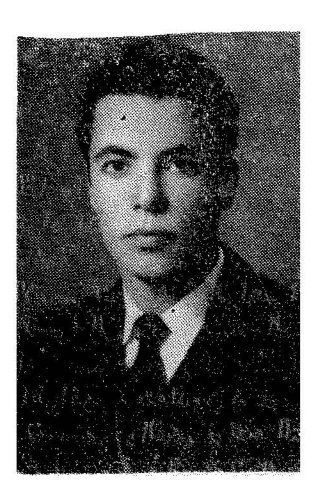
*

ومن هنا
لكم من الضفاف عندنا أغنيه
عادت على رغم العدا سوريه

القاهرة — **عبد العزيز النعماني**

رحلة العربي

« الى شعبنا العربي في ثوراته العظيمة »



عودة الريح حضور في دمي ، سر دفين ،
يقظة ، جرح ربيعي الحنين ،
ووجوه زورتها حربة المنفى ، هزيج البحر ، صمت الآخرين .
عودة الريح اخضرار
ولنا دار ودار ،
عودة للفارس السري كانت ،
للحوار الازلي الطفل كانت ، للحوار ..
هجرتي الاولى ، خلاصي ، لغتي ، كان الحوار .
كنت رمحا بدويا ، كنت سفر الابديه ،
ينده الريح :
متى نلتم شعبا يقهر البحر ، يقاوي سفنه الحبلى،
يقاوي عورة الرفض اللعين ،
بانبعاث الفاتحين .
وهنا الاطفال .. فرسان العشيه ،
تزدهي داري بهم ، صوتي يصلي للسنين الفاجعيه .
ويعود البعث فينا ، فارس الريح الى بيتي يعود
يمسح الارض ، وتنهد الحدود ..
زاده الجيل .. يعود !
والاغاني العربيه :
عودة للريح .. ريحي البدويه
عودة للفارس السري كانت ،
للحوار الازلي الطفل كانت ، للحوار ..
ولنا دار ودار ،
ورياحين صغار :

« ثارت سوريه ،
ثارت أرضي .
ثارت أبياتي العربيه ..
البعث يغلغل في نبضي .. ،
عاد الاطفال ،
عادت أجيال في دمنا ، عادت أجيال » .
آه ! يا شعبي : متى نلتم ؟
جرحي شفة غابت تغاوي شفة الرؤيا : أتنداح السنين بانبعاث الفاتحين ؟
هل يفور الضوء أزمانا ؟ وها ! حل العبور
طفرة كنا .. فيا شعبي : متى نلتم أجيالا تثور
ولنا دار ودار
يهزج الاطفال فيها والصبايا والكبار ؟

« ثارت أرضي .
عاد الاطفال .
البعث يغلغل في نبضي .. ،
عادت أجيال في دمنا ، عادت أجيال » .

عودة الريح اخضرار ،
عودة للفارس السري كانت ،
للحوار الازلي الطفل كانت ، للحوار ..
هجرتي الاولى ، خلاصي ، لغتي ، كان الحوار :
حلت الرؤيا .. وعاد العربي ،
يمسح الارض ، ينقي لغتي الحبلى ،
يغني : طاب ، طاب البعث للاجيال .. عاد العربي !

حمص — **مصطفى خضر**



... وكان الصوت يبكي !

قصة بقلم عايدة مطرجي ادريس

عبثا حاولت هذا الصباح ان تعيد النوم الى اجفان طفلها ، فقد كانت الاصوات المنبعثة من الخارج قوية حادة ، حتى خيل اليها ان الحي كله يهب مجلجلا وكأنما عاودته حيويته السابقة . واطلت من نافذتها: كان اهل الحي كلهم في الساحة ، وكانوا يهللون ويكبرون من حناجر تمزقها الحماسة . لقد تركوا لعواطفهم المكبوتة ان تنطلق ولشعاراتهم أن تحيا ؛ ولاملهم الاخضر ان يبرعم من جديد، مع الربيع الضاحك الذي لن يلبث طويلا حتى يطل عليهم .

وركضت الى زوجها ، وهي ماتزال تحمل الصبي الذي ازداد حيوية لشدة الضجة التي تملأ بيتهم ايضا . ودخلت الغرفة الصغيرة ، كان المذياع فيها يلعلع على غير عادة ، وكانت اصوات غريبة تنبعث من على شرفتها في هذا الصباح الباكر ، واخذتها الدهشة حين رأت زوجها في ذلك الوضع .. اصحيح ماتراه ؟ هل يمكن لرصانته ان تنهار ، فاذا به مع هذين الصديقين اللذين يزورانه يشاركون صبية الحي وشبابها في التعبير البدائي عن فرحتهم ؟كانت ايديهم متشابكة واصواتهم ترتفع في اغنية كان اهل الحي كله يرددونها ورقصات اقدامهم تنسجم في ايقاع موحد. انهم يتبادلون النظرات في شبه ذهول ، ويتبادلون القبلات، ويعودون الى الاغنية يطلقون كلماتها في جذل وصراخ ..

واقبلت عليه ، فاذا به يتناول الصبي ويرفعه على يديه وهو مايزال يغني ويدور ويرقص ، وقالت في نفسها : هذا عهد الرجال الذين يرقصون ..

●

ثم دخلت الى غرفتها ، فتبعها الصبي ، ولحقت بهما اخته . قالت الام ، وهي تسأل الصغيرة بتحبب ، سؤالا مضى اكثر من سنة ونصف عليه : متى تلد الماما ؟ ولم تكن تدري ما الذي دفعها الى طرح هذا السؤال ، في هذا الوقت بالذات ، غير انها كانت تشعر بلذة غريبة في استعادة ذلك الجواب الذي لم تنسه يوما. وها هي الصغيرة تجيب باللهجة نفسها التي رددت بها من قبل تلك العبارة : « عندما تشتي الدنيا » .

●

لم تكن هناك ، في ذلك اليوم ، امكانية لهطول المطر، وكانت تشرف على نهاية شهرها التاسع ، ومع ذلك فلم يكن احد من افراد العائلة يستطيع ان يفصل بين ولادة الطفل وبين هطول المطر ، لفرط مارددت الصغيرة تلك الكلمات : « عندما تشتي الدنيا » .

انها لتشعر الان بذلك الاختناق الذي شعرت به ذلك المساء ، بالرغم من ان البرد كان قارسا في هذا الصباح ، لم تكن مدينة بيروت بحاجة الى المطر يوما كما كانت بحاجة اليه في ذلك الاسبوع . وكان الجو الخانق يزيد من احتقان الدم في اجساد اهلها والانقباض في نفوسهم . ولو تسنى لاحد ان يقف على تلك الشرفة من البناية الضخمة التي تطل على تلك البيوت المتواضعة من حي البسطة لاستطاع ان يتمثل صور الانقباض الذي كان اولئك البسطاء يوحون به في عيشهم . لقد هدأ الحي منهم ,وساده صمت لاتقطعه سوى اصوات الهررة . وغابت منه حلقات الشبان لتحل مكانها لوحات غرف مضاءة يتحلق فيها حول مذياع صغير افراد العائلة الكبيرة ، ولم يكن هناك اية حركة تشير الى ان حديثا ما يجري بينهم . لكأن كل فرد قد كتب على نفسه عقدا صامتا بان لا ينبس، بل ان احدهم لا يكاد ينظر الى الاخر . ان معظم الرؤس ، مطرقة واجمة ، اما الوجوه فمنها مايعكس قلقا وانقباضا مخيفا ، ومنها مايشتعل الغضب فيه . اتراه تعب النهار المضني ، سعيا وراء الرغيف ، وهم الرغيف ، هو الذي يرتسم على وجوههم ، ام تراها فاجعة الامس تتجسد ؟ اتراهم ، اولئك البسطاء، يستطيعون أن يرتفعوا الى مستوى ادراك الكارثة التي المت بذلك الحي ؟ اتراهم يستطيعون ان يعقلوا أي مصير آلوا اليه ؟ أتراهم في اطراقهم ، يتفادون شعور الخجل والهزيمة الذي يعتمل في نفوسهم والذي يولده التقاء نظراتهم ؟

ذلك المساء ، احست ، ان اهل الحي كله فقدوا تلك السعادة العارمة التي كانت تملأ نفوسهم ، كل عام ، في شهر شباط ، عندما كانت تغادر المدينة سياراتهم الكبيرة المحملة بمئات الشباب والشابات ليقاسموا جيرانهم الفرحة الكبرى المشتركة .

وحينما يرجعون يهب الحي كله ــ رجالا ونساء واطفالا ليستقبلوا اولئك العائدين وقد علت الزغردة والاناشيد والصراخ ، وكان الوافدون يطلقون لزمامير سياراتهم العنان ، ترافقها اصوات الاناشيد الحماسية. الا ان اصواتهم كثيرا ماتكون مبحوحة ، فيشاركهم الجمع المحتشد الذي كان يتدفق من كل اتجاه ، وتظل اصوات الغناء ، والصياح ، وتظل الجموع والحلقات حتى ساعات متأخرة من الليل . واصوات الطلقات تمزق الاجواء، والاسهم النارية تخترق حجب السماء ، والسنة اللهيب تعكس احمرارها على كل وجه .

وليست بحاجة الان ، وقد عاود الحي فرحه ، ان تتمثل صور السعادة التي كان اهل الحي يحسونها في تلك الايام السابقة . لقد كانت كل ذرة من درات نفسه وارضه ترقص كما ترقص هذا الصباح ، وكان قدرها المكبوت يتفجر كما يتفجر في تلك اللحظات المحمومة . وتمثلتها وهي حامل ، ذلك المساء ، تتأمل من على تلك الشرفة البيوت الصامتة التي يلفها سكون المقابر ، لقد تآمر الليل الذي غاب قمره مع الحر والسكون والشيطان على الحي ، وتربعوا على قلبه ثقلا يخنق كل خفقة فيه ، وكابوسا يربض على صدرها ، هي ، انها لم تحس بثقله كما كانت تحس به ، ذلك المساء ، حتى في اليوم الذي جلست فيه تقبل التعازي بوفاة والدها . كان الطقس حارا كهذا المساء، وكان جو الغرفة الجنائزي ثقيلا كهذا الجو ، وكان الكابوس يلازمها طيلة تلك الايام الطويلة التي قضتها صامتة حزينة، وقد التف رأسها بمنديل ابيض كتلك المعزيات اللواتي كن يتوافدن فيجلسن على الكراسي دون ان يحدثن اية حركة، ثم يخرجن كما دخلن ، صامتات مطرقات . وانها لاتدري اي شعور هو ذلك الذي دفعها الى ان تراقب رؤوس تلك المعزيات لترى ان كانت تتحرك ، لعلها ارادت ان تشغل نفسها وتزيح عنها ذلك الكابوس الرهيب فتقتله بالانشغال عنه بمنظر من لايعانون كابوسا . وكثيرا ماكانت تنجح ..

ولكن ، عبثا حاولت ذلك المساء ان تتخلص منه ،كانت جذوره تتشعب وترسخ حتى يخيل اليك انه قد تجسد على كل وجه من وجوه هذا الحي ، خاصة في العيون التي فقدت بريقها ، وظلت تحتفظ بتلك الدمعة الحرى التي ذرفها رجال اقوياء وهم مجتمعون او منفردون او متجولون. كانوا جميعهم ، في ذلك اليوم المشؤوم يبكون ، وكان ذلك الصوت الاتي اليهم من بعيد حزينا ، متقطعا ، ثم باكيا .

انها تذكر الان تماما كيف كان منظر هؤلاء البشر يمكن الكابوس من نفسها ، حتى لم يعد من سبيل الى التفكير بازاحته ، يومها ، لم تكن تستطيع ان تقوم بأي عمل، بالرغم من انها كانت تدرك تماما ان عليها اعداد جميع الترتيبات اللازمة لمجيء الطفل ، كانت مشوشة الفكر،وكانت الصور القاتمة تتلاطم امامها فلا تقوى على التمييز بينها، امرأة مسجاة ، صوت بعيد يبكي .. زوج مكتئب ، وجوه سوداء ، وجوه محتقنة حمراء ، مقصات .. رجل يرتدي لباسا ابيض ، صراخ طفل .. واحست ذات لحظة بروائح عقاقير تسد انفها ، فارتعشت ووضعت يدها على بطنها تريد ان تتحسس واقعها : كانت ماتزال هنا ، جامدة ،ولكن احشاءها لاتهدأ . ان الجنين يجمع نفسه ، فينخفض ، ثم يرتفع ، فينزوي فجأة يمينا وقبل ان يستقر ينقلب الى جهة اخرى وكأنه لاعب سيرك متحمس . كانت تريد ان تبكي ، لعلها تفرج عن نفسها . ولكنها لم تكن تقوى على ذلك . ان الدمعة تستعصي عليها ، ماذا ؟ هل قدر عليها ، في هذا الظرف ، ان تتحمل وحدها الام المخاض من غير ان يهتم احد او ينشغل بما سوف تعانيه ، حتى زوجها ؟ زوجها الذي كانت تعتقد انها تملأ حياته ، فلا ينشغل عنها بشيء ، مهما كان خطرا ، خاصة في تلك الايام العصيبة التي تحس فيها انها كانت تتأرجح بين الحياة والموت . كان شبح الموت لا يفارقها ، وكانت تحس لذلك بألم هائل، أتراها ستبصر طفلها ؟ وطفلتها ، أي مصير ستؤول اليه ؟ انها مضطربة لاجلها ، وتتمنى ان تعيش لتمدها بمزيد من

الرعاية ولتغدق عليها مزيدا من الحب والحنان ، واحست انها ما تزال قادرة على العطاء ، وانها لم تعط بعد كل ما في نفسها ! ونادت زوجها ، بلا صوت ، وقالت له انها بحاجة اليه ، وانها تكاد تجن ، وانها ستموت من الرعب والاشباح والرؤى ، وان الكابوس يخنق انفاسها ، وانها تخشى على طفلها الذي لم يولد بعد .. غير ان زوجها كان ابعد من ان يسمع نداءها المجروح . انه منذ اسبوع، لا يكاد يبرح تلك الغرفة الصغيرة من البيت ، يلازم مكتبا صغيرا وضع عليه مذياع كان يتلاعب بازراره دونما حاجة كأن اصابعه انفصلت عنه ، فغدت آلة اوتوماتيكية تدير بانتظام ابرة المذياع ، وكثيرا ماكانت تتقدم منه في تلك الفترة ، وقد احضرت له طعاما او قهوة ، فلم يكن يرفع اليها نظراته . اتراه يخجل من نفسه ، هو الاخر ، فيتجنب ان يقرأ في عينيها الخيبة التي كانت تجتاحه ؟ لطالما حدثها عن الامل الاخضر الذي سوف يتفتح ، وعن دور الفكر والكلمة في مد ذلك الامل بنسغ الحياة ، كانت تؤمن بما كان يقوله لها ، ورسخ في اعماقها ايمانه بان الكلمة الشريفة أمضى من السلاح ، الا ان وجوها كثيرة كانت مزيفة تتكشف لهما فيخيل لهما ان الكلمة احط من ان يؤمنا بها . فقد تعني شيئا وقد لاتعني شيئا ، وقد تساوى معها المجرم والبريء ، القذر والشريف، المثقف والجاهل ، الوطني والخائن . وكانت اصوات كثيرة عرفاها بالامس تسبح بحمد صاحب ذلك الصوت تسبيحا فيه كل حرارة الايمان والاعتقاد ، فاذا بهم اليوم يكيلون له الشتائم . اما كان الاجدر بهم ان يصمتوا بالامس ، حتى يحق لهم اليوم ان يتكلموا ؟ وكانت تحس بمرارته ، ولعله كان يتساءل ، ماعساه يكتب في

الغد ، ولمن ؟ وكان جيله يبدو له ، زاحفا ، ضعيفا ، يجر اذيال العار والهزيمة ، متراجعا ليعقد مع القرن الماضي اوثق رباط ، وتضخم الامر في نفسه ، حتى اصبح اليأس لايطاق ، أنى للصدع ان يلتئم بعد ؟ وبدا لها وجهه المحتقن وقد قست ملامحه حتى بدت غريبة عليها . ترى ايه اشباح رهيبة تزوره هو ؟ ليتها تستطيع ان تسأله ماذا يشكو ، ليتها تقوى على ان تحدثه عن كل مافي نفسها. أين شجاعتها ؟ لماذا تشعر بالعجز عن التعبير ؟ ان رأسها مليء بالافكار التي تود ان تقولها ، ونفسها طافحة بالرؤى والصور التي تريد الخلاص منها . ورفعت اليها رأسه ، محاولة ان تحدق بعينيه ، لربما تفاهما ، ولكنه ، كان يتفادى ذلك ، لعله كان يريد تعذيب نفسه ، فلا يكشف حتى لها ، عن آلامه . ولكنها هي ، غمرت رأسها بين يديه، ولم تعد تقوى على الصراع ، كانت تريد ان تتكلم وان تتكلم وان تتكلم .. ولكنها سرعان ماشعرت بعجزها عن ان تنطق بكلمة ، فاكتفت بان ذرفت تلك الدموع التي كانت محبوسه في عينيها . واحست بيديه تحيطان رأسها ، وبشفتيه تقبلان جبينها ، اذ ذاك تشجعت على ان تقول له : « انني بحاجة الى الهواء والى قليل من المسير ، يجب ان يولد الطفل معافى » .

●

كانت الاصوات ، من الخارج ماتزال تلعلع ، اين هي اليوم ، من ذلك الامس ؟ اين هذه الساحة التي تعج من تلك التي كانا يجتازانها ذلك المساء ؟ كان الطريق مقفرا ، بالرغم من ان الساعة لم تكن تتجاوز الثامنة ولم يتحدثا بشيء طوال الطريق ، لماذا يتفاديان الحديث ؟ لماذا لايتكلمان عن الطفل الذي سيولد ؟ انهما منذ اسبوع لم يتحدثا عنه . اتراهما كانا على يقين بانهما لن يتحدثا الا عن الكارثة التي تحيط بهما ؟ لماذا لا تسأله ، ايكون صبيا ، أتكون بنتا ؟ ان ذلك السؤال لم يفارقها قط منذ ان احست باحشائها تتضخم ، وكانت تعيش هذا القلق الفظيع الذي يساور الحامل مدة تسعة اشهر لاتنقطع فيها لحظة عن التفكير . ان الجنين هنا ، يؤكد وجوده بشكل تبدو الغفلة عنه امرا مستحيلا ، اية مغامرة تعيشها وان كان يبدو للبعض انها مغامرة لادخل لارادة الانسان فيها ، وصحيح ايضا ان مصدر قلقها يعود الى رغبتها في انجاب صبي يملا البيت فرحة ويخلق في نفسها الاعتزاز الانفعالي الشرقي ، فان مصدر فهمها هي بالذات يرجع خاصة الى رغبتها في معرفة هذا المجهول ، هذا الكائن الغريب الذي لم تره ، ان بها رغبة لان تحدثه عنه . وخيل اليها ذات لحظه ان رذاذا من السماء يبلل وجهها ، فاحست بألم في ظهرها اخذ يقوى حتى لم تعد تقوى على المسير ..

وعاودتها صورة المرأة التي كانت ترتدي لباسا ابيض ، وتمسك ادوات معقمة ، ان صوتها مايزال يرتج في اذنيها وهي تردد : يبدو ان الولادة عسيرة ، يجب ان ترتاح قليلا حتى تقوى على الصراع ، ولربما دام ذلك ساعات عديدة .

ثم اضافت المرأة التي ترتدي لباسا ابيض : « لقد مضت الفترة التي كان يجب ان تهدأ فيها اعصابها وتستسلم لشيء من النوم ، ان المسكن لم يؤثر فيها بعد ، وحواسها ماتزال متوترة بشكل غريب ، بل ربما كان وعيها اشد تيقظا » .

غير انها هي ، بدأت تحس بارتخاء في جسمها ، وبصفاء غريب في ذهنها . لقد خيل اليها ، للحظة ، انها تنسلخ عن هذا العالم ، وانها بدأت تتيه ، واحست بلذة غريبة مبعثها هذا الشعور بانها تطير محمولة على بساط طالما غذى مخيلتها الطفلة . وكانت تلتقط اصواتا وكلمات متقطعة دون ان تعيها تماما ، ولكنها لم تكن غريبة عليها ، فكانت تتقبلها وتخزنها في اعماقها .

كان وجهها يحتقن حتى ليكاد دمه ان ينفر . وكانت عروق رقبتها تتصلب وتتضخم حتى تكاد تتقطع ، وكانت يداها تشدان باظافرهما على جوانبها حتى باتت تغرزهما في لحمها ، من دون ان تشعر لذلك باي الم فيهما، كانت آلام فظيعة ، لاتحتمل ، تقطع احشاءها ، وصراع هائل يدور بين عنصري الموت والحياة ، والجنين مصر بعناد والم واندفاع على ان يخرج من الظلام ويلقى النور ، وكانت قواه تضعف هو الاخر ، فيرتد ، ثم يوالي هجماته، حتى اذا شارف على التدفق ، ارتطم ،وعاد القهقرى . وكان في صراعه ذاك يمزق احشاءها ، حتى احست لحظة أنها لم تعد تقوى على الحياة .

●

صوت المرأة التي كانت قابعة فوق سريرها يطن الان في اذنيها بشكل ملح ، مميز . انها لم تبرح سريرها قط . وكانت توالي دعاءها وتدعوها الى مزيد من الصبر والايمان. ان الله وحده قادر على أمساك ذلك الخيط الدقيق،الدقيق جدا ، فلا تقطعه ارتطامات الجنين المتعلق به ، ولا تنقطع معه حياتها هي وآمالها ورغباتها لتغدو ، اي شيء ؟ كان فظيعا ان تفكر بذلك ، وقبل ان ترى طفلها . واستجمعت قواها كلها ، لتدفع الجنين ، وكانت تحس هذه المرة انها

لن تقوى بعد على الحركة ، تلك هي نفسها كلها تدفعها ، وفي تلك اللحظة ، جحظت عيناها ، وغرزت اصابعها في الفراش تحاول ان تمزقه ، وتناهى الى سمعها صوت المرأة القابعة فوق سريرها يدعوها بالحاح : « اطلبي ماتشائين ، ان الله سيستجيب لك ، لقد طهر المخاض نفسك ، فانت كطفلك ، تولدين من جديد » .. ولمعت امامها ، بشكل غامض مهزوز تلك الصور كلها ، في هذه اللحظات الفظيعة من الالم : زوجها المكتئب ، والصوت الذي يبكي ، والطفلة الحبيبة ، فاذا بصوتها المبحوح يتمتم : « لينصرك الله ! لينصرك الله » . واكتفت بذلك الدعاء الذي بدا لها غريبا عن نفسها ، ثم هدأت ، وارتخت اعصابها وهي تحس بتدحرج لذيذ مسكر ، وصراخ دقيق ناعم . ثم خيل اليها ان صاحب الصوت الذي كان يبكي يبسم لها من بعيد ..

●

وخلال العام كله ، لم يكن صاحب الصوت يبتسم ، كان جرحه عميقا ، وكان مايزال ينزف ، وكانت آلام المخاض تعاودها كلما اتيح لها ان تستمع اليه . ترى ، الن يتمخض الم ذلك الصوت عن فجر مشع كهذا الطفل الذي يحوم حولها ؟

●

وكان الصبي يصرخ ، لقد ضاق بسكون امه واسترسالها في ذكرياتها فهو يريد الخروج من هذه الغرفة الصامتة . انه يريد اباه ، وكأنه آنس الضجة ، والف تلك الحياة الجديدة المرحة التي تطابق مزاجه . وحملته وهي ماتنفك تمطره بالقبلات ، وعادت به الى ابيه وذكرته بما كان يقوله لها كلما قصت عليه حادثة الصوت الذي كان يبسم . فكان يبتسم هو ، وكان احيانا يبتسم باستخفاف وسخرية ، وكان يقول : انك ماتزالين طفلة ، بالرغم من انك اصبحت اما . وكانت تشعر في اعماقها بالالم ، الا ، انها لم تكن مخدوعة ، وليست بالساذجة، فلماذا لا يصدق؟ لقد رأته ، رأته ذلك الصوت الباسم ، في ساعة الاشراق تلك . وكانت على يقين بان حدسها لن يخطيء . لربما تنكر منطقها لذلك . ولكن من قال ان الحياة منطق وحسب ؟

وحمل الاب طفله : وهو يقول : انا لااصدق شيئا ، لا اصدق ماتسمعه اذناي ، لا اصدق هذا الواقع الحي المجلجل، فكيف اصدق حدسك ؟ وقبل الصبي ، كان يحس ان هذا الفجر الضاحك الذي انبعث هو أجمل فجر عرفه في حياته .

اما هي ، فقد احست بنفسها خفيفة كما لم تحس بذلك من قبل ، ان شيئا ما كان يثقل على قلبها قد انزاح الان ، وحل مكان ذلك الانقباض الخفي الذي كان ينغص حياتها فرحة عارمة . ها هو الصوت الاتي من بعيد ينطلق قويا صارما كما عرفته من قبل وكما عرفه اهل الحي كله . ولكن شيئا جديدا كانت تلمحه في هذا الصوت فتحس بترجيعه في نفسها كما احس به اهل الحي وكانوا يتحدثون بذلك . لعلها كانت نغمة انصهارهم جميعا في مخاض الالم العظيم الذي عانوه .. واطرقت لحظة وهي في شبه صلاة ودعت من أعماقها ، الا تسمع ذلك الصوت ، بعد اليوم .. يبكي ...

عايدة مطرجي ادريس

الفارس ذو الشارة الخضراء

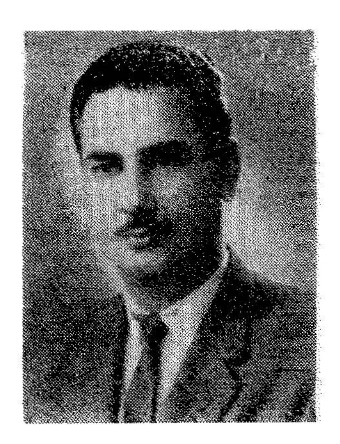
« تحية اكبار واعتزاز الى رفاق القضية في العراق »

هنيهاتٌ ... وتنهدْ
القلاع السود فأهدأ أيها الرعد
الذي يجتاح أعراقي
وألسنة اللهيب الشهل تجري ملء أحداقي
وما في الساح غير البعث
ينفض عن جفون الارض غفوتها الجليديه
ويفجر كل ما اختزنته من حمم جحيميه
ليوم الصحوة الكبرى
ــ اتئد يا رعد ــ
اني عبر زمجرة البراكين
أكاد أحس ، أسمع همسة البشرى
كأصفى ما يكون الهمس ،
تجري في شراييني
وأبصر كل من ضحوا
على هذا التراب البكر كي ينهلّ
من دمهم له الصبحُ
وأنظر كل من خضبت
بهم أم الطبول الامس وانطفأت عيونهم
وما انطفأت بها الرؤيا
ولم يبهت بها الحلمُ
أراهم ينفضون الموت عن أجفانهم
نفضا ، وقد هرعوا
الى الساحات ــ مهلا أيها الرعد
اتئد ــ وصفوفهم سد
كما الطوفان مقتلع ومبتلع
وها شاراتهم خضراء تشرق في
دجى الساح
اتئد يا جرح ــ ها
راياتهم خضراء تخفق في
مدى الميدان لوحات ربيعيه
محملة بفيض الخصب ــ آه الخصب ــ
من عشرين لم أعرف
عطاياه
ــ اتئد يا جرح ــ
من عشرين لم أعرف عطاياه
وكيف يطل شارات ولوحات ربيعيه
ومن عشرين لم أعرف ــ
هنيهاتٌ ــ
وتنهدْ ــ
اتئد يا جرح ــ يا رعد ...

بيروت

فايز صياغ

قصائد مطوية



بحيرة الصموت

« حتى الرموز الموحية ، لم تستطع ان تحفر
درب الرؤيـة لهذه القصيدة أبان الـحكم
الدكتاتور القاسمي » ١٢ ـ ٨ ـ ٩٦١

الليل في بحيرتي ، شرابه النعاس ، قوته الضجر
جراحه الشمس تذوب بين أذرع الاصيل
يأكل من موائد الدود ، ونطفة الحياة
يغور في حشائش الرمال ، يشرب القرار
يفترس الصموت ، يلحس الجفاف في قرى الجنوب
يسود المحار ، والجليد في شواطىء النهار
يقيء من دم الصلال عاره الشفيف
يرش أوجه الدروب بالرعاف والنسيل
ويحضن الظلال في مفارس النخيل والقمر

* *

الليل في بحيرة الرؤى .. صلاة
من حرق الجان ، ومن تلفت البشر
يسفحها العبيد في أديرة « الصنم ! »
هواجس الضياع ، من لهاثه الموات
من سدم الغيوب ، من عصارة الغروب
لا همس ، لا ابتهال ، لا خشوع
لكن في مفاصل الخطاة رعشة الندم
وقبل أن تغور شهوة الضياء في محاجر الصباح
تطفىء هالة الشموع بالدموع
وفجأة تنز كالرؤى مواطىء الندم
تضرع للاله باعة الحياء من جديد

* *

الليل في بحيرتي عفونة الرمم
بقية احتضار
جنازة النهار !
زوارق تشيح عن مرافىء الربيع
عرائش من زغب الطيور
الليل ... ههنا جراح
مصفد ينوء بالاداهم الوقاح
يحمل بين ساعديه جيفة الخواء ، شرفة العدم
يسهر عند حانة الهموم الف ساعة من السأم
وحول منكبيه ألف عنكبوت
ينسج من خيوطه الرقاق بيدر السكوت
مداخن من سعف النخيل ، من مخالب القصب
تغوص في زوابع الدخان والحشيش والخمور
وخلف أفقها الجريح ، عبر ظلها الكثيف
تسيل من فم الضحى مجرة اللهب
وتستحم في رؤى المدى اجنحة القمر

* *

الليل في بحيرتي ينام في مضاجع السكون
كالقدر الاصم في مسامع الخفوت
يمص وحشة الكهوف من مجاعة الصموت
لا لون في مداه
تحجرت رؤاه
يترع من معاصر العروق اكؤس الصديد
يجر نعش عقمه ، المكفن ، البليد ..
ووحشة الجدار تبصق الشروق في الدروب
تجرح الطيوب في براعم الزهور
من قلق الحروف في ارتعاشة الشفاه
من قرف النهار ، من مراود الرماد في العيون

* *

الليل في متاهة الفراغ .. مقلتان في مغارة العدم
وذئبتان تلهثان من تشنج الالم
وطائران تائهان في هجيرة القدر
ورؤيتان في سرابنا ، المشرد ، الكئيب
يا ليل ، يا رياح ، يا بحيرة الصموت :
....
....
....
أحس في قرارك السحيق رجع شهقة الذنوب
تفجرت من غورك البحار ، واستفاقت الحمم
ومزق النذير صمتك الجديب
أحس هيكل السكون يستجير في مجامر الشرر
يبتلع اللآلىء الوضاء والمحار والصدف
كأن برج قاعك العميق من خزف
تسللت اليه كف مارد رهيب
وعانق الفجر ، وفض بابه الجديد
لمولد البعث ، لمولد الحياه !

بغداد — علي الحلي

اربع قصائد للعراق



— ١ —

طفل بغداد الاسود

طفل أسود ، يزحف عبر شوارع بغداد
ملتف بالصمت ، وبالرهبة ، يخشاه الاولاد
لا وجه له ، لا عينان
لا يحمل أي ملامح للانسان
لم يولد من أم ، لم يحضنه أب
طفل ، بري ، يزحف في صمت الدرب

. . .

يروون ، هنالك ، ان الطفل اذا ما انقضى الليل
يجتاز الاسوار ، ويطرق كل بيوت الناس
لا يلقى رجلا الا صاح به : انت أبي !!
لا يلقى امرأة الا ناداها : يا أمي !
ويقال بأن الناس ، هنالك ، قد ألفوه
وبأن الاطفال ، جميع الاطفال ، أحبوه

. . .

من عدة أيام
كان الفجر يمزق في بغداد الليل
ورأى الناس الطفل الاسود عملاقا جبار
يهدر عبر شوارع بغداد
في احدى كفيه النيران
في الاخرى يجري الطوفان

— ٢ —

الجلاد ، والزهرة الحمراء

في تربة قبر منسي
نبتت زهرة
حمراء ، بلون الورد الجوري
وبوهج الجمرة

. . .

الفصل خريف
ماتت في الرهبة أنفاس الزهرات
لم تسلم واحدة من حد السيف
حتى العفنات

. . .

لكن في الترب المنسي
ما زالت تنمو زهرة
لم يبصرها جلاد الحي
فالزهرة تنمو في الفي

. . .

الزهرة تنمو .. تنمو .. يمتد الجذر
القبر انشق ، تحرك من في القبر
اغصان الزهرة تمتد وراء الابعاد
تاتف على عنق الجلاد
الزهرة ما عادت زهرة
صارت فكرة

— ٣ —

عودة آذار

آذار يعود الى الموصل
التربة عطشى للماء الرقراق
الارض بلا عشب، والاشجار بلا أوراق
لا يشدو عصفور في فجوة غصن
الموصل حزن ينبع من مقلة حزن

. . .

من اعوام مر عليها آذار
كان قسوه
كان بلا عينين ، بلا رئتين ، بلا قلب
قد فقأت عينيه الغربان الحمر
قد نهشت رئتيه الغربان الحمر
أفواج جاءت من كل سماء
لم تترك نسرا يخفق في الاجواء
لم تبق على الموصل غير الاشلاء

. . .

آذار يعود
الفرخ المستور عن الغربان يصير عقاب
يمتلىء الجو نسور
لم ينج غراب
انقضي .. انقضي يا عقبان الجو على الغربان
روي الارض العطشى ، غذي من دمها الاشجار
ليعود الى الموصل آذار

— ٤ —

أجراس البعث

الفجر يطل من المشرق
أجنحة من نور تخفق
بغداد ، تعرى ، تغتسل
تغرق في دفق النور المقل
لن تطفأ شمسك يا بغدادي ، بعد اليوم
لن تنعب في خضرة واحاتك أفواج البوم

. . .

الفجر يفيض .. يفيض على الصحراء
اعلام البعث تلوح في غابات النخل
اني اسمع عبر الصحراء دوي طبول
دقي .. دقي يا أجراس البعث
الذعر يدب بكل مكان
دقي .. قد خلعت اضلاع الفئران
دقي .. لن ينجو اليوم جبان
الارض سنغسلها من أعداء الانسان

طرطوس **محمد عمران**

«الآدابُ» ... وَالانفِصَال

كما عانت « الاداب » طويلا في العهد القاسمي الاسود بالمنع والتمزيق والتشويه ، كذلك عانت طوال عهد الانفصال الاسود ، فمنع كثير من اعدادها من دخول سوريه ، لما كانت تضم صفحاتها من مقالات وقصص وقصائد تفضح ذلك العهد، مرة بالتصريح ومره بالرمز والتلميح .

ونحن اذ ننشر فيما يلي مقتطفات من تلك المقالات والقصص والقصائد ، نحيي الادباء السوريين الاحرار الذين حملوا مسؤوليتهم وشاركوا في الاطاحة بذلك العهد الرجعي المظلم .

في عدد نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦١ كتب رئيس التحرير قصة بعنوان « رحماك يا دمشق » صور فيها وقع نبأ النكسة على كل مواطن عربي مخلص . وقد وردت في القصة المقاطع التاليه ، على لسان الراويه ، وهي زوجه البطل :

« وتسمر زياد في صمته ، ولكنه كان يرفع عينيه بين الفينه والفينه ، فارى فيهما شرودا وغيبه . وزرحت تحت صمته ، وانا أحس ارهاقا ومشقه ، ولم انمالك نفسي، فقلت له :

ـ أتعتقد أن هذه التي يسمونها « انتفاضة مباركة » يؤيدها الشعب ؟

فالتفت الي ولم يجب ، كانما لم يسمع سؤالي ،ولكنه مالبث ان قال :

ـ لا يمكنني ان اصدق ان الشعب السوري يؤيدها.

وصمت هنيهة ثم اضاف :

ـ يبدو من البلاغين انها حركة تريد الانفصال،فكيف تريدينني ان اصدق ان الشعب السوري ، ابا الوحدة يقتل ابنته ؟

ثم انتفض فجأة وتمتم بين اسنانه :

ـ لا افهم شيئا ... انني لا اصدق هذا... لااصدق هـذا ... »

والمقطع التالي :

« ولما علم ان دمشق طلبت اعتبار البلاغ التاسع لاغيا ، وعادت عاصمة الجمهورية السورية ، ارتسم على وجهه شبح فجيعة لم اعرفها في ملامح انسان . ولقد ذعرت من هذا الوجه الذي يحمل الآن كل علامات الموت واليأس والدمار ... »

والمقطع التالي :

« لبث زياد جامدا لايجيب ، وكانت على وجهه علامات الاسى ، ولم يتكلم الا حين طرح عليه عديله السؤال، فقال في هدوء :

ـ لقد اعترف الرجل بأخطاء قد ارتكبت ، وهذا موقف الشرفاء من الرجال ، ولكن ...

وكف زياد ، فنظرنا الى عينيه نستجلي المعنى الذي يجول في فكره فيتردد في النطق به ، ثم رفع رأسه واضاف :

ـ ولكن هناك خطأ مريعا ...

قال عديل زياد : ـ أي خطأ تقصد ؟

فقال زياد : ـ مهادنة الرجعية التي اعترف بها الرجل . ان الثوار لايهادنون الرجعية .

فظللنا على صمتنا ، وشعرت بان الضيق الذي أخذ بصدري كان يتردد في كل صدر ، وفي صدر زياد قبل اي انسان اخر . وقال مع ذلك :

ـ ولكن لايحق لك يازياد ان تدين على هذا النحو ، فلا ريب ان هناك اسبابا كانت تبرر هذه المهادنة .

قال زياد في خشونة غريبه : ـ انني لا ادين ،ولكني اقرر حقيقه يوحيها الاعتراف .

ولاحظنا جميعا ان لهجة غضب عنيفة كانت تسيل في صوت زياد ، ثم سمعناه يقول بصوت متهدج :

ـ الا ترون ان هذه المهادنه هي التي ستقضي على الوحده والاشتراكية كسب الشعب الاعظم ؟

قال سامي : ـ ولماذا لاتدين السوريين الذين طلبوا الوحدة ، ثم انقلبوا عليها ؟

فأجابه زياد : ـ لايستطيع احد ان يدين شعبا برمنه .

ثم اضاف كانه يستدرك : ـ غير اني مؤمن اعمق الايمان بان هذا الشعب لن يتخلى لحظة عن الوحدة ، وان كنت واثقا من ان الذين قاموا بالانقلاب يتبنون هذا الشعار تبنيا زائفا . انهم يضللون الشعب .

قال سامي : ـ لن يضل الشعب طويلا ، ولكنه قد يخضع للحديد والنار ، ومع ذلك فلن يطول صمته على حكم الحديد والنار . »

والمقطع التالي :

« قلت له بجد : ـ انني لا اكاد افهم يأسك .. لقد رددت لنا مرارا ان الامر لن ينتهي على هذا النحو ..

فقال : ـ لست يائسا ياليلى ، ولكني خائف .. خائف ان تنجح الحركة نهائيا ، فيضطر الشعب الى تأييدها تحت الضغط والارهاب ، ونعود القهقرى خمسين عاما الى الوراء ، في خسراننا الوحدة والاشتراكية .

ولم يدع لي ان اقول شيئا ، بل بسط يمناه في اتجاه الشرق وقال بصوت مخنوق مبتهل :

ـ رحماك يا دمشق .. رحماك يا حلب .. رحماك يا لاذقية ! »

وهذه العبارة :

« ثم روى لي زياد انه استمع الى عدد من الادباء السوريين الذين يحترمهم يتحدثون من اذاعة دمشق احاديث زلفى وتملق للعهد الجديد ... »

وفي العدد نفسه قصيدة للشاعر الحساني حسن

عبد الله بعنوان « أصدقائي في دمشق » ومطلعها :

أصدقائي
نبأ طاف
أحق انه لم يبق لي منكم سوى ذكرى لقاء
نبأ طاف :
أحق أغلق الباب وقام السور بين الاصدقاء
نبأ طاف :
« وأمسى الليل جنديا ينادي
أو حق انه أمسى ينادي :
قف فان كنت انفصاليا تقدم
واذا كنت صديق الاتحاد
او حق يطلق الليل عليه البندقيه ؟

ومنها قوله :

اصدقائي
أغلق الباب ،فكونوا من وراء الباب ،فوق السور ،كونوا حرسا
سيخر الباب يهوى السور ان كنتم فكونوا ...

وفي العدد نفسه « رسالة من عربي في دمشق »بقلم محيي الدين اسماعيل يصور فيها مأساه الانفصال عبـــر روح مرهفة مزقتها النكسة ولكنها لم تفقدها أملها بولاده تاريخ عربي جديد .

وقد نشرت الاداب في هذا العدد نفسه بيانا لرابطة الادب الحديث في القاهرة وبيانا اخر لاتحاد الادباء العراقيين الاحرار حول الحركة الانفصالية والتمرد الرجعي في دمشق.

وفي العدد الرابع (نيسان) ١٩٦٢ قصيدة للشاعر ماجد حكواتي بعنوان « انتظار » جاء فيها قوله :

متى تجيء ايها الصديق
في غيمة خضراء تفرش الطريق بالربيع
بنظرة أليفة تذوب الصقيع
تجيء تشعل النجوم في مسائنا الكئيب
وتمسح الغبار عن رفوفنا وتسكب الحياة في الشتاء..

وفي العدد نفسه قصيدة بعنـوان « رؤى محرقه » للشاعر علي كنعان مايئة بالرموز ، كمعظم قصائد هـــذا الشاعر الثائر ، ومنها قوله :

« رؤى محزونة لاتنتهي ابدا
كأسراب من الغربان تنعب في شراييني
ففي ريح الخريف صدى
وتعبر أفقي الباكي بغير هدى :
عشية غلغل الواشون كالبرداء في بلدي
تلوى في نفوسهم ملايين الثعابين
حبالى بالردى والحقد والحسد
فراحوا ــ خوف ان يحظى بعرس الشمس وادينا
وتكتنز الينابيع الشهية خصبها فينا
نياسينا ، نياسينا
يدوسون الزهور يدنسون عفافها حتى
يجف رحيقها الشافي فلا تحنو على احد
ويحتفلون بالظلمات ان تبقى الى الابد
فكم رقصوا على اناتنا ... بطرا
وكم سكروا بما نلقى من الكمد
تحدوا صبرنا واستنزفوا اغلى أمانينا
أبادوا كل ما أعطت من الخيرات ايدينا
وشادوا حولنا يا اخت أسوارا
من الانقاض والموتى
فهأنذا أعيش وراء حياتي تافها ميتا

ــ التتمة على الصفحة ١١١ ــ

سونيت خامسة

✶

لسنا رملا تذروه رياح الليل ، وتقصيه
ما شاءت ،
لسنا نهرا يذبحه الصيفُ
ويهيل العطش المرّ عليه ، يمزقه الخوفُ
ان مر بصحراء التيه
يوما ، وتهاوت ، ماتت بعض أغانيه
لسنا خفاشا يهوى العتمة ، انّا في العتمه
أغنية ما هدأت ،
اعصار يحفر للقمه
دربا بضحاياه ، وبعزم يوريه
يروي اسطورة صبح ، شال الليل ، رماه
في البئر ، ولم يسحقه ، ولم يفقأ عينيه ، ولم
بل مر عليه خبزا يطفي جوعتهُ
وأتاه بالدم نهرا من أحباب الصبح ، وبالسلّم
وكأن أياديه البيضاء على ما فعلته تندم
لكنا البحر الطامي ، كم قرصان مزقناه .

بغداد — **عبد الستار الدليمي**

✽ من مجموعة جديدة بعنوان « سونيت خامسة » .

مـرثاة

الى أخي نمر

« شقيقي ، وصديقي ، وحبيبي الذي هوت
به الطائرة الى البحر »



– ١ –

وارتجفت مثلوجةً أصابعي على وريقة البريد

هم يكذبون

هم يكذبون

بل انت تحلمين تحلمين

استيقظي ، حلم ثقيل لا يطاق

وحدّقتْ عيناي في الأشياء وامتدت يدي

تلامس الخوان والكتاب والاوراق

استيقظي . حلم ثقيل لا يطاق

وحدّقت عيناي في وريقة البريد من جديد

وأطبقتْ مثلوجةً اصابعي على وريقة البريد

يا نمر ، لا يا نمر ، وافجيعتاه

* * *

يا نمر يا حبيب اختك الكسيرة الجناح

يا نمر يا جرحاً جديداً غار في قلبي المدمّىٰ بالجراح

أهكذا بلا وداع تزمع الرحيل

اهكذا بلا وداع يا حبيبنا ويا اميرنا ، ياحزننا الطويل

لا قبلة على طراوة الخدين والجبين لا عناق

لا نظرة اخيرة نحملها زاداً لنا في وحشة الفراق

يا نمر يا حبيبنا ويا اميرنا لو أنّه

فراق اعوام حملنا ثقله ، لكنّه

فراق عمر ، وافجيعتاه !!

ـ ٢ ـ

وهمت في الدروب
غريبة في بلدٍ غريب
أحمل ثكلاً لا تطيقه الجبال
وصحت يا جنون هذه الحياة يا
أقدار يا غيوب يا سما
أمثله يموت زينة الحياة والدنى
امثله يموت ؟
يا موت يا غشوم يا غدّار
تخطفهم احبتي واخوتي
احبتي واخوتي زهر الرياض لؤلؤ المحار
احبتي واخوتي الشموس والاقمار
تخطفهم في عزّ عنفوانهم في روعة انطلاقهم على القمم
يا موت يا مجنون يا اعمى العيون يا اصم
يا قاصماً ظهري الضعيف لي لديك الف ثار ، الف ثار
وانت يا من قيل عنه إنه هناك
حانٍ لطيفٌ بالعباد
حانٍ لطيف بالعباد ؟ اين انت ؟ اين انت ؟ لا اراك
دعني اراك كي اقول إنه هناك

ـ ٣ ـ

حزينة انا حزينة تفجّري
يا نبعة الدموع
يا فرج المكروب يا سخيّة العطاء
تفجري من كهفك السحيق كهف الحزن والظلام
والاسى الوجيع
يا نبعة بملح مائها
قد جُبلت ارض الشجا والموت والشقاء

ـ ٤ ـ

يا امّ عائد اليك ابنك الحبيب
تزّفه عرائس البحار في طراوة الصباح
تزّفه مشغوفةً بكنزها الثمين
لؤْلؤة ما ضمَّ قلب البحر يوماً مثلها بين اللآل
لؤْلؤة تعزّ في الرجال
اعطيتها يوماً بلادي ، كم وكم
اعطيت يا امي بلادي من لآل
اراك يا امي اراك تفتحين
للعائد الحبيب صدرك الرحيب
ارى محياك الضحوك مشرقاً ببهجة اللقاء
بفرحة الحبيب بالحبيب
فلتنعمي ؛ اما الدموع والجراح
فهي لنا ، خلّي لنا الدموع والجراح
وصرخة النديب
وافجيعتاه

فدوى طوقان — اكسفورد

قضايا الأدب والأدباء

منظمة حرية الثقافة في ج.ع.م...

بقلم رجاء النقاش

نشرت جريدة « اخبار اليوم » القاهرية في عددها الصادر بتاريخ ١٦ – ٣ – ١٩٦٣ المقال التالي بقلم رجاء النقاش :

اليوم .. والحركة العربية الثورية تحقق انتصارات كبرى في الميدان السياسي، لم يعد من الجائز أن نسكت على مشاكلنا الثقافية الاساسية . ولم يعد من الجائز أن يكون صوتنا في العالم كله هو صوت « السياسة » فقط ، فنحن في النهاية نريد ان نخلق في بلادنا حضارة شاملة ، وما الهدف الحقيقي البعيد للثورة السياسية الا تحقيق الثورة الاقتصادية والثورة الثقافية .

وباختصار .. نحن نريد بثورتنا السياسية أن نعيش في القرن العشرين ، نريد ان نضيء قرانا بالكهرباء ، وألا يكون في وطننا العربي متعطلون أو جائعون أو مرضى، وألا يكون في هذا الوطن الكبير أميون لا يقرأون ولا يكتبون.

اننا نريد ان نقفز عن طريق الثورة الشاملة مئات السنين الى الامام ، وهذا هو المعنى الحقيقي العميق للثورة العربية .

ولذلك ، فلا يكفي ان نحرر السياسة العربية من نفوذ الاستعمار والرجعية المحلية ، يجب أن نحرر الثقافة ايضا وفي نفس الوقت ، ويجب ان يكون تحرير الثقافة أمرا عاجلا مرتبطا بتحرير السياسة .. ولكننا للاسف ننظر الى تحرير الثقافة بهدوء .. وأعصاب باردة .

●

واليوم .. أحب أن أقدم مثالا واحدا على هذه القضية. أقدمه أولا لان صحف لبنان القومية تثيره وتناقشه .. ولكنه للاسف لا يجد صدى في القاهرة.

وأقدمه بعد ذلك كنموذج للتهاون في موقفنا من الثقافة الاستعمارية . فقد قررت « منظمة حرية الثقافة العالمية » أن تفتح لها مكاتب في العواصم العربية بما فيها القاهرة .

وقررت أخيرا ان تصدر مجلة عربية ، صدر بالفعل منها ثلاثة أعداد هي مجلة « حوار » التي تظهر في بيروت كل شهرين وهي مجلة يكتب فيها من مصر : الدكتورة سهير القلماوي والدكتور عبد الرحمن بدوي.

وفي القاهرة ... اختارت المنظمة الدكتور ابراهيم بيومي مذكور عضو المجمع اللغوي والعالم المعروف ليكون مندوبا دائما لها .

وفي العام الماضي دعت المنظمة الى مؤتمر أدبي في روما لدراسة « واقع الفكر العربي المعاصر » ، واشترك في هذا المؤتمر الدكتور مذكور والدكتورة بنت الشاطىء .

ولا شك أن هؤلاء الادباء والمفكرين جميعا لم يكونوا يعرفون حقيقة هذه المنظمة وهم يتعاونون معها .

فما هي حقيقة منظمة حرية الثقافة ؟!

ان هذه المنظمة ببساطة هي منظمة ثقافية استعمارية صهيونية .

لا نقول هذا رغبة في اتهام أحد او ايذاء أحد، ولكننا نقوله لانه الحقيقة .. كل الحقيقة !

نقوله .. بعد أن قصرت جمعية الادباء التي يشرف عليها الاستاذ يوسف السباعي في دراسة هذا الامر دراسة دقيقة ، أو تكوين رأي فيه يكشف حقيقتها أمام الناس ..

اننا نقاطع المؤتمرات السياسية والرياضية والفنية التي تساهم فيها اسرائيل .. فلماذا نتعاون مع مؤسسات ثقافية تربطها باسرائيل اقوى الروابط ؟!

هذه هي الحقيقة .. ولكن جمعية الادباء نائمة في العسل .. هادئة الاعصاب .

الحقيقة والاحلام الوردية

ولنترك جمعية الادباء في احلامها الوردية لنرى ما هي حقيقة منظمة حرية الثقافة هذه.

انها منظمة عالمية ، يسهم فيها كبار الرأسماليين العالميين ، هؤلاء الرأسماليون الذين يساهمون في تقديم التبرعات الدائمة لاسرائيل ويساعدونها كلما مر بها مأزق مادي.

هؤلاء الرأسماليون العالميون من أمثال اصحاب شركات روكفلر وفورد .. لماذا يدفعون الاموال العديدة الكثيرة من اجل منظمة ثقافية ؟

الحقيقة ، أن الرأسمالية المعاصرة ذكية وبعيدة النظر . ان الرأسماليين يعلمون ان العصر الحديث ليس عصر الاسلحة الثقيلة اولا ، بل هو عصر تدور فيه حرب أفكار وعقائد ، والذين يملكون « العقائد الثقيلة » وحدهم هم الذين يملكون الاسلحة الهامة في الحرب المعاصرة.

ولذلك فان الرأسمالي الكبير يدفع بدون تردد أموالا طائلة في سبيل خلق عقيدة معينة .. تحارب كل تقدم اشتراكي من أي نوع .

ان النظام الرأسمالي بوجهه الاستعماري ووجهه الرجعي لايريد ان يرحل من بلادنا رحلة نهائية خائبة،ليترك المجال أمام افكار اشتراكية تدور كلها حول مثل هذه المعاني .. تأكيد رسالة الفكر الاجتماعية وارتباط الفكر بقضايا التطور – التخطيط في الميدان الاقتصادي – حق التأميم المشروع للدولة الاشتراكية .

مثل هذه الافكار يجب الا تكون عملة رائجة في الوطن العربي ، ويجب ان ينتشر بدلا منها افكار اخرى مثل: الثقافة للثقافة ، والفن للفن وعمق الحافز الفردي في الحياة .

فكر عميق له جذوره

وهم لا يريدون نشر هذه الافكار الجذابة بسذاجة بل بعلم وعمق .. لان الفكر الرأسمالي ليس فكرا سطحيا

ولا تافها ، ولكنه فكر عميق له جذور عريقة في اوروبا وامريكا ، وهو يستطيع ان يتسلل الى العقول في ثياب من حرير .. حتى لا نشعر بما يحمله الينا من دمار !

ولعلنا نستطيع أن نفهم أهداف منظمة حرية الثقافة البعيدة لو عدنا الى هذا المثل القديم .

ففي سنة ١٩٢٦ تقدم المليونير الامريكي روكفلر .وهو أبو روكفلر الحالي الى الحكومة المصرية يقترح انشاء « متحف للاثار الفرعونية » في مصر يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن ، وقرر المليونير الامريكي التبرع لانشاء المتحف والمعهد بعشرة ملايين دولار ، واشترط لمنح التبرع « أن يوضع المتحف والمعهد تحت اشراف لجنة مكونة من ثمانية أعضاء ليس فيها سوى عضوين مصريين فقط على ان تظل هذه اللجنة هي المسؤولة عن ادارة المتحف والمعهد لمدة ثلاث وثلاثين سنة » .

وكان الهدف كما قال الدكتور محمد حسين فيكتابه عنالاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر هو « خلق جيل من المتعصبين للفرعونية ثقافيا وسياسيا » .. جيل يكره العروبة ولا يؤمن بها . وقد استخدم المليونير الامريكيعالما كبيرا من علماء الاثار هو « بريستد » لاقناع الحكومة المصرية بهذا المشروع.

ولحسن الحظ .. رفضت الحكومة المصرية في ذلك الحين الموافقة على المشروع.

هذا مثال قديم يوضح عقلية الاستعمار الغربي والرأسمالية الغربية ... وهي عقلية لم تتغير الى اليوم.

فقبل أن تتضح الفكرة العربية فيمصر كان الغربيون على وعي بهذه الفكرة ، يعلمون أنها ستنفجر يوما وستكون شيئا خطيرا .

وقد حدث ما توقعوه .

فالفكرة العربية هي اليوم جزء أساسي من رسالة مصر ... ورسالة الوطن العربي كله !

وهي ليست فكرة تهدف الى توحيد الوطن العربي تحت علم أمبراطوري ، بل هي فكرة شعبية تقدمية أصيلة .. فالفكرة العربية أصبح لها وجه جديد خطير هو: الاشتراكية !

ومنظمة حرية الثقافة تهدف بوضوح الى تحطيم الوجه الاشتراكي للفكرة العربية .. بعد ان عجزت في الماضي عن هدم الفكرة نفسها .

المنظمة التي تمجد اسرائيل

وهذه المنظمة التي تصدر باسمها مجلة في بيروت هي نفسها المنظمة التي تنشر صحفها في فرنسا وانجلترا وايطاليا تمجيدا لا حد له لاسرائيل .

وأنا أنقل هذه الفقرة التي نشرتها احدى صحف المنظمة عن اسرائيل ، وأنقلها كما ترجمها الكاتب العربي الكبير محسن ابراهيم في مقال له بمجلة « الحرية » التي تصدر فير بيروت .

تقول « الفقرة » التي نشرتها احدى مجلات منظمة حرية الثقافة :

« ان اسرائيل تعاني من الصعوبات التالية التي يجب أن تتحرر منها :

أ ـ انها البلد الاسيوي الوحيد الذي يقطنه رجال ينتسبون الى اوربا من حيث لونهم وثقافتهم .

ب ـ ان اسرائيل ترفع عاليا وباصرار سمعتها كحاملة لمشعل الحضارة الغربية .

ج ـ أن اسرائيل تتعرض لدعاية حاقدة من قبل العرب وهي دعاية تفوق الى حد بعيد اصرار وشدة الدعاية النازية » .

هذا هو رأي منظمة حريةالثقافية فينا وفي اسرائيل.

فاسرائيل هي الحضارة .. والعرب هم خراب الحضارة .. هم النازيون ..

وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر وقفت مجلات المنظمة في العالم كله تبكي على فشل هذا العدوان، وتأسف بمرارة لان معركة السويس لم تصبح معركة حاسمة بين الحضارة الغربية والهمجية العربية .. ان هذه المعركة كان يجب ان تصبح مثل معركة « تور » التي دارت في جنوب فرنسا عام ٧٣٢ م بين العرب وبينشارل مارتل. تلك المعركة التي ارتد بعدها الزحف العربي على اوروبا ارتدادا نهائيا ، فانسحبت الحضارة العربية وانسحقت الى الان .

كذلك كان يجب أن تكون معركة السويس.. ينسحب بعدها العرب وينسحقون تحت أقدام الحضارة الاوروبية ممثلة في فرنسا وانجلترا واسرائيل .

مشاكل لا تهتم بها حواء

ولو تناول القارىء العربي مجلة حوار التي تصدرها المنظمة في بيروت باللغة العربية لوجد كثيرا من اهداف هذه المنظمة العالمية بين صفحة المجلة .

فرئيس تحرير هذه المجلة ـ للاسف ـ شاب من ألمع الشباب العربي الفلسطيني المثقف هو توفيق صايغ. ورغم أن توفيق صايغ عربي من فلسطين ، ورغم ان موقفه كان يجب ان يكون بجانب المثقفين الثوريين العرب في كل مكان .. رغم هذا فانه ابتعد عن هذه القضية للاسف . والمجلة التي يرأس تحريرها لا تشير من قريب أو من بعيد الى قضية فلسطين او الى غيرها من القضايا بالشرح والتفسير والمناقشة .. ان المجلة لا يعنيها ان تدخل في قضايا الثورة العربية او مشاكل هذه الثورة وهي في طريقها الى تحقيق الوحدة او تحقيق الاشتراكية .

انهذه المشاكل كلها لا تهم مجلة حوار .. ولكن الذي يهمها هو الثقافة الرفيعة والفن الرفيع .. وبلغة أخرى ، الثقافة للثقافة والفن للفن !

وهذا هو منطق المنظمة في محاولة الزحف الى الوطن العربي والعقل العربي . انها تريد ان تجمع حولها عددا كبيرا من المثقفين العرب وتفصلهم تماما عن قضاياهم كما فعلت بتوفيق صايغ ، وينتهي الامر الى تكوين طبقة من المثقفين الاروستقراطيين الذين ينظرون باستعلاء وعدم مبالاة الى مشاكل شعوبهم المختلفة !

ان المنظمة تدفع أموالا طائلة للكتاب ، وتعد لهم برامج واسعة للرحلة بين أنحاء العالم كله !

ولا علاقة لهم بعد ذلك بمشاكل بلادهم .. فهيمشاكل الرعاع والدهماء !

حرب لا هوادة فيها

والمنظمة تحارب بصراحة كل الوان الفكر اليساري ..انها تحارب الشيوعيين والاشتراكيينوالقوميين العرب. وتتخذ من محاربة الشيوعية ستارا لمحاربة الاشتراكية العربية والقومية العربية .

ومما لا شك فيه ان الثورة العربية قد وقعت في اختلاف واضح مع الشيوعيين العرب .. فكريا وعمليا .. وذلك بعد أن أخطأ الشيوعيون فهم القضية العربية وتقديرها !

ولكن هذا ليس معناه ان المثقفين المؤمنين بالثورة العربية مستعدون لان يكونوا اجراء في محاربة الشيوعية.

صحيح انناعلى خلاف مع الشيوعيين ولكننا نحترم العقيدة السياسية للشيوعيين ونعتبر اختلافنا معهماختلافا فكريا .. ونحن ايضا لسنا مستعدين ولا يجوز ان نكون مستعدين لان نصبح مأجورين للرأسمالية العالمية فيخلافنا مع الشيوعيين !

فالثورة العربية ثورة يسارية اشتراكية . والثوريون العرب ثوريون يساريون اشتراكيون . والعدو الاول للثورة

العربية هو الرأسمالية العالمية بوجهها الاستعماري ووجهها الثقافي معا !

وهذه هي الحقيقة

هذه هي منظمة حرية الثقافة على حقيقتها !

صداقة عميقة ودعوة حارة لاسرائيل . وأموال تبعثر من اجل محاربة اليسار كله تحت ستار محاربة الشيوعية ، وعداء كامن عميق للثورة العربية والتقدم العربي الكبير.

ومع ذلك فهناك في القاهرة من يتعاون مع هذه المنظمة ، بعد ان نجحت ، في اخفاء وجهها الحقيقي عن بعض كبار كتابنا الذين نحترمهم .

عندنا كتاب يكتبون ـ بحسن نية قطعا ـ في مجلة « حوار » مثل الدكتورة سهير القلماوي والدكتور عبد الرحمن بدوي .

وعندنا مندوب للمنظمة هو الدكتور ابراهيم بيومي مدكور ..

وعندنا من يحضر مؤتمرات تعدها هذه المنظمة.. مثل الدكتورة بنت الشاطىء !

وأنا ـ ولا غيري ـ يستطيع أن يشك لحظة في وطنية واحد من الذين ذكرتهم ! فكلهم أساتذة كبار جديرون بكل احترام وتقدير ومحبة .

ولكنهم في الحقيقة لا يعلمون !

لا يعلمون لان جمعية الادباء لا تتحرك ولا تفكر في دراسة مثل هذه الظواهر المعادية للثقافة العربية عداء عميقا . والحقيقة اننا لا يمكن ان نعفي الاستاذ يوسف السباعي من مسؤولية مثل هذه القضايا الكبيرة !

وهم لا يعلمون أيضا لانهم واثقون من أنفسهم كل الثقة .. وما تكفي الثقة بالنفس في عالم .. فالواجب على علمائنا وكتابنا أن يدرسوا المؤسسات التي يتعاملون معها دراسة دقيقة قبل أن يمدوا أيديهم اليها !

قاطعوا هذه المنظمة

واليوم ...

أكتب هذا المقال كدعوة مخلصة الى مقاطعة هذه المنظمة واغلاق مكتبها في القاهرة .. ان اقل ما يجب علينا هو عدم التعاون مع منظمة تدعو علنا لاسرائيل . وتقول عنا اننا نازيون .. منظمة تهدف الى تحويل المثقفين العرب الى مجموعة من الاورستقراطيين البلداء المعزولين عن قضايا شعوبهم المأجورين في الحرب الباردة بين الغرب والشرق .. منظمة تعادي الاشتراكية وتكرهها كره العمى .. منظمة ترى في اسرائيل رمزا للحضارة والتقدم .. وترى في العرب خرابا على الحضارة والتقدم ..

انها دعوة .. أرجو أن تجد صداها بأسرع وقت ..

رجاء النقاش

اغنية الى بردى

●

سلاما أرضنا الحره
سلاما يا ظلال الحور والصفصاف .. يا بردى
نسينا ما تخبئه لنا الافياء من حولك
وغنينا لكل وريقة سقطت من الادواح .. من دوحك

*

وهذا نحن يا بردى
جمعنا من شفاه شقائق النعمان ضحكتها
وجئنا فيك ننثرها
فلا تبخل علينا .. ضمنا كالموت .. ضم جراحنا ..
كالموت .. يا بردى
سرقنا من خطى الوديان خضرتها
سرقنا من نواقيس الصلاة هناك .. رنتها
ومن أجراس رعيان السفوح .. هناك .. قرعتها
وفوق السفح .. من هذي البحار الزرق .. زرقتها
وجئنا فيك ننثرها ،
فلا تبخل علينا .. ضمنا كالموت .. ضم جراحنا ..
كالموت يا بردى

*

عدمنا في السرى ـ بردى ـ نقاء الكف .. هومنا
.. فألفينا لديك يدا
وان قلنا : متى تهوي الثلوج .. متى يفيض النهر ..
قلت : غـدا
وهـذا نحن يا بردى
جمعنا من شفاه شقائق النعمان ضحكتها
سرقنا من نواقيس الصلاة .. هناك .. رنتها
فلا تبخل علينا .. ضمنا .. كالموت .. ضم جراحنا
كالموت يا بردى .

دمشق **فواز عيد**



طريق الجامعة

للدكتور شكري عياد

***

عندما يكون القصاص ناقدا أيضا ، فاننا نستطيع أن نفهم بعض جوانب أعماله الفنية على ضوء كتاباته النقدية ، مثلما تخدم قصصه التي يكتبها النظرية ــ او مجموعة الافكار ــ التي يدعو اليها . وهكذا الحال بالنسبة للقصاص الدكتور شكري عياد ، فالسمة العامة التي يستخلصها القارىء من كتاباته هي الواقعية ، وليس من السهل أن يلتفت القارىء الى اهتمامه بالاسطورة والرمز دون ان يقرأ ما كتبه هو نفسه في هذين الموضوعين . لقد عرف الدكتور شكري ككاتب واقعي يهتم كثيرا بالاحاسيس الطيبة والمشاعر الانسانية والقضايا العادية التي تمر بكثير من حياة الناس . يظهر هذا بوضوح في مجموعته القصصية « ميلاد جديد » و « طريق الجامعة » . ولكن بمحاولة تفهم شكري عياد قصاصا وناقدا نعثر على خيط جديد يتمثل في ثلاث قصص من مجموعته الاخيرة تأخذ الطابع الاسطوري على اختلاف اشكاله ، ويبدو فيها الرمز أحيانا واضحا واحيانا غير واضح ، احيانا يمثل كيان القصة كلها ، واحيانا يبدو باهتا غير هام ..

وفي كتاب (البطل في الادب والاساطير) نستطيع ان نلمس مدى اهتمام المؤلف بالاسطورة كعنصر يتكامل مع العمل الفني في العصر الحديث ، وهو يبدأ بالمقدمات التالية :

« بعد انتهاء القرن العشرين بقليل بدأت تظهر في الادب دلائل الازمة التي جعلت الواقعية والرومانسية كلتيهما اداتين عتيقتين ، والزمت المحدثين ان يبحثوا عن طرق اخرى للتعبير » (ص ١٦٣)

... « وهكذا بدأ مثقفو الطبقة المتوسطة يشعرون بانهيار الركنين اللذين قامت عليهما حضارة هذه الطبقة وهما الفردية والعقل . وبجانب الظواهر الوقتية التي أدى اليها هذا الانهيار في الادب والفن ، كانت الظاهرة الاهم هي أن وعي الانسان ، وقف مرة أخرى بقوة لعلها لم تسبق في تاريخه الفكري امام تلك المنابع الاولى للحياة التي عبر الانسان القديم في أساطيره ، فظهرت الاسطورة مرة أخرى في الادب » (ص ١٦٤)

ثم يكمل المؤلف بحثه عن استعمال الاسطورة في الادب الحديث فيضرب المثل بأوديسيوس لجيمس جويس ، والارض الخراب لاليوت، ثم يقارب بين البطل في الاسطورة القديمة والاسطورة الكافكاوية الحديثة .

ونحاول أن نتبين هذا الخيط في القصص الثلاث ...

وتبدو آخر قصص المجموعة « الناس والعيون » قصة رمزية فهي تتناول شخصيات مرسومة رسما ذهنيا اسطوريا ، وقد أعطى الكاتب لابطاله اسماء غريبة واضح انها مصنوعة تماما ، وجعلهم يعيشون في بيئة ومجتمع واضح انهما غير حقيقيين كلية .

وفي الواقع تبدو لي القصص الرمزية التي تتخذ شكل الاسطورة المحضة مقلقة الى حد ما. فالرمز قد تخطى هذه المرحلة واخذ في الادب الحديث شكلا آخر تماما ، ونفض عن نفسه اطار الاساطير . لقد اتسعت دائرة الرمز ، ولم يعد سجينا داخل الاسطورة . حقا لقد ارتبط الرمز في البداية بالاسطورة على اعتبار انها التعبير الواضح عن الغرائز والنزعات الجماعية عند الجماعات البدائية والقديمة . فسلولا أوديب والكترا وأوزيريس واشتار ... الخ له اصول في النفس الانسانية . ولكن بعد ان أصبحت الخرافة شكلا لا يتلاءم مع العقل البشري المتحضر اتخذ الرمز شكلا آخر تماما .. وهو تخلل احداث واقعية في نسيج واحد متماسك .. ووصل الرمز الى قمة تطوره بامتزاجه بالادب الواقعي ..

ولكن رغم ذلك فاننا نقبل على القصة ناسين كل هذه الاعتراضات، واضعين امامنا تبريرا واحدا قويا هو ان المؤلف اختار الاطار الذي يؤمن بانه يلائم الفكرة التي يعرضها ... وعلينا ان نناقشه من داخل هذا الشكل ، غير محاولين فرض شكل ما او معترضين على شكل ما ...

ولكننا نتساءل ــ بروح مجردة عن أية احكام سابقة ــ ماذا تريد ان تقول لنا هذه القصة ؟ وهو سؤال بديهي بالنسبة لعمل اسطوري أو رمزي ... ولكننا نجد أنفسنا متخبطين بين عشرات الافكار دون ان نصل الى ما يقصده الكاتب . وهنا نتساءل مرة اخرى : هل معنى الرمزية او استعمال الاسطورة الانغلاق التام ، واسدال ستار بين وضوح الكاتب وتذوق القارىء ؟ هل استعمال الاسطورة في الادب الحديث كان هدفا مجردا ؟ أليس المؤلف هو الذي يردد ... « فمن الكتاب والشعراء من اتخذ شكل الاسطورة ، كما يقول اليوت ، لاحداث تواز مستمر في العالم القديم والعالم الجديد للسيطرة على تلك الصورة العريضة من العقم والفوضى التي تكون تاريخنا المعاصر ؟ » ؟ وكيف يتم هذا التوازن بمجموعة من الاحداث المختلفة التي لا تسير في خط واحد، ولا تصل بالقارىء الى شيء ؟ حقا ان الرمز معناه الى حد كبير البعد عن الوضوح . ولكن من المتفق عليه ان يكون له مغزى ما ... قد لا يوضح لنا الكاتب فكرته ، ولكنه يعطينا اياها بشكل ما ، ربما قطرة قطرة . قد لا نفهم ما يرمي اليه .. وقد نختلف في تفسيره .. ولكننا رغم ذلك نحس الاثر الذي قصد ان يخلفه في نفوسنا ..

وعندما نتساءل عما صنع المؤلف في هذه القصة ، لا نجده وصل الى أي من هدفي الكاتب الرمزي . فلم يعطنا فكرة نخرج بها من القصة ــ حتى ولو اختلفنا معه فيها ــ ولم يعطنا الاحساس الذي يريد ان يجعلنا نخرج به حيال موقف ما او نموذج ما .

وقصة « الناس والعيون » هي قصة صائغ اسمه (آمرتام) يعيش منطويا على نفسه مع حفيدته (رازا) يأتي اليه حرس الملك بين الحين والحين ــ في قريته النائية ــ بجواهر يصيغها لهم . وشغف شاب اسمه (بهافا) بعمل آمرتام ، وتمنى لو تعلمه عنه ، فهجر كل شيء ليرقبه من فوق شجرة ، وحاول ان يتقرب من حفيدته ، ولكن كل ذلك دون جدوى. وذات مرة يكتشف ان آمرتام الصائغ ليس أكثر من أعمى . ولكن أهل القرية لا يصدقون ويخرجون مع الفتى ليراقبوا آمرتام .. ويمد الصائغ

يده الى حفيدته طالبا منها ان تسحبه الى باب الحجرة . ويقول الناس ان الصائغ ساحر ملعون ويربطون بينه وبين المصائب التي توالت على القرية ، ويقررون ان يحرقوه مع حفيدته في منزله .

وفي البداية يلقون اليه الاحجار التي تقلب ما على المنضدة من ماس ولؤلؤ ويافوت ومرجان على الارض .. فينحني آمرنام ليلتقطها، وتسري همهمة بين الواقفين ... « واخيرا عندما استدار آمرنام ليواجههم ، هالهم ان رأوا على الوجه سيماء عذاب فوق الشكوى والدموع والالم ، ورأوا مكان العينين الواسعتين ماستين تومضان » .

ونحاول ان نفهم المغزى الذي قصد اليه الكاتب فنجد أنفسنا في حيرة لا نهاية لها .. فلا نستطيع ان نقول ان آمرنام رمز للعلم أو الصبر أو الاجتهاد ، لان ضنه بعلمه وجعله في خدمة الملوك فقط أمر لا يخدم هذا القصد . ولا نستطيع ان نفهم انه نقيض المعاني الاولى لان الكاتب طوقنا بكلماته في نهاية القصة عن سيماء العذاب التي تبدو على وجهه، وجعلنا نتعاطف معه . وبهذا ايضا لا نستطيع ان نقول انه رمز للتطلع ومحاولة التعلم لانه بدا في النهاية حاقدا لا يتورع عن استعمال أي طريقة للانتقام من الصائغ العجوز وحفيدته . وفي نفس الوقت لا نستطيع ان نحكم عليه نتيجة هذا الموقف الاخير وحده ، لانه في بداية القصة يمثل الشوق الى المعرفة .

وكان يمكن للكاتب ان يظل على غموضه وان يحتفظ لنفسه بمفتاح الفكرة التي يعبر عنها، لكن كان من الضروري ان يحدد ـ بشكل فني ما ـ موقفه بالنسبة لبطلي القصة .. الى جانب أيهما نقف ؟ والى جانب أيهما ننحاز ؟ ولماذا ؟

ولكن على العكس من هذا تماما تبدو قصة «السجن الكبير» فالرمز فيها يبدو صارخ الوضوح ... وقد لا يبدو ـ للوهلة الاولى ـ الجو الاسطوري بالمعنى المتعارف عليه .. فالاماكن مألوفة ، والاشخاص ليست لهم اسماء غريبة بل ليست لهم اسماء على الاطلاق ، والاحداث ليس فيها خوارق ولا تدخل من قوى غيبية . ولكن اذا ما فهمنا كيف يتصور الكاتب الاسطورة الحديثة ـ بالذات عند كافكا ـ (البطل والاسطورة ص ١٦٥) لعرفنا ان القصة تأخذ هذا الطابع . وواضح تأثر الكاتب في هذه القصة بفرانز كافكا ... « ووجدت نفسي فجأة في سجن كبير » .. « ومع ذلك كنت متهما بتهمة خطيرة ، ولم أعرف ما هي على وجه التحديد » .. « وقد صحح لي بعد ذلك فكرتي عن مدى سجني وأخبرني انها أطول مما كنت أحسب » .

وفي الجزء الثاني من القصة نعرف ان هذا السجن الغامض الذي أدخلنا اليه الكاتب ليس سجنا بالمعنى المفهوم ، ولكنه سجن كبير يضم بلدا بأكمله . ويقود البطل ثورة ضد الحراس .. « ألم تعرفوا الحياة خارج هذه الاسوار ؟ ان الارض ممتدة لا نهاية لها ، ولا نهاية للسماء » خارج هذه الاسوار .. هناك حقول ومراع وأشجار عالية .... الخ » ويحصنون السجن ويخرجون منه بوجوه مشرقة ...

والقصة الثالثة التي استعمل الكاتب فيها الاسطورة هي قصة « المستحمة » وهي تحكي قصة فتاة قروية اسمها (خالدة) أبوها مشلول كان يعمل خادما في مسجد القرية . وأحبت خالدة فتى من اثرياء القرية وسلمته جسدها . وتسأل أباها ذات يوم في حزن عن مصير « صديقة » لها « أثمت مع صاحبها ، وندمت على ذلك ندما شديدا ، وهي لا تزال تستحم بالماء الطاهر كل يوم ، ولكنها تنظر الى جسمها فلا تجده عاد كما كان ... »

ويقول لها الشيخ : « استغفري الله يا خالدة وابتعدي عن هذه الفتاة . انك ما تزالين طفلة يا بنيتي ، فالاثم الذي ارتكبته صاحبتك لا يطهره الماء . انه اثم فظيع لا يطهره الا الدم » . وتسمع خالدة الى كلام أبيها فتنتحر .

ولا يبقى من الاحداث الا ضوء مصباح يذهب ويجيء بين المقابر .. حتى البحيرة التي كانت تستحم فيها نضب ماؤها .

وهي اسطورة من المعقول أن تنشأ في الريف . وقد أراد الكاتب ان يعطي لها شكلا واقعيا فجعلها حوارا بين اثنين أحدهما يحكي والآخر لا نسمعه وان كنا نحسه . ولكن كلاهما بعيد عن المشكلة نفسها .. الكاتب آثر ان يتناول الاسطورة من خارجها .. كما يحكيها أهل القرية .. فافقدها الكثير من حيويتها ، وأفقدها الارض الواقعية التي كان يجب أن تقف عليها .

ولي ملاحظة على شكل هذه القصة عجزت عن كتمانها ليقيني انها لا تدخل في جوهر القصة . وهي ان القصة بدأت بداية كلاسيكية تماما، ومن الممكن ان تكون بداية لاية قصة أخرى : « كانت المعركة الابدية قد انتهت في الافق الغربي ، واستقر غبار الليل على آثار اللهب والدم . ودخلت الارض في سكون عميق . وكان شابان يسيران في الطريق الزراعي صامتين ، فقد كان كل شيء يعزيهما بالصمت وكانت صراصير الحقول ترجع أزيزها الدائب كأنها أصداء التعب تخرج من آذان الكون وتدعو الى راحة عميقة وهدوء » .

وهي بداية ـ وان تكن على قدر كبير من الشاعرية ـ مستغربة من كاتب يهتم الى حد كبير بالتكنيك ويحاذر من التعميم ، وله اهتمام جاء بتماسك اللغة وتناسب رسم الشخصيات مع تطورات الاحداث ، وقدرة على الاحتفاظ دائما بعنصر التشويق .

ولكن ليس معنى اهتمامنا بالاسطورة والرمز عند شكري عياد ـ كما نؤكد مرة أخرى ـ ان السمة الرئيسية لادبه هي الرمزية او الطابع الاسطوري ولكنني اعتقد ان الكاتب قد وضع اصابعه على اداة جديدة من الممكن ان يخلق منها عملا رائعا .

اما السمة الغالبة على قصص الدكتور شكري عياد فهي الواقعية .. أشخاصه من الناس العاديين . ومشاكلهم عادية وعميقة في نفس الوقت، واحداثه هادئة لا صخب فيها .. فاذا ما اخرجت ثلاث او اربع قصص من مجموعته التي تتكون من ثلاث عشرة قصة فانك لا تجد سوى أحداث صغيرة وعادية . ولكن هذه الاحداث لا تبقى عارية بعد ان يلمسها

الكاتب .. انه يحولها الى عمل فني رائع ، لانه يضيف اليها لمسة انسانية .. تلك اللمسة التشيكوفية التي تحول أبسط الاشياء الى شيء عميق انساني .. انه يكشف ببساطة غريبة عما في داخل النفس الانسانية من طيبة وخير .. انه يحب الناس ويحب طبيعتهم ويكره ان يفكر طويلا في خطاياهم وشرورهم .

وفي مقدمة القصص التي تفيض انسانية قصة « طريق الجامعة » وهي قصة اسرة صغيرة مكونة من أب هو السيد كامل أمين ، وزوجته الست كريمة ، وابنها طارق وابنتها نوال .. وتمر عليك منذ البداية الكلمات الشاعرية والتعبيرات المتألقة التي يجيد الكاتب خلقها دون افتعال ، فهو حين يتكلم عن طارق وكيف كان يدخل ويخرج فرحا الى أسرته الفرحة بنجاحه ، يصفه بانه « يذهب ويجيء كالعصفور يأتي الى العش الابوي ليلتقط الحب » .

ومن الواضح ان للكاتب قدرة لا تجارى على اختيار تعبيرات انيقة مشحونة بالشاعرية ، وكلمات منتقاة بعناية صائغ بارع .. مثلا ... « كانت صراصير الحقول ترجع أزيزها الدائب كأنه أصداء التعب تخرج من آذان الكون) (المستحمة) ، « كان كلامه ينزلق عن مخي دون أن يثير فيه أدنى فكرة » (صديق قديم) « كانت بدلته من الجبردين الاصفر : صحراء شاسعة عبرتها مسرعا حتى لا اهلك » (الثعابين) « سرعان ما أضاء وجهها بابتسامة عريضة لم تكن الا طليعة مستكشفة لغزوة كاسحة من الفرح المنفلت الذي ينشب مخلبه الان في قلبها » (شخص واحد) .

ونعود مرة اخرى الى قصة « طريق الجامعة » لنجد السيد كامل أمين وقد صحب ابنه طارق الذي نجح متفوقا في الاعدادية الى الجامعة وقد أبى ان يعلن له سر هذه النزهة . ودخلا الى الجامعة ، واذا بالنزهة هي حضور مناقشة الدكتوراه . وأخذ الاب يشرح لابنه كل ما يحيط بهما ، وفي البداية أحس الابن بالملل والرغبة في النوم .. «وتنبه طارق على صوت ابيه ، وطار النوم من عينيه ، لقد رأى وجه أبيه غارقا في ضوء المصابيح الكهربائية . وكان الضوء يسيل عليه وكأنه دموع،

وكان ابوه ، هذه المرة هو الذي يتمتم محمر الوجه :

ـ « أهو دا كان معايا في المدرسة .. »

ان السيد كامل أمين هو البطل المهزوم من الداخل ورغم ذلك يتماسك ظاهريا على الاقل .. انه البطل الذي يلمسه الكاتب في قصص أخرى مثل « صديق قديم » و «بسمة» .. ولكنه يستبطنه ويعيش مأساته في « غروب الشمس » .

وتعتبر قصة «غروب الشمس» ـ ولا بد أن نحاول نسيان رومانسية عنوانها ـ من أروع قصص المجموعة ، فهي مرثية حزينة آسية لنفس بشرية وسمتها الظروف بسمات خاصة ، وكونتها تكوينا شديد الغرابة.

والقصة تحكي أحداث يوم من حياة رجل حاقد .. لقد ظل طوال اليوم جالسا في بيته .. ولكن أي حياة صاخبة تلك التي تصطرع في أعماقه . والقصة تبدأ بخبر في جريدة : « توفيق حسين بليغ من ركاب الطائرة المنكوبة في مهمة تتعلق بالمؤسسة التي يمثلها ، وكان قد قدم موعد سفره ليكون بجانب ابنته الكبرى التي تنتظر حادثا سعيدا » .

ويقرأ الرجل الخبر .. وتقرأ زوجته الخبر .. لكن الكلمات تعني لكل منهما شيئا اخر .. ان زوجته ليست اكثر من قارئة تحزن عندما تقرأ خبرا مفجعا كهذا .. ويسألها :

ـ ألا تعرفين هذا الرجل ؟

وعندما تعلن انها لاتعرفه يقول لها :

ـ ألا تذكرين قضية كنتقد أقمتها يوما من الايام ؟ في مجلس الدولة ؟ لانهم رقوا شخصا قبلي !

ونكتشف عند هذه الكلمات رائحة الحقد .. ويدخل بنا الكاتب الى نفس البطل من خلال حواره واستبطانه لنرى الى أي حد كان يعيش في قصة حقد غريبة لتوفيق حسن بليغ وهما تلميذان يتنافسان على الخطابة والشعر وحل مسائل الرياضة الى ان اصبحا طالبين في كلية الهندسة ، وتقدم توفيق عاما على زميله الذي أعاد السنة نتيجة موقف وطني له . وسبقة توفيق في التخرج والبعثة والوظيفة .. والترقية .

ورفع البطل قضية ظلت خمس سنوات ثم انتهت بالخسارة .. «نعم خسرها وخسر عمله الذي كان يحبه أيضا . خسر حياته نفسها . لانه لم يطق ان يراه زملاؤه مهزوما ، فطلب النقل الى أي مكان . ورسا أخيرا على هذا المكتب ، حيث يجلس ساعات الصباح لا يكاد يؤدي عملا ... أصبحت له تسليه واحدة طوال هذه السنين . تسلية مرة لا نعلم شيئا عنها ، ولا زملاؤه في المكتب ـ كانها الادمان ـ كانها الداء الخبيث . كان يبحث عن أخبار توفيق في الصحف ، ويظل يعيد قراءة الخبر حتى يجد في معظم الاحيان ، ان كلماته وحروفه قد ارتسمت في ذهنه، فهو يستعيدها ، في لحظات سرحانه ، حين يخلو بنفسه جالسا في الشرفة أو معتمدا على سريره .. »

« سنة بعد سنة تابع توفيق في طريقه الصاعد . وعندما ترك خدمة الحكومة وأصبح مديرا لمؤسسة هامة كان التحول الصحفي الذي أصابه شيئا يستوقف النظر : فلم يعد اسمه يظهر في الاخبار والاحاديث بل وفي الاعلانات المأجورة . ولكن كان لهذه الاعلانات ميزة وهي ان صورته كانت تظهر فيها ، فيمكن تأمل ملابسه الغالية ... »

وتنتهي قصة الحقد الغريب التي يرسمها الكاتب في روعة بكل كلمة .. بكل عبارة .. بنهاية البطل .. بموته !

وليست هذه هي القصة الوحيدة التي نحس فيها بالتنافس الاجتماعي والرغبة في الرقي . ان كثيرا من ابطاله يتطلعون الى اماكن أفضل مما هم فيه فعلا .. ان هذه الرغبة تحزنهم وأحيانا تعميهم واحيانا أخرى تجعلهم يعيشون في احلام (طريق الجامعة ـ أحلام ـ ابتسامة ـ شخص واحد ... الخ) .

وفي النهاية نحب أن نؤكد أن هذه المناقشة السريعة ليست الا محاولة صغيرة للدخول الى عالم شكري عياد القصاص الانسان .

القاهرة **محفوظ عبد الرحمن**

يا طالع الشجرة ...

بقلم توفيق الحكيم

***

الصرخات التي انطلقت من فوق خشبة المسرح ، وفي نهاية القرن التاسع عشر على وجه التحديد ، لم تكن غير نداء لثورة اجتماعية كبيرة اعتمدت على دعوات الاصلاح كأساس ترتكز عليه في وجودها . وتستمد منه بقاءها وخلودها .. واتخذت من المجتمع وبكل ما يحتويه من انظمة مهزوزة ومظالم صارخة مادة غنية بغية الوصول الى هدف محدد . فقد كانت هناك النظم الرأسمالية والاحتكارية بما خلقته من فوارق تشيع القلق والاضطراب والخوف في حياة الناس .. مادية كانت او اخلاقية..

ولذا كان من السهل ان تجد هذه الثورة الاجتماعية المسرحية مادتها في اكثر من شيء وفي اكثر من مكان ، في الاسرة والحكومة ، والافراد والعلاقات .. وملأ « ابسن » مسرحه بتلك الصرخات وتلك الدعوات . يصرخ في المجتمع بكل قسوة ، داعيا لتحطيم كل قيد يعوق النشاط الانساني ويحد من قدر الانسان او نشاطه . وسواء اكانت هناك السرعة في الاستجابة من قبل الافراد او لم تكن ، فالشيء الملحوظ ان ترتب على ذلك ظهور مثل هذه الدعوات وبنفس الحماس في اماكن اخرى وعلى نفس النهج والنمط وبنفس الاسلوب .. ففي باريس ، كان المسرح الحر عام ۱۸۸۷ ثم المسرح الحر ايضا في برلين بعد ذلك بعامين ثم المسرح المستقل ، في انجلترا سنة ۱۸۹۱ .

واذا كانت الظروف وحدها والاحوال الاجتماعية هي التي قدمت للمسرح مادته ، وصبغتها تلك الصبغة المعينة ، فقد حددت ايضا الطريقة التي تصاغ بها هذه المادة ، ووضعت لها الحواجز التي لايمكن لها ان تتخطاها او تحيد عنها . وبذلك كانت طريقة علاج المسرحية للواقع الاجتماعي تعتمد على أسس وقواعد عقلية ومنطقية ومنظمة ، وظهر ذلك كله واضحا تمام الوضوح في مسرحيات « ابسن » و « برنارد شو » مثل مسرحية « أعمدة المجتمع » للاول و « جزيرة جون بول الاخرى » للثاني . ولم تلبث تلك القواعد ان تطورت الى حد « الهبوط الى الاعماق الفكرية » وتجريدها وربما كان اظهر مثل على ذلك مسرحيات سارتر ومنها « الابواب المغلقة » وربما كان ذلك هو السر في ان ذلك المسرح لايلائم الا نوعا معينا من الجماهير .

وظل هذا النمط مايقرب من سبعين عاما لايعرف التجديد .. فهو يتطور ، ولكن في حدود الفكرة وفي داخل المراسيم التقليدية التي حددته ووجهته منذ ابسن حتى ظهرت مدرسة جديدة تماما .. لها مادتها ... وطريقتها .. وأسلوبها .. بل وظروفها التي اوجدتها هي الاخرى ... والجديد في هذه المدرسة انها لاتنقل الواقع او ترسمه او تثور عليه كما هو في مكانه وبصورته الكائنة .. بل تخلق الواقع خلقا جديدا ،غير متقيدة في ذلك بزمان او مكان او حدود . وأباحت لنفسها استيعاب كافة المتناقضات في اطار واحد . فالذي يهم ابرازه هنا هو الفكرةوليس من الضروري للوصول اليها ان ترسم بالشكل الذي تعود الانسان وجودها عليه . ولكن بأي طريق اخر يكون خاضعا لحدود الادراك . ومن هنا كان التجاؤها الى اللامعقول واللامنطقي والتجريد والاغراق في الرمز . كل ذلك وسائل استخدمتها واعتمدت عليها في التعبير للوصول الى الفكرة. وتمثلت بوادر هذه المدرسة في« بيكيت » و « أونيسكو » و « آراموف» ـ وعلى الرغم من ان نشأة هذه المدرسة كانت منذ اكثر من عشرة اعوام الا ان مسرحنا العربي لم يخط فيها غير خطوة واحدة وهي مسرحية توفيق الحكيم الاخيرة « ياطالع الشجرة » .

ولكون مثل هذا العمل جديدا تماما في حياتنا الادبية ، فقد أضحى وجود هذه المسرحية محورا للنقاش والجدل لمدة طويلة ، شيئا طبيعيا لا بد منه .. ولم يكن اهتمام النقاد بها في أغلبه الا محاولات الوصول الى الفكرة القابعة في هذا العمل .. الشيء الكبير الذي يقصده الحكيم ويريد أن يقوله .. وقاله . ولكن بين مدلولات الرمز والمواقف الكثيرة المتشابكة المعقدة التي ملأت المسرحية بكاملها .. وظهرت اكثر من فكرة ! ! فهناك القائلون بأنها الصراع الابدي الدائم بين الروح والمادة .. وهناك الذين وصلوا بها الى السعي الانساني الدائم للوصول الى حياة أعظم .. وهناك أيضا من تبرأوا من فهمها ورجحوا قيامها على غير شيء معين تعالجه أو تتعرض له .. والذي يمكن أن يقال في ذلك أن الوصول للفكرة ربما يكون أسهل كثيرا من اتهام كاتب مثل توفيق الحكيم بالفشل ، وتجريد مسرحيته من جوهر أصيل تقوم عليه . فالمسرحية أشبه بقطعة نسيج متكاملة .. ولكنها ليست من خيط واحد، فهناك الاف الخيوط . وبكل ما فيها من اختلاف في الاطوال والالوان في داخلها .. الا أنها تكون في خارجها شيئا متكاملا ، متآلفا .. منسجما تمام الانسجام .. فاذا أدركنا أن الفكرة الرئيسية في المسرحية انما هي قضية الانسان نفسه ، انسان هذا العصر ، بكل ما يعتريه من قلق وضياع وعدم ، وبكل ما يملأ حياته من تناقض ونقاء وتخالف ، وبكل ما ينيخ على هذه الحياة من غموض وابهام وتلابس ، لا يمكن ان يكون انسان توفيق الحكيم بعد ذلك غير مجموعة أفكار يسيطر عليها صراع أبدي هائل .. وهكذا نرى شخصية « بهادر » ـ نراه دائب العمل طول اليوم ـ وطول الايام ، حاملا فأسه ومجرافه تحت شجرته التي وهبها كل وقته وبث فيها كل طاقته ، وجعلها كل أحلامه ، وثمارها التي تكون في الغد القريب .. ثمارها التي يخاف عليها من السقوط .. والرياح... ذلك هو موقف الانسان دائما أبدا من الحياة .. يعمل .. ويعمل .. ويعمل لتجود عليه الحياة بما تجود . ولكنه دائم البحث عن شيء يريده .. دائم البحث عن حلمه الكبير .. العالم الاخضر ، الدائم الاخضرار ، أو الحياة التي تعطيه كل شيء ، تلك الشجرة المثمرة في كل وقت ، تعطيه البرتقال في الشتاء ، والمشمش في الربيع ، والتين في الصيف ، والرمان في الخريف .. ولكن أنى له تلك الحياة .. ؟؟ انه

لكي يبلغها يجب أن يدفع الثمن ، وليس الثمن غير الانسان نفسه .. فلكي تؤتى الشجرة ثمارها ، ولتنمو نموها العظيم لا بد وأن يكون لها غذاؤها الخاص ، وليس هذا غير جثة انسان تدفن في جذورها .. أي انه لا بد وأن تكون هناك التضحية الانسانية ــ لكي تؤتى الحياة ثمارها في كل وقت ..

ولذلك يجب أن تتغير تبعا لذلك أنظمة كثيرة ، ولا بد أن يحدث تعديل في القانون والتشريع والفقه .. فيكفي ان يكون الانسان ضحية الحياة ، ولا داعي أن يكون الانسان ضحية الانسان .. فان كان ذلك هو الصراع بين الانسان وما يريده ، فهناك الصراع الاخر بين الانسان ووجوده ذلك الذي تمثل فيما كان بين «بهادر» وزوجته : فعلاقاتهما في ظاهرها كأعظم ما يكون الوفاق على الرغم من تمام اختلافها ، فلكل منهما عالمه وأحلامه والشيء الكامن في أعماقه .. ولكنه يبدو لكل منهما على أنه شيء واحد : فالزوجة دائمة الحديث عن ابنتها التي لم تولد ولم تر الحياة وهي التي أسقطتها لعدم رغبة زوجها الاول في الاولاد ، دائمة الحديث عن نموها ، لو كانت عاشت ، ونضوجها ، وثوبها الاخضر ، وهو نفس حديث بهادر . ولكنه لا يقصد به ما تقصده زوجته وانما يقصد شجرته وثمارها والرياح التي تسقطها ونضوجها لو تبقى . وأوراقها الدائمة الاخضرار .. حتى كان اليوم الذي أظهر حقيقة هذه الهوة وقدرها : ذلك عندما غابت الزوجة عن البيت ، ثم عادت .. ليسألها زوجها أين كانت .. وأصرت على ألا يكون هناك جواب .. بينما أصر هو على ضرورة المعرفة .. ولم يترك لها مكانا في البر ولا في البحر الا وذكره .. وظل اصرارها على ألا يكون هناك جواب .. وأبدى لها استعداده أن يغفر لها كل ما فعلته « زنت ــ أو قتلت ــ أو سرقت » ولما لم يظفر بالجواب ــ وكان هناك الاصرار والصراع ــ قتلها .. قتل زوجته بعد حياتهما الطويلة الواهمة .. وهكذا نجد اصرار الانسان على المعرفة ــ مهما كان الثمن غاليا أو فادحا .. حتى لو كانت حياته .. أو حياة زوجته ..

وأما شخصية « الدرويش » ذلك الرجل الغريب القادر على خلق تذاكر القطار .. فليس من في قدرته الخلق غير « الفنان » ذلك الذي أتى الى الحياة وليس له غير شهادة الميلاد ولم يكن « القطار الاصلي » الذي تحدث عنه غير الزمن .. ذلك القطار العجيب الذي لا يعرف غير السير .. السير .. السير .. والناس تركب أثناء المسير .. وتنزل أيضا أثناء المسير .. وليس القطار الفرعي ومفتشه .. غير فترة محددة من الزمان يتربع فيها « المفتش » أو الحاكم ــ وتمر عليه الاشجار ــ أو السنون .. يريد هذه وهذه وهذه ــ وهو الوحيد الذي لا يعتريه قلق.. لانه « لا ينتظر محطة الوصول » !! .. وحياة مثل هذا الدرويش ــ أو الفنان ، ليس لها مقياس غير العمل ــ ففي ذلك الحوار الذي دار بينه وبين مفتش القطار :

ــ وماذا أفعل في الحبس ؟ ؟
ــ لا تفعل شيئا ...
ــ وأنا ــ أنا الآن لا أفعل شيئا ...

فذلك يعني أن الحياة وعدمها تستوي عنده . ما دامت بلا عمل . وبلا نتاج ، غير أن هناك من الشخصيات ما ليس له وجود .. لا صوت له .. واذا تكلم فحديثه غير واضح وغير مفهوم ولعل الحكيم يقصد بهؤلاء الذين لا صوت لهم في الحياة نفسها . وبذلك لا صوت لهم في مسرحيته . ومن أمثال تلك الشخصيات . اللبان ــ والحفار .. وان كانت الخادمة .. ولكن بصورة أقل .. ثم هناك آخرون .. لا عمل لهم غير الحفر .. ولا يمكن أن يكون لهم غيره ... تلك هي مسرحية الحكيم .. وتلك هي فكرتها ، هذه التي غرقت في الرموز والتجريد ... واللامعقول .

القاهرة

كرم شلبي

مقطوعات للحزن

— ١ —

ما زلت أنتظر الجواب
ولقد قرعت جدارك المرصوص والدنيا ضباب
وركضت نحو بحورك الزرقاء أنتظر الشراع ...
... ورفيف أجنحة الطيور
لكنني دوما رجعت على نشيـــج الحلم منطفـىء السراج

***

يا حب .. يا أملي الذي أطعمته كل الامل
ورصفت في عينيه أضواء الشعل
ورضيت أن أطأ المهامه في هواه لكي أصل
يا حب .. يا طعم الحقيقه عبر أكداس الرماد
غدنا السراب .. وأمسنا عبث مرير
ونشيدنا عبر الدروب وعاد منكسر الجناح
ولأنت نزر كالسعادة في الحياه
كاللؤلؤ المنثور في صدر البحار
دوما تغمغم في مداك مطارق المتوحشين
وترش شهوات العبيد عايله طين
دوما تموت لاننا نحييك في كلماتنا
ونعبد الافاق كي نلقاك في أحلامنا
وتجيء لكنا نضن عليك بالخبز الطري
وبدمعة خضراء من أحداقنا
وتموت يا ويلاه .. تخلي الدرب للعدم البليد

— ٢ —

الارض ترضع الزهور منذ أن ذهبت للحقول
وكل يوم تنهض البيوت تسبق النخيل
وتذهب الشهور ثم تقدم الشهور
والمح العيون كل مرة تفيض بالدموع
كأنها شموع
تفيض في ابتسامة تموت في غياهب الطريق
تفيض في الزنود والشفاه والعيون
أحس وقعها الحزين في خطى الذين يعبرون كل يـوم
ببذلة أنيقة .. بدون نعل
الله ! كم تسح هذه الدموع
من أين تأتي نحونا كأنها الهواء
سألت أمي ما تكون هذه الدموع لم تجب
الشمس في السماء والنخيل عاقد الثمر
وجدتي تقص لي عن الذي مضى ولم يعد
وظل صوته يؤرق القمر
من أين تأتي هذه الدموع
من أين تأتي هذه الدموع

— ٣ —

يا أيها الحزن الشهيد
يا غيمة سوداء تعصرها الجراح
عمري يجمده الظلام وقـــد خرجـت مفتشا عبر الظلام عن الصباح
وعن المسيرة نحو آفاق تغسلها الرياح

***

يا حزن يا عرس الحقيقه والجمال
امرر بقبضتك الخضيبة فوق أرضي الراقده
واجبل بدمعي اغنيات مارده
اهزم بجيشك يا نبي تلال يأسي الراكده
هز الجذور الباحثات عن الورود
يا حزن يا نهر الوعود
فالشوك أحلى للجنود الباحثين عن الخلود
والقي بأسواري الهريئة عبر تيار الرياح
كي أسمع الرعد المبشر بالعطاء
ولكي أسير مع العواصف في بساتين الضياء
فأقرب دياري يا رسول الخير في أرض البشر
لا لن أسد الباب ان قاربت بيتي يا مطر
فالباب حتى الباب يهوى أن يراك تشيل في كفيك أجراس السماء
وتكحل الارض العفينة بالشرر

***

اهزم بجيشك يا نبي حشود خوفي الحاقده
وابني جذورك في ترابي
يا حزن يا معنى شبابي .

ماجد حكواتي — **حماه**



فلسطيني

قصة بقلم سميرة عزام

(الى الذين يغمغمون بجواب كسيح كلما سئلوا عن هوياتهم ... كأنهم يعتذرون !)

قال مترددا والكلمات تجرح حلقه المتيبس « اعطني هويتك ، انظر فيها قليلا واعيدها » .

وبدا على جاره انه لم يفهم فعاد يقول مادا يده بشيء من نفاد الصبر : « أقصد بطاقتك ، بطاقة هويتك » ، وتحت عصبية اليد الممدودة اخرج الآخر محفظة متآكلة واخرج البطاقة ودفع بها اليه ، وقبل ان يخطو بها متجاوزا العتبة مرق الصوت من وراء اذنه يقول : « وما تفعل بهويتي يا فلسطيني ؟ » ولو سمع الجار التشتيمة التي دمدم بها لانتزعها حتما من بين اصابعه ، ولكنه سارع بها الى دكانه ، ورخم امام الطاولة المبقعة ، وفتحها ، ثم مد يده الى جيبه واخرج بطاقته الجديدة ، خضراء يجري فيها رونق ، ارزتها سليمة الاغصان لم يثنها التغضن ، جديدة ماتسلمها الا قبل اسبوعين ، صورته على جانب منها وعلى كل طية من طياتها الثلاث ختم مستدير لقسم النفوس في وزارة الداخلية ، ورابع على الوجه الاخر من الطية الرابعة . اربعة اختام مستديرة صريحة لا تنفذ شبهة من حلقتها المفرغة ، وتوقيع الرئيس والمأمور يكادان يتعانقان في خطوط ملتوية ملتفة غامضة منيعة لايبين منها اسم ما ، شأن تواقيع من بيدهم مقدرات الامور ...

وتلك بطاقة الجار لا تختلف الا بالصورة العتيقة الباهتة وبتفصيلات الاسم والسن ومكان الولادة وتاريخها ، وبالتغضن والتكسر وكثرة ماتحمل من آثار اصابع ماوثة لا مكترثة لا تحسن الرفق بما يأتي كحق طبيعي لم يقاض صاحبه جهدا او قلقا او شكا او نقودا .. بطاقة لم تكن بنت شعور مغيظ محنق ممض من انه في الحي الذي يعيش فيه ، والذي افتتح فيه دكانا تعامل معها الحي اكثر من عشر سنوات نقدا او دينا او « نصبا » لم يستطع ان يفرض لنفسه اسما ما ... فهو في هذا الركن الذي تقوم فيه دكان لا تختلف في شيء عن اكثر الدكاكين .. ليس اكثر من « فلسطيني » .. بهذا ينادونه ، ويعرفونه ، ويشتمونه اذا ما اقتضى الامر ، شأنه شأن ذلك الارمني الاسكافي الذي عرفه في صباه ، والذي ساخ من عمره التعس ثلاثين عاما متداركا نعال الحي بالرقع فلم يبال احد – بل لم يجد حاجة – بان يعرف اهو هاجوب كما يمكن لاسماء الارمن ان تكون ، او سركيس او وارطان ، فالارمني هو كل اسمه ، هكذا عاش وهكذا مات ، فعزله اسمه عن كل الناس حيا وميتا ، ولعل التسمية قد عقدته فما ترحرحت تلك العجمة في لسانه ولم ترتفع اهتماماته بما حوله عن مستوى الاقدام !

* * *

بطاقتا الهوية امامه ، واصبعه تتنقل بينهما والتفاصيل تهتز امام عينيه ، وزبون يدخل فيصرفه بحركة من يده دون ان يرى وجهه ، فيمضي هذا ساخطا لايعرف لماذا لايريد الرجل ان يبيع ... والصحيفة تنزلق الى الارض فيرفعها فيرهبه العنوان الاحمر يتوج صور اعضاء العصابة . وما جدوى ان يقرأ الخبر للمرة الخامسة او المائة ؟ فلن يفهم اكثر مما فهم ، والصورة برهان دافع .. الوجه النحيف وقد اكلت النظارتان اكثر من نصفه ، والصلعة التي تمتد من فوق النظارتين ولكنها لا تكشف عن مخ جهنمي .. واخرون معه لا يعرف منهم الا واحدا .. قد يوحي بأي شيء الا بحقيقته ، كان واسطة التعرف الى ذاك الاخر ..

اجل كان يلبس بذلة زرقاء حين دخل واشترى علبة كبريت ثمنها « فرنكا » ثم مد يده واخرج صندوق سجائره وأخذ واحدة وعرض عليه اخرى اعتذر عنها .. ودخن نصف السيجارة وهو على العتبة ووجهه الى الشارع ، ثم عاد وتلكأ كمن يريد ان يجره الى حديث اي حديث .. ولكنه عاد وطرق الموضوع بصراحة .. لقد سمع – ورفض ان يقول كيف – بأنه راغب في ان يتلبنن .. فاذا شاء فهناك طريقة واحدة .. والثمن ، اجل هناك ثمن ، الفا ليرة .. اغلى قليلا مما اعتاد الناس ان يدفعوا ، فموقف السلطات بان اصاب ، ولقد نبش الفلسطينيون كل جذور العائلات فما ظلت شجرة لم تمد لها فرعا في فلسطين ، وهؤلاء المحامون الذين أثروا من تجارة التجنس قد بدأ يخذلهم علم الانساب ...

الفان ؟ كثير ؟ أم لعلك ستعلق فرعي بأرومة ارزة نسي سليمان ان يحملها ليبني بخشبها هيكلا له في اورشليم ؟

كثير . وقبل سنوات لم يهضم ان يدفع ربعه ليبحث عن جد له في قرية لبنانية طيبة او ليبتعث تاريخا جديدا لجده ابي صالح الذي ولد فيما يعلم ، ومات فيما يعلم ايضا ، في « الرامة » ، وبهذا لا يكون قد انكره قبل صياح الديك ثلاثا ، ولكنه يستأذنه في ان يعدل من صدفة جغرافية تعفيه من كلمة « فلسطيني » تشده الى قطيع امحت فيه معالم الفردية ، يتلفظون بها مشفقين حين يرفض ان يكون موضع شفقة ، او ساخطين دون مبرر لسخط ، او متوعدين كلما نفث منافسوه من اصحاب الدكاكين الصغيرة حقدهم ونسجوه اشاعات يفسرون بها الاحداث على هواهم فتلتف حوله خيوطا واهية ولكنها متكاثفة ضبابة قلق تحسسه انه وحانوته هذا واولاده الاربعة وزوجه ليسوا اكثر من ألهية يتعابث بها مفسرو الحوادث ، وان ضمانته الوحيدة من الترحيل الى مجهول من اللجوء المركب هي ان يكون متجنسا . وكان الحافز

في نفسه يضعف كلما تراخت خيوط الاشاعات ومات خوفه في ثنايا الحياة اليومية ، ويقوى كلما عرض له امر يهز وجوده المتداعي ، حين يخرج ابنه من المدرسة مثلا فما يلمه عمل واحد اكثر من اسبوعين .. القانون صريح ومحظور العمل في المصالح والشركات على غير ابناء البلد ، فما وجد الشاب بدا من ان يطير الى صحراء من هذه الصحاري التي تجمع الناس اخوة على شقاء ، وتتسامح في اشقائهم ولو اختلفت الجنسيات ..

ويقوى الحافز ، يقوى اكثر فاكثر كلما عزم على سفر لشأن او اخر الى اهله الضاربين هنا او هناك ، فيضطر الى الوقوف بباب السلطات اسبوعا ليحصل على ورقة مرور .. وحين مات ابوه الذي يعيش في بيت اخيه في عمان ابرق لهم يقول « أخروه أسبوعا او فادفنوه » وكانت اتعس نكتة استمع اليها موظف البرقيات ضاحكا .

***

الفان ؟ كثير .

ويزوي المفاوض ما بين حاجبيه ويقرع طرف سيجارته الثانية بالعلبة قبل ان يشعلها « لن تحصل على هوية باقل ، واظنك حاولت ، الم تحاول ؟! »

بلى لقد حاول ، وتأرجحت دعواه ثلاث سنين بين اعذار المحامي الذي عاد ونفض يده من كل شيء الا من نصف مبلغ الاتعاب الذي تقاضاه مقدما ..

« ولكن اتكون مضمونة ؟ »

« لن تدفع قبل ان تمسك بها بيدك ولن نتقاضى شيئا مقدما » . وتلين القسمات وترتسم ابتسامة وينسحب الرجل ويتردد صوته طربا في ارجاء الدكان خافتا ولزجا. « فكر .. فكر .. وسأمر بك بعد ايام » .. ولم يفكر وحده .. بل حاول ان يدع زوجته تفكر ، وقالت مستهولة المبلغ : « الفان يارجل ؟ أهي هوية وزير وغيرنا نالها بثلاثمائة او بستمائة او بالمجان؟ » فرد دون ان يكون اساسا شديد الاعتقاد بما يقول ولكن ضنا منه على الفرصة ان تموت في جولتها اولى « الفان لاننا استكثرنا الثلاثمئة ذات مرة .. وقد نضطر ان ندفع العشرة الاف يوما .. اتريدين لابنك ان يعيش حياته في جحيم الدرجات الخمسين صيفا في بلد لا تعرف الشتاء ؟ » فتقول وقد مس اضعف اوتارها « افعل ما تشاء ! الفان الفان لا بارك الله لهم فيها .. هذا اذا وجدتها .. »

« اجدها اذا افرغت نصف واجهتي .. وساعلق فيها تلك الهوية فقد يعرف لنا الناس اسما ! » .

***

من عادة الكذب ان يكون حاسما في صدقه .. ثلاثة اسابيع او اربعة وانتهى كل شيء .. بسرعة ومضاء ... ماقابل ذاك الذي يسمى نفسه استاذا اكثر من مرة واحدة .. ولقد سجل كل التفصيلات على ورقة .. الاسم واسم الزوجة والاولاد وامكنة الولادة والاعمار وقال بانه سيتدبر كل شيء ، الشهادات والوثائق لايريد شيئا عدا الصور ، والالفين طبعا .. وهي ليست خالصة له .. المصاريف كثيرة والاطراف اكثر .. »

اجل الاطراف اكثر . خمس صور في الصحيفة لخمسة مزورين ، عصابة مستوفية شروطها ، زعيمها استاذ وانفارها لا يقلون استاذية . ولديهم - كما تقول الصحيفة - عدة شغل كاملة .. وقد اعترف احدهم بانهم قد زوروا العشرات من البطاقات .. لم يكن الاحمق الوحيد فوجود الحمقى ضرورة لتجد العدالة ما تشغل به نفسها .. آه خذلتني ياجدي ابا صالح ، تراك ما احببت ان تعيش مرتين ، مرة ترعى بستان زيتون في الرامة ومرة ترفع انصاب كرمة على جلول جبل لبناني ؟ ..

***

مزق مزق الصحيفة وافقأ باصبعك عين هذا الاستاذ من وراء نظارته السوداء ، وما يجديك تمزيق الصحيفة فانت بذلك لا تمسح حقيقة الكذبة ، ولا تلغي انك دفعت الفين ثمن كرتونة وانك تعاونت مع مزورين ، وقد ..

كيف لم يفطن لذلك ؟ وشعر بالنار تأكله مرة واحدة .. الا يمكن ان يكون هؤلاء قد كشفوا عن المتعاملين ؟. ما اغباه او مايزال يشك في ان هذه هي النتيجة التي لا نتيجة بعدها : كيف اذن يتاح للسلطه ان تجمع البطاقات المزورة؟ مخدوع ام متواطيء ؟

حين يدفع الفين تتهمان نصف واجهته يكون مخدوعا، والى ان تسجل الحقيقة في محاضر التحقيق يكون قد انهك حتى العظم ،وتكون سيرة حمقه دخانا لسجائر الجيران .

مزقها مزقها فقد بدأت تأكل لحمك . لماذا عدت ووضعتها في جيبك الداخلي ؟ هي ليست - بألفيها - اثمن من هذه الصحيفة التي دفعت فيها « ربعا » . مزقها فواجهتك الفارغة ستمتليء يوما ، وستظل حقيقتك مفرغة حتى تملأها بغير الزور وخديعة المزورين .

مزقها . او تريد مزيدا من الاثبات ؟ تتاجر الصحف احيانا بالاكاذيب ولكنها لا تزين كذبها بخمس صور لاشخاص عرفت منهم اثنين وستشرف بمعرفة الباقين حين تواجه بهم .

أتجبن عن تمزيقها حتى وانت تحملها بين ابهامين وسبابتين ؟

مزقها مزقها فهي لاتسوى اكثر من ثمن الورق الذي طبعت عليه . ولكن لا ، دعها في جيبك الداخلي . دعها فتمزيقك اياها لا يخفي شيئا ، او يلغي شيئا .

***

ويجلس ثم يقوم ، ثم يجلس ثم يقوم ، ويلف في الحانوت كثور أعمى يواجه الشارع . فقد يخنق اضطرابه بين مظاهر الحياة المطمئنة الى رتابتها ، المستكينة الى حظوظها ، الحالمة بلا شيء ، محطة البنزين تفرغ وقودها في بطن سيارات كبيرة لامعة . وبائع الفاكهة يجلو غبار البستان عن تفاحاته ويجهد في أن يجعلها حمراء ، واللحام يأكل بسكينة اطراف الذبيحة المعلقة ، والحلاق يعبث برأس مستسلم ، رأس لا يتفصد منه القلق كرأسه .

ويرتد عن الباب متلفتا الى الصحيفة الممزقة فينحني عليها ويجمعها ويكورها ثم يلقي بها ، ويدير وجهه للشارع ثانية فيرى تلك السلة الازلية تتدلى اليه بحبل من الطابق الثاني الرابض فوق دكانه وقد راحت تتراقص في نزق تحت الشرفة ، وصوت الجارة يندلق من فوق تريد شيئا .. هي ابدا تريد شيئا ولا تتذكر اشياءها الا على دفعات ... ولكنه لايسمعها الساعة ، ولتصح مثلما تشاء فلن يبيع احدا .. ولكن الصوت لا ييأس ، والسلة لاتيأس ، وتمد المرأة صوتها الارعن جسرا عبر الشارع تبلغ به صبي الكراج المواجه وتقول له بلهجتها المطوطة الخلية « وينك ياولد قل للفلسطيني » ان يضع لي في السلة زجاجة كولا ... »

وأحس الفلسطيني في وقفته المرتعشة خلف الطاولة بالصوت المطوط ينفذ من سترته الى جيبه الداخلي فيحيل البطاقة الى مزق ، مزق صغيرة تخشخش في جيبه ، في غير عنفوان !!

سميرة عزام

لغة الحوار وفنية التعبير

بقلم يوسف الشاروني



١ ــ يعبر الاستاذ نجيب محفوظ في حديث له عن أنصار الحوار بالفصحى بقوله :

« المهم في الشخصية عناصرها الخلقية والمزاجية والثقافية والسلوكية . وآخر مانستعين به في ذلك هو كيفية نطقها الالفاظ ، والدليل على ذلك اننا نتأثر بشخصيات عالمية مع انها مكتوبة بلغة أجنبية » (١) .

كما يقول يحيى حقي في مقال ينتصر فيه الفصحى انه عند الترجمة سيضيع الفارق بين الفصحى والعامية(٢) .

اما الدكتور لويس عوض فيرى ان مهاجمة الحوار العامي ليس الا دعوة من اصحاب المدرسة الكلاسيكية لتحطيم غيرها من المدارس (٣) .

فمن يجيزون الحوار العامي يرون ان للحوار وظيفة فنية ، والا كان من الممكن الغاؤه والاستغناء عنه (٤) . فهو الى جانب وظيفته في الكشف عن الموقف من خلال تبادل الاراء وتعارضها دون تدخل الكاتب فانه يعطي في الوقت نفسه بعدا من ابعاد الشخصية القصصية . فمن المعروف أننا في الفن القصصي لانعرف الشخصية عن طريق الوصف بل عن طريق تصرفاتها واللغة بين هذه التصرفات التي تعبر عن شخصية صاحبها فنستطيع ان نتعرف على اخلاقها او بيئتها من مجموع الالفاظ واللهجات التي تستخدمها .

واذا نحن انطقنا الشخصية بلهجة غير لهجتها فاننا بذلك نقضي على بعد من ابعادها لان اللغة ــ كما يقول الدكتور عبد العزيز الاهواني :

« لم تكن ابدا اداة او واسطة للترجمة عن معنى قائم في النفس متكامل مستقل يلتمس له شكلا وانية يصاغ او يصب فيها كما يصب المعدن المنصهر في قوالب مختلفة . انما اللغة احساس وتفكير وذوق ، وهي اشارة لما هو كامل في النفس ، وايحاء متجدد لمواقف الحياة تقفها الاجيال المتعاقبة ، واللغة جزء لا يتجزأ من حياة الجماعة والافراد » (٥) .

بل يذهب **الاستاذ فريد ابو حديد** الى القول بان :

« الاسلوب ما هو الا القالب الذي نصوغ فيه افكارنا ونصور فيه مشاعرنا ، فهو من املاء الاحساس والنفس . ويمكنني شخصيا ان اقول ان كثيرا من الاساليب العامية اصدق اداء للمشاعر من بعض الاساليب القديمة . فوضوح الصور وتتابع الاحاسيس لا تحتمل التقيد باسلوب تقليدي . ولو استطعنا ان نتجرد من قيود الاساليب المنقولة لسهل علينا تطوير الفصحى بحيث تقترب من العامية خطوة جريئة في الطريق السوي بغير ان يعود ذلك بضرر على الفصحى بل يكسبها قوة وشبابا » (٦) .

٢ ــ ولكن انصار الفصحى يرون ان الادب فن ، وليس مجرد نقل كما يقول المازني (٧) او هو ليس تسجيلا لكلام الناس على علاته كما يسجله الفونوغراف على حد تعبير الدكتور طه حسين (٨) والاستاذ احمد باكثير (٩) او هو ليس نقل الطبيعة كما يقول الاستاذ العقاد (١٠) .

وقد شرح **الدكتور طه حسين** وجهة نظره في المقدمه التي كتبها لمجموعة الوان من القصة المصرية حين قال:

« ان تادية ما في النفوس لا يكون ادبا ولا يستحق هذا الاسم الا اذا امتاز بشيء من الجمال الذي ينشئه الفن فيملأ قلب القاريء وعقله لذة ومتاعا . وهذا الجمال لا يتجزأ كما يقول الفلاسفة ، فليس هناك جمال يتصل بالمعنى وحده وليس هناك جمال يتصل باللفظ وحده ، وانما الجمال الفني لون من الموسيقى يشيع في الاثر الادبي كله لفظه ومعناه فاين الجمال في هذا القصص الذي يكتبه شبابنا المنادبون ... وما هذه اللغة التي يتكلمها قصاصونا ؟ انها اللغة العامية التي تستغرق القصة كلها عند بعضهم وتستغرق احاديث الاشخاص عند بعضهم الاخر ، ولم تصل اللغة العامية الا ان تكون لغة ادبية ، وما اراها تبلغ ذلك اخر الدهر » (١١) .

بل ان **العقاد** أوضح رأيه هذا من خمسة وثلاثين عاما ، حين اخذ على من يجيز الحوار العامي انه :

« يذهب الى دار التمثيل فلا يفوته ان يلبس رداءها الخاص الذي اصطلح القوم على لبسه في هذه الدور ، ولا ينسى ان ينبذ عنه عاداته التي تعودها في مجالسه واشغاله ورياضاته ، فما باله يانرى لا يلبس في دار التمثيل كما يلبس في كل مكان وما باله يذكر « الزينة » في الردهة وينساها حيث تجب الزينة على معرض الفن والتجميل ؟ بل لماذا يبرز لنا الممثل على المسرح وقد طلا وجهه بالمساحيق وصبغ جفونه بالكحل ولا يتراءى لنا بوجهه كما خلقه الله وكما نراه في القهوة وغرف الاستقبال . »

ويمضي الاستاذ العقاد فيقول :

« فالحق ان « التهيؤ » ركن لا غنى عنه في جميع الفنون وفي مقدمتها التمثيل . ولا بد لالقاء الاثر البليغ في نفس المشاهد من « تهيئة » خاصة تنسيه الحياة الدارجة وتغمره في جو الفن والجمال وبيئة البلاغة والتفكير . فما الموسيقى وما المناظر والصور وما المساحيق والالوان وما الشارات والمباسم والحركات التي تبث هنا وهناك في الملاعب والمعارض الفنية الا وسائل للتهيؤ الفني وتحضير الذهن لحالة لا شعورية غير التي كان عليها في البيت او في الطريق فمن حق اللغة ان تشترك في ذلك التهيؤ الذي لا غنى عنه وان تشعر المشاهد انه في مكان تجب له الرعاية ويحرم فيه الابتذال .. فليس من الكسب للحاسة الفنية ان تفقدها تهيؤ اللغة الذي يحتاج اليه المشاهد آشد من حاجته الى كسوة تذكره حين يذهب الى الملعب انه ذاهب الى مكان غير البيت وغير الطريق ، وليس من حسن التخريج ان تظهر اللغة على المسرح بغير طلائها الذي يناسب ذلك المقام (١٢) .

كذلك يشرح **أحمد علي باكثير** رأيه فيقول :

« لم يقل احد قط ان الزمن الذي يستغرقه عرض مسرحية عطيل مثلا على خشبة المسرح لا يمكن ان يتسع لحوادثها كما هي في الواقع ، ولم يقل احد ان عطيلا هذا وسائر الشخوص الذين في

المسرحية كانوا من اهل البندقية ومن مدينة ايطالية ، فكيف انطقـهم شكسبير باللغة الانجليزية ، بل لم يخطر ببال احد منا ونحن نشاهـد على مسرحنا العربي ان يسأل : هل كان هؤلاء يعرفون اللغة العربية فلماذا يقال اذن: كيف ينطق الفلاح المصري اللغة العربية الفصيحة» (١٣).

٣ ـ ورد من يجيزون الحوار العامي على ذلـك هو انه وان لم يكن الادب تسجيلا للحياة فهو ايضا ليس مقطوع الصلة بالحياة . فمثلا اذا كانت هناك شخصية بها لثغة ، فانه اذا كان الادب ليس تسجيلا للواقع بالمعنى الذي يفهمه انصار الفصحى ، فمعنى هذا ان تنطق تلك الشخصية اذا اشتركت في حوار ما نطقا سليما خاليا مما بها من عيب ، اكتفاء بما يشار اليه في اول الكلام ومعنى هذا ان نصف الشخصيات بدلا من ان نجسمها مما يخرج بالشخصية عن دائرة الفن القصصي . فليس الادب حقا تسجيلا للواقع ، لكنه ليس ايضا وصفا له بل هو تجسيم لهذا الواقع .

هذا الى انه في العامية اساليب فنية كما ان في الفصحى اساليب غير فنية . والمواويل والزجال بيرم التونسي واغاني احمد رامي دليل على ذلك . والاديب الناجح هو الذي حين ينطق شخصياته ليحقق بعدا من ابعادها ، يختار الفاظها وتركيب هذه الالفاظ اختيارا فنيا سواء كانت تتكلم الفصحى او العامية . « فالتهيؤ » الفني لا يتعارض واستعمال العامية في الحوار ، ولهذا نجد قصاصا كالاستاذ **يحيى حقي** ينصح الذين يكتبون العامية قائـلا :

« انها هي ايضا لغة ينبغي ان تكتب بعناية وذوق وبصر » (١٤).

كما كتب في تذييل عن مؤلف احدى المسرحيات يقـول :

« فالاجادة في العامية تكون اصعب من الاجادة في الفصحى لكنه ارتفع بلغته عن السوقية . واحسن اختيار الفاظه فام اشعر وانا اقرأه انني اتعثر في عامية حوشية او مبتذلة » (١٥) .

كما يقول عن محمود تيمور انه :

« زعيم مدرسة المنادين بالكتابة باللغة العامية للمسرح فعل هذا لانه كان متلهفا على تملك اذن الشعب ولاعتقاده ان التعبير الصادق يتطلب منه هذا الانتياز ، وبخاصة اذا كانت المسرحية فكاهية ، والذين يسيرون اليوم على نهجه جدير بهم ان يدرسوا اسلوبه في العامية فسيدهشهم ـ مع انه كان يحرث ارضا بكرا ـ بانطلاقة ورشاقة وخفة دمه وبعده عن القلقلة والتعثر والتكلف » (١٦) .

كذلك يقول **الدكتور عبد القادر القط :**

« ان اللغة العامية كاي لغة اخرى ـ مستويات مختلفة وليست هي دائما تلك اللغة التي لا يستخدمها الناس الا في امور معاشهم وقضاء حاجاتهم المادية . واتهامنا اللغة العامية بالتخلف فيه اتهام لانفسنا بهذا التخلف لان اللغة مراة لعقول متحدثيها ونفوسهم وليست مجرد اداة منفصلة للتعبير » (١٧) .

وفي كتاب المسرح النثري **للدكتور مندور** نجده يتحدث عن مسرحية الذبائح لانطون يزبك فيقول ان بهـا :

« حوارا دقيقا مركزا غنيا بالحركة الدرامية ، فضلا عن استخدامه لكافة امكانيات اللغة في التصوير البياني . بل ان الصور والتشبيهات لتتسلسل وتتوالد في بعض مواضع الحوار على نحو ما كنا نحسب ان اللغة العامية تستطيعه » (١٨) .

كما يقـول :

« المقياس العام هو ملاءمة اللغـة للموضوع . فاللغة الفصيحة اذا صلحت في التراجيديا فلا شك انها اقل صلاحية في الكوميديا» (١٩).

كما اجاز العقاد في مقاله السابق ـ بالرغم مما ساقه من حجج للانتصار للحوار الفصيح ـ انه لا يمنع :

« اللغة العامية على المسرح بتاتا لانها ترد مورد المجانة فتملح في الذوق وتظرف في مواضعها من بعض الروايات » (٢٠) .

وهذا معناه اجازة كتابة التمثيليات الفكاهية بالعامية بالرغم من انها ليست صورة فوتوغرافية للحياة.

بل ان العقاد اباح ـ على تشدده ـ الحوار العامي بوجه عام في المسرح والسينما فنجده يقول :

« لا حرج من التمثيل بها « أي بالعامية » على المسرح واللوحة البيضاء ، حيث تعبر عن بعض الاحوال التي لا تبقى مع الزمن ولا تعم سائر الاقطار » (٢١) .

٤ ـ والواقع ان هذا ليس رايا جديدا ، فقد سبق **الجاحظ** (١٦٠ ـ ٢٥٥ هـ) ان نبه في كتابه البخلاء قائـلا :

« وان وجدتم في هذا الكتاب لحنا ، او كلاما غير معرب ، او لفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا انا انما تركنا ذلك لان الاعراب يبغض هذا الباب ، ويخرجه عن حده » (٢٢) .

كما يقول يوهان فك ان الجاحظ في كتابه البخلاء :

« تصنع اللحن ، وكون جملا مخالفة للنحو ، واستعمل صيغا للكلمات على خلاف القواعد وتنازل عن الاعراب كل ذلك مناسبة للموضوع» (٢٣).

كما اجاز الجاحظ صراحة كتابة الحديث سواء اكان فصيحا ام لحنا ، في كتابه « البيان والتبيين »قائلا:

« ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الاعراب ، فاياك ان تحكيها الا مع اعرابها ومخارج الفاظها ، فانك ان غيرتها بان تلحن في اعرابها واخرجتها مخارج كلام المولدين البلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير « لعل الفضل هنا بمعنى واحد الفضول وهو زيادة في الكلام لا خير فيها » ، وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة الطغام ، فاياك ان تستعمل فيها الاعراب ، او تتخير لها لفظا حسنا ، او تجعل لها من فيك مخرجا سريا فان ذلك يفسد الامتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي اريدت له ويذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها » (٢٤).

كما روى الجاحظ في كتابه « الحيوان » انه خرج مع شيخه ابي اسحق بن سيار النظام في بعض الطرقات فالح عليه كلب ، فلما تخلصا منه ، قال ابراهيم في كلام له كثير يعدد خصال الكلب المذمومة ، وكان اخر كلامه : ان كنت سبع فاذهب مع السباع .. الى اخر حديثه، ثم يعلق الجاحظ على هذا بقوله :

« ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون : من قولي « ان كنت سبع » ولم أقل « ان كنت سبعا » وأنا أقول ان الاعراب يفسد نوادر المولدين ، كما ان اللحن يفسد كلام الاعراب ، لان سامع ذلك الكلام انما اعجبته تلك الصورة وذلك المخرج ، وتلك اللغة وتلك العادة ، فاذا دخلت على هذا الامر ـ الذي انما اضحك بسخفه وبعض كلام الجمعية فيه ـ حروف الاعراب والتحقيق والتثقيل وحولته الى صورة الفاظ الاعراب الفصحاء ، واهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » (٢٥) .

٥ ـ كذلك اجاز ابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٦٧ هـ) كتابة اللحن في كتابه « عيون الاخبار » حيث قال في مقدمته:

« وكذلك اللحن ان مر بك في حديث من النوادر فلا يذهبن عليك انا تعمدناه واردنا منك ان تتعمده ، لان الاعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه وشاطر النادرة حلاوتها . »

ثم يذكر نادرة باحنها ويعلق عليها قائلا :

« الا ترى ان هذه الالفاظ لو وفيت بالاعراب والهمز حقوقها

لذهبت حلاوتها ولاستبشعها سامعها وكان احسن احوالها ان يكافيء لطف معناها ثقل الفاظها » (٢٦) .

ومن بعدهما اجاز **جعفر بن قدامه** « المتوفي عام ٣٣٧ » استخدام ما يسميه باللفظ السخيف عدد من الحالات من بينها :

« موضع لا يجوز ان يستعمل فيه غيره ، وهو حكاية النوادر والمضاحك والفاظ السخفاء والسفهاء ، فانه متى حكاها الانسان على غير ما قالوه خرجت عن معنى ما اريد بها ، وبردت عند مستعملها واذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها وقعت موقعها وبلغت غاية ما اريد بها ، ولم يكن على حاكيها عيب من سخافة لفظها » (٢٧).

ولكن قدامه لم يجز اللحن المكتوب :

« لان الطرف يتكرر فيه والرواية تجول في اصلاحه ، وليس كمثل الكلام الملفوظ الذي يجري اكثره على غير روية ولا فكرة » (٢٨).

ولعله لو واجه مشكلة الحوار المكتوب الذي يعاد نطقه كما هو الحال في المسرح والسينما والاذاعة .. الخ .. لاجاز اللحن مكتوبا كما اجازه منطوقا .

فليس استخدام الفصحى اذن بدلا من العامية هو الدليل على فنية الحوار ، ولا هو الذي يعطيه جماله او يبرئه من تهمة نقل الواقع ، فقد يكون الحوار فصيحا ولا يتحقق شيء من ذلك ، انما هنالك شروط اخرى يتحقق بها التهيؤ الفني وتتحقق بها الصناعة الفنية للحوار كالحركة والفكرة التي وراءها والتلوين والتنويع طبقا لشخصيات المتحدثين والتشويق وتقديم بعض الاحاديث وتأخير البعض الاخر واستبعاد العبارات التي تشتت الانتباه وعدم التكرار وهذه شروط قد تحقق في حوار نسمعه في الطريق ، فيقول الاستاذ انور فتح الله :

« فالحديث العادي في المنزل او الطريق مثلا ، قد يدور حول امور تافهة ، وفي اسلوب غير منظم ، زاخر بالتفاصيل المتفرقة المالوفة التي لا يربطها رابط ، ولا ترتكز على اساس . ومثل هذا الحوار لايصح ان يظهر على المسرح اطلاقا .

وقد نسمع من الناس في الحياة احاديث اقرب في بنائها ومقصدها الى الحوار الفني . فمن ذلك حديث البائع الجائل مع احد المارة عن بضاعته . فانه يحاور حوارا كما لو كتبه احد الدارسين لعلم النفس. ذلك لانه قد بذل فيه مجهودا . وانتقى له عبارات تحمل اساليب الاغراء والتشويق لتؤثر على عابر الطريق ، فتدفعه الى الشراء .

والفرق بين الحديث العادي وحديث البائع هو ان الثاني يتحدث قاصدا الى غرض ، وكل كلمة يقولها تساعد على الوصول اليه ، فهو ينتقي عباراته ويبرزها في وضوح ليحقق بها قصده ، وهو يغربل كلماته فيحذف كل كلمة زائدة او دخيلة ولا يترك سوى تلك التي تجذب انتباه المستمع . والحوار المسرحي يشبه هذا الحديث لا الاحاديث العادية التي تتناول امورا تافهة ، ذلك لانه يقصد غاية ويستهدف رسالة ويتوخى التاثير على العواطف وجذب الانتباه والتشويق . فهو ما يقوله الناس في الحياة مع فارق واحد هو انه حوار محدد يسعى الى غاية » (٢٩) .

ومن الغريب ان الاستاذ علي احمد باكثير يستشهد في محاضرة له عقدها عن « واقعية الحوار » — وفي سبيل الدفاع عن الحوار باللغة الفصحى — برأي «هيرمون اولد » في كتابه فن المسرحية اذ اقتبس عنه قوله :

« ان مهمة الكاتب المسرحي ان يخلق طرازا من الكلام يجمع بين الدلالة الواعية ومشابهة الواقع . فاذا كتب مسرحية عن الحياة العصرية فسيستعمل لا شك انماطا من الكلام الدارج ، محولة بسر كسر الكيمياء القديمة معروف له وحده الى قطعة من الادب لا مجرد تقرير . ان اساتذة الحوار في العصر الحديث برنارد شو وجالزورشي وسومرست موم يتتبعون اسلوبا خاصا لا يعكس مطلقا الكلام الدارج الذي نسمعه من الناس من حولنا » (٣٠) .

وواضح ان النص لا يقصر لغة الحوار المسرحي على اللغة الفصحى دون العامية ، بل انه يشير الى ضرورة استعمال انماط من الكلام الدارج في حالة كتابة مسرحية عن الحياة العصرية ، لكنها ليست ما نسمعه من الناس حولنا ، بل انها تصاغ على اساس الاختيار الفني ، ويمكن التاكد من ذلك اذا رجعنا الى قصص ومسرحيات الكتاب الذين استشهد بهم الناقد الانجليزي .

ولكن الحوار الدرامي لا تكمن كل خصائصه الفنية في طريقة انتقائه فحسب ، بل في طريقة ادائه أيضا . يقول ج . غندريس في كتابه « اللغة » :

« فالجملة الواحدة تحتمل عند النطق مئات ومئات من وجوه الاختلاف التي تقابل اشد الوان العاطفة خفاء والفنان الدرامي الذي يقوم بدوره في المسرح عليه ان يجد لكل جملة التعبير اللائق بها والنغمة الحقة التي تناسبها ، وذلك اوضح ما يلاحظ على مواهبه. فالجملة التي يقرأها في صحيفة تعد ميتة خالية من التعبير ، ولكنه ينعشها بنطقه وينفث فيها الحياة . فمعرفة كلمات الجملة وتحليل عناصرها النحوية ليس معناه استخراج كل مكوناتها ، بل يبقى بعد ذلك تقدير قيمتها الانفعالية » (٣١) .

ثم يتحدث عن طابع الجمل التي يتكون منها الحوار قائلا :

« غير ان هناك حالات تختلط فيها العبارة الانفعالية بالعبارة النحوية الى حد ان تغيرها بدلا من ان تبقى ملتصقة بها مجرد التصاق والانفعالية في اللغة تعبر عن نفسها على وجه العموم بصورتين ، باختيار الكلمات وبالمكان الذي يخصص لها في الجملة ، يعني ان معيني اللغة الانفعالية الاساسيين هما المفردات والتنظيم (٣٢) .

لهذا ينحصر الفرق الاساسي بين اللغة الانفعالية واللغة المنطقية في تكوين الجملة . وهذا الفرق ينبثق جليا عندما نقارن اللغة المكتوبة باللغة المتكلمة ... ذلك لان الترتيب المنطقي الذي تسلك فيه الكلمات في الجملة المكتوبة ينفصم دائما في الجملة المتكلمة ، ان قليلا وان كثيرا » (٣٣) .

انه ترتيب له منطقه ايضا ، لكنه منطق انفعالي قبل كل شيء ، فيه ترص الافكار لا وفقا للقواعد الموضوعية التي يفرضها التفكير المتصل بل وفقا للاهمية الذاتية التي يخلعها عليها المتكلم او التي يريد ان يوحى بها الى سامعه.

٦ — وكما يستخدم اختلاف اللهجات كبعد من ابعاد الشخصية فانه يستخدم ايضا كمسافة مكانية ، فمجرد ذكر لهجة الصعيد مثلا ينقلني من الاسكندرية او القاهرة الى اسيوط او جرجا . ففي قصة الجبل لفتحي غانم نجد ان المحقق بطل القصة يذهب الى محطة القاهرة ليركب القطار المسافر الى الصعيد ، فيسمع حديثا بين صعيدية شقراء ورجل اسمر ، وكانت الشقراء تتحدث بفرنسية عذبة ، وفجأة نطقت باللهجة الصعيدية ، يقول البطل :

« وصدمتني حروف الجيم التي طردت القافات » من الكلمات، وصدمتني كلمة « الخلجات » التي تستعملها الشقراء بدلا من كلمة « الملابس » ... كنت انتقل محمولا بهذه اللهجة الصعيدية الى اقاصي الصعيد والقطار لم يتحرك بعد من محطة القاهرة » (٣٤)

واللغة الفصحى نفسها تستخدم ايضا للدلالة على مسافات اخرى ، المسافة الزمنية عند استخدامها في حوار

رواية تاريخية ، أو المسافة الفكرية في حوار رواية رمزية أو فلسفية ، أو البعد عن واقعنا الاجتماعي المعاصر في حوار رواية اسطورية .

٧ — وهكذا نرى ان الحجة التي تقال ضد استعمال العامية في الحوار وهي اختلاف لهجاتها من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان بل ومن بيئة الى بيئة ، هذه الحجة نفسها هي التي يجد فيها من يجيزون العامية ما يبرر استخدامها فنيا . لان هذا الاختلاف نفسه هو احد عوامل تجسيم الشخصيات والامكنة والازمنة في العمل الادبي، بحيث يصبح كل منها واضحا متميزا ، وهو ما لا يتوفر في الفصحى التي يستوي لديها الزمان والمكان والشخصيات، مما يعرض الكتاب لخطر خلق شخصيات مجردة او مسطحة أو تتقارب في أساليبها بحيث لا نكاد نفرق بينها ، كما ان حوار الفصحى كثيراً ما اغرى اكثر من كاتب على ان يدلي بآرائه وفلسفته على لسان شخصياته بدلا من ان يجعلها تعبر عن نفسها . ولعله حين يجعلها تنطق بلهجاتها يكون اكثر اطمئنانا الى انه لن ينزلق الى هذا المنحدر .

يقول توفيق الحكيم في مقال له بعنوان « عوائق المسرحية عندنا » :

« فاذا آثر شكسبيرنا العصري ان يكتب بالنثر فان مسألة اخرى تعرض له : أيكتب بالنثر الفصيح ام بالنثر العامي ؟ فاذا حل المسألة باختيار الفصحى في الروايات التاريخية والحديثة فان الروايات العصرية التي تصور اشخاصا شعبية وبيئة محلية لا يمكن ان يعالجها بالفصحى الا على حساب الدقة في التصوير والصدق في التلوين » (٣٥) .

٨ — أما فيما يتعلق بتأثر القارىء بشخصيات عالمية مع انها مكتوبة بلغة أجنبية أو ان حوارها يكون بالفصحى عند ترجمته الى العربية وقد تكون من بيئة لا تنطق ما يقابل الفصحى ، فان الاستاذ انور المعداوي يرى ان الامر :

« يتعلق بعملية تمثلنا الفكري والوجداني للارضية التاريخية التي تجري فوقها الاحداث والشخصيات ... فما دام هذا التمثيل لا يخلط في وعينا الداخلي بتلك الظلال المادية للفصحى القديمة والعامية الحديثة، وما يمكن ان يترسب عنها من دلالة الارتباط بمرحلة زمنية معينة تشير اليها هذه اللغة او تلك ، فاننا نتلقى على الاقل — من ناحية التجاوب الذوقي — نسبة لا بأس بها من تلك الاصالة التمثيلية » (٣٦) .

وما ينطبق على الارضية التاريخية في هذا الكلام، ينطبق على الارضية المكانية او البيئية .

وقد تردد مترجمونا بين ترجمة الحوار باللغة الفصحى بغض النظر عن بيئة الشخصيات على اساس انها لا ترتبط في وعي القارىء العربي بلهجة عربية معينة، بل ان نطقها باحدى هذه اللهجات يشتت تذوق القارىء او المستمع لانها تهبها لونا محليا بينما هي تنتمي الى بيئة أجنبية ، لهذا فان تساوي الشخصيات في النطق باللغة الفصحى يمنحها هذه المسافة المكانية ، ويجعلنا ندرك بعد اصحابها عن بيئتنا ، تماما كما تمنح اللغة الفصحى المسافة الزمنية في حالة حوار القصة او المسرحية التاريخية . وهكذا فان الميزة الفنية للحوار العامي في حالة الاعمال المحلية تنقلب سوأة في حالة الاعمال الفنية المترجمة .

وقد عبر عن هذا الرأي الاستاذ توفيق الحكيم في تعليقه على ترجمة الاستاذ بدر الديب لمسرحية « ما حدش واخد منها حاجة » لجورج كوفمان وموس هارت ، حيث قال :

« اني من محبذي استعمال العامية في بعض المسرحيات ... ولكن أي مسرحيات ؟... السرحيات المحلية العصرية التي يفسد جوها الفني استخدام لغة غير لغتها اليومية .. نعم هو الجو الفني .. فانا أحبذ العامية لا لانها اقدر على التصوير والتعبير من الفصحى ، بل لانها اقدر على التصوير والتعبير من الفصحى ، بل لانها ضرورية احيانا لخلق الجو الفني .. وفي قصتنا الامريكية هذه تشوش الجو الفني قليلا بعبق هذه اللغة العامية المصرية .. ولو استخدمت في هذه القصة الامريكية اللغة الفصحى المبسطة مع التجوز في اطلاق النكات بأي لغة يقتضيها الذوق والمقام لبدت القصة اشد احتفاظا بجوها الامريكي الاصل » (٣٧).

أما الرأي المعارض فقد عبر عنه الاستاذ حسن محمود في مقدمته لهذه الترجمة نفسها حيث قال :

« رأى المترجم الاديب ان ينقل هذه المسرحية الى اللغة الدارجة في مصر ، وترددت في موافقته على رأيه ، وكان قد نقل جزءا من المسرحية الى اللغة العربية الصحيحة ونقل الجزء نفسه باللغة الدارجة، فوجدت ان اللغة العامية قد احتفظت بما في الاصل من نكات ومواقف صعب الاحتفاظ بها في اللغة الصحيحة او استحال . ورأيت ان هذا ليس من قصور المترجم وانما من طبيعة الهزل الامريكي ، وهو يوائم اللغة العامية ، ولقد سبق لكتاب ان التجأوا للعامية في عرض الكوميديات والمهازل في المسرح المصري » (٣٨) .

١٠ — هذا والمدرستان اللتان تتنازعان النقد في بيئتنا الادبية اليوم تجمعان على معارضة وضع شرط للغة الحوار لا يكتمل العمل الادبي بدون تحققه . فالمدرسة التي تولى الموضوع اهتماما اكبر ترى — كما يقول الدكتور مندور — ان استخدام لغة الحياة في مثل هذا الحوار قد يحقق للكاتب عاملا هاما من عوامل التأثير في القارىء وكسبه وهو عامل الايهام بالواقع (٣٩) .

وبذلك يكون الدكتور مندور قد اضاف الى رأيه الذي سبق ان ابداه — باسم الواقعية ايضا — في كتابه : « في الادب والفن » الذي نشره عام ١٩٤٩ . ففي هذا الكتاب — وبالرغم من اجازته للحوار العامي في الكوميديا (والكوميديا هي نقطة الضعف لكل من ينتصر للفصحى)— كان يرى :

« انه في مسألة اللغة لا يمكن ان نترك لكل شخصية في الرواية لغتها ،وانما نترك لكل شخصية حقيقتها الانسانية فاللغة عندئذ وان لم تخل من اصطناع الا انها لن تسلب الشخصية تلك الحقيقة الانسانية. بل ولا يجوز ان تحاسب المؤلف باعتبار ان ما تقوله شخصياته هو ما يحدث بالفعل في الحياة ، اذ يكفي ان يكون ذلك مما يمكن ان يحدث اذا تهيأت للشخصية الظروف الخاصة والملابسات التي يضعها فيها المؤلف . ويدخل في هذا النقد مسألة واقعية اللغة ، وهنا يجب ان نذكر ان احدا لم يقل بترك كل شخصية من شخصيات الرواية تتحدث بلغتها

— التتمة على الصفحة ٦٦ —

خواطر في العام الجديد

***

١ ـ الصمت

صمتي ملكُ الريحِ
يحيا بفصول الغاباتِ
بجذور الصبح المجروح
في موج العين الخرساء
في الانواء
صمتي بركان من ألم
يجتاح بحيران السأم
صمتي العارُ
والاشعارُ
يتخبأ خلف الاهات
في كلِ دواة ، ولهاتَ
لا يقربُ أوراق الشمسِ
صمتي ... رمسي ...

٢ ـ الطفل الضائع

حبلت أرضي
حبلت « فترينات » الشارعْ
بالزيف ، بأشجار البغضِ ..
قدم تمضي ...
قدم تجتاح صدى القلبِ
هذي أيام الاقدام
والطفل الطالع من مزود
يطرده البلور الاسود
يلقيه صبي الخمارهْ
لبيلاطس آخر ، لا يغسلْ
كفيه ، وينكر آثاره

*

الطفل يقامرُ بالدمعِ
ببيلاطس ، يهزأ بالحب
لا يذكر أيام الصلب

٣ ـ الريح

وجهي تتقاذفه الريحُ
عبر الطرقات الشتويه
شحاذ، تحت رصيف الملهى مشلوحُ
انهار الويسكي تحفر في ،
عينيه عروق الوحشيه
والضوء الاحمر تلويحُ
« ادفع وتمتع » والريح
تعوي ، وتلم أظافرها
تخصي عينيها ، وتروح ...

*

« لله الملك » على العتبه
ولدى الباب
رجل يلبطه البوابُ

٤ ـ الى راقصة

يتفتحُ ليلك في كبدي
جسدا يتغلغَل في جسدي
يا ورد الدفء .. مناخاتي ،
ضيَّعت الشمسَ ، سماواتي ،
صارت أصفرُ
من عينيك
ومدينتنا أكلت فمها ،
ركعت كي تلحس ساقيك
يا ورد العار المقهور
الطفل يشك أظافرهَ
في عنقي ، يقضم أشواقي
أترابي ، أغرز أنيابي ،
في ثمر اللحم الموتور ؟
يا ورد العار .. أنا لا أملكُ ،
أجرَ الناب المسعورِ

٥ ـ متشرد

أجراس الليلِ جليديه
صخب الشهوات
يتحجر في كبدي ، يقتاتُ
باللوزَ الغرفِ المضويه ...
مالي بابُ
ليدق العام على عمري ،
بأصابعه ..
بابي الريحُ
والمزراب

٦ ـ العام الجديد

عام آخرُ ..
مركبة الموتِ الفضيه
لا تسمع أجراسَ العيد
تخترق الصوت .. الاغنَيه
تمضي ، تمضي في أعراقي
فارسها عمري ، أشواقي
مركبة الموت الفضيه
حوذيها الشمس الوحشيه
في قلبي تهجمُ ، تقتربُ
لا تضطربُ ..
عام آخر ..
يا عمري الضائعَ ، ماذا همَّ ؟
مجيء ألوف الاعوامِ .

بيروت — **رفيق خوري**

***

عيناك قدري

بقلم وداد سكاكيني

الان وقد هدأ اللغط والملق حول هـذه المجموعة القصصية للاديبة الدمشقية غادة السمان أعود اليها مستأنية بتمحيصها ونقدها مبشرة بموهبة مصقولة في حياتنا الادبية الحديثة التي نتفقد في نتاجها ومحصولها الاصالة الفكرية والفنية .

لم اعجب لظهور غادة السمان قصصية مرموقة بعد استكمال دراستها الجامعية ، وقد عجبت لاقتحام هـذا المجال بعض الزائفات المرتجلات والمتكلفات ضد طباعهن وضد الحقيقة ، حاسبات أن صناعة الادب التي لم يخلقن لها سهلة المراس والمنال ، ولا يعوزها الا صداقة الندوات واقلام المجاملات ، على ان القصصية غادة السمان التي كنا نرتقب ادبها ماكان اغناها عن ضجيج مصطنع تناول قصصها بالدعايـة دون النقدوبالزلفى دون الرأي وهي التـي لها من الموهبة والثقافة ما يمكنها من متابعة السير في طريقها الادبي الطويل على ثبت وانطلاق وفن اصيل ،والاديب الحقيقي يهمه انيصاحبه النقد فـي خطواته ليعـرف مراسمهـا ومواطيء عثراته وضعفه .

لقد حملت « عيناك قدري » طابـع الواقع فياسلوب غادة وتوثب ذكائهـا وطموحها ، ولو ان ناقدا قرأها دون ان يعرفها لاستطاع ان يستخلص من كتابها الاول ملامح فنها وتحليلها الذي لايطيق الاناة ، وكم تندر في الاثار الادبية التي يحتويها الحبر والورق مطالع اصحابها من بين سطورها ، وطالما رأينا تفاوتـا بين الاديب ومعالم فنه وتعبيره ، ولما طلعت غادة السمان باول بواكيرها ، وكانت قصصا سألت نفسي : كيف تفتحت ازاهيرها في القصة قبل غيرها من فنون الادب ؟ وهذه ظاهرة لفتت الانظار والافكار فـي انصراف اكثر الاقلام النسوية الى القصة فحسب دون المشاركة في أي فن سواها الا القليل ، ويبدو انه كان لابـد لغادة وقد أوتيت هذه الموهبة الى جانب تمكنها من الدراسة الادبية من البداية بالقصة والتجاوب مع دواعيها فجاءت مجموعتها الاولى بعيدة عن التكلف والركاكة حاملة فـي أدائها الرشيق صورا اجتماعية معبرة ومعاني تحررية في حياة الفتاة العربية الحديثة .

ومن هذه الناحية يستطيع الناقد ان يلقي الضوء على موضوعات القصص فيتبين ان محتواها تناول التطـور السريع الذي استجابت له الفتاة المتعلمة والواعية بعـد خروجها من بيئة الحجاب ، فاركة عينيها على وهج ساطع من حياة جديدة وشخصية مستقلة قد امتد الى آفـاق متنورة تقبلت تغييرا في بعض المفاهيم التقليدية، فشاءت غادة السمان ان تصور بقصصها وموهبتها الفنية انطلاق الفتاة المتحررة من عنف العادات الاجتماعية لتتحدى القدر المكتوب او التقاليد المرتبطة بما يسمى السمعة في المجتمع، فأخرجت هذه المعاني والصور بحوادث وشؤون تنتفض بألوان صارخة وتنعكس على خطوطها الجانبية والسطحيـة بفتات من الظلال تصرف القاريء بروعتها عن بنائها الفني بما تترك في نفسه ومدى وعيه من انطباعات وتأويل .

وليس من ريب في ان هذه القصص دلت على قدرة صاحبتها في التعبير وتلوين الموضـوع المتشابه او المنتزع من المشاهد اليومية الجديدة في حياة المراهقة والتحصيـل والعمل ، فمن احسن ماقرأت في كتاب غادة قصة « الهاوية » التي تختصـر فكرتها في لمحات من فتاتين تعملان معا في تحرير مجلة ، احداهما تضرب على الالة الكاتبة ، فاذا ادركها المساء هبت من مكانها ، فترفع اليها زميلتها عينين يرقص فيهما سؤال واحد ، ماذا حدث؟

لكن المسؤولة تجيب بلهفـة ، انتهى الدوام ، وتسحب من حقيبتها مـرآة ومشطا ، وتسقط المرآة لاضطرابهـا وتسرعها ، اذكانت تتخيل بان خطيبهـا ينتظرها .



غادة السمان

اما الثانية فتنحني على الارض لتلملم حطام المرآة ، لكنهـا تنتفض بأسف ولا تستطيـع ان تتمرى ، وقـد يـؤخذ القاريء بهذا التشويق الذي وقفت فيه القصصية المطبوعة، فهي تدرك بحق وصدق سر الانوثة في أقاصيصها ،وتريد انتصور الانثى على حقيقتها وطبيعتها ولو جاوزت القيود. على أني كنت أخشى وانا اتابع السطور في « الهاوية » ان اكتشف سبب الصدمة التي لقيتها الفتاة الثانية من مرآة زميلتها حتى تجلى وجه القصة عن حادث سيارة مـروع حرم هذه الفتاة خطيبها المثال ، واذا هي بعد حين تدلف الى مرسمه وتبغته مع محبوبة جديدة فتطالبه بتمثالهـا الذي صنعه لها من فيض فنه وحبه ، وتقع نظراته هـو عليها فجأة فينتفض وترتعش شفتاه وهو يسمعها قائلة :

– أريد تمثالي . . .

– لن ترى وجهي . .

وتأخذ الفتاة تمثالها الذي احب فيه جمالها ، وتقول

لنفسها : ماذنبه انه فنان يحب الجمال .. ويخيل اليها انها تتبسم له ، لكنها سرعان ماتدرك ان مايرتسم على المرآة يكشف عن اسنانها المحطمة وعن التشويه في شفتها العليا ، فحز في نفسها ان يضن القدر عليها حتى بالابتسامة حتى احست ان تمثالها يتحداها فبادرت الى غرفتها وهي تخفي وجهها كلما مزق الظلام ضوء سيارة عابرة .

ولما خلت الى نفسها اخرجت مرآة من درج مقفل وعادت تتطلع الى ملامحها بعنف وألم ، وكأنها تتحدى العالم حتى تفجر من صدرها حنق مسعور فطرحت مرآتها ثم تناولت منها قطعة لتطعن فيها التمثال الذي كان يعذبها ، واخذت تشوه الوجه مهتاجة يائسة والتمثال تحت قدميها صورة ماضيها المحطم ، فلما داسته أحست انها تهوي في أعماق سحيقة بلا نهاية .

في هذه القصة الثورية التي فارت في صورها المعاني وتشاكست وتلاقت ألفاظ محمومة متعادية اختلط الحقد بالتوتر والانسانية بالوحشية في نفس الفتاة الناقمة التي رأت ذاتها متردية في الهاوية ، وهي عنوان القصة التي كتبتها غادة بلمعات ابداعية وفنية .

على اني لا اخلي هذا المقال من نقد لهذه المجموعة وهو الذي كانت تنتظره القصصية الناجحة ، اذ ان الثناء وحده طالما كان شوكا في طريق التطور وكم من كاتبة وشاعرة وقصصي وأديب ماكاد يمضي على هدى موهبته حتى أفسد الملق فنه وتجاربه .

اما النقد الذي أوجهه لهذه المجموعة بعد الحفاوة بمطلع صاحبتها فهو ان العنوان لم يسلم من تنافر الالفاظ على مصطلح البلاغة ، واما الاسلوب الاصيل فقد شابته تلك الوقفات المندفعة المتقطعة التي حرمت الجملة حروف العطف ، وكان العطف حاملا معناه النفسي والانساني ،ففي تناثر العبارة وبعدها عن الترابط مضيعة للعطف بينها واحلال للتجافي ، فكما يتعاطف الانسان مع الانسان،كذلك حياة الكلمات على السطور ، وهذا التخطف في التعبير موجة جديدة وافدة شاعت في الشعر والنثر لدى طائفة من أدباء الشباب ، كان من سماتهم القلق في التفكير والاداء ، وهو تعبير متلاحق متقطع الانفاس لكنه غير متلاحق ، وهو يشبه الصور التي تعرض بالفانوس السحري اذ ان كل صورة على جمودها لاتتصل بالاخرى ، فأين من ذلك مشاهد السينما الحية الناطقة التي تشبه التعبير السلس المترابط ؟

وقد دلت هذه المحاكاة الشائعة على استهانة بأصول الكتابة التي يتأبى عليها بعض المتعجلين ، ولو عرف هؤلاء فن الوصل والفصل في البلاغة العربية لما فضلوا هذا التخطف والتخفف في التعبير الوافد الذي اخذ يسري في ادب القصة الغربية التي تحتذي التكعيبية في مذهبها، وكتابها ينفلتون بألوانهم على هواهم في التعبير عن نقمتهم على العادات السائدة ، وقد اتخذوا الوصف المتقطع وسيلتهم الى الانطلاق دون التقيد بفكرة يدورون حولها .

وما كانت القصصية غادة السمان في أدبها النضر متعجلة ولا مرتجلة لكن مياسم العصر في السرعة والقلق لم تفلت من قصصها ، وما أرى هذه الملحوظة تغض من قيمة المجموعة التي بشرت بموهبة اصيلة ، وقد كنت ارغب للعينين اللتين يسكن فيهما القدر على حد تسمية غادة كحلا طبيعيا لا تكحلا مصنوعا كما قال الشاعر القديم .

وداد سكاكيني

***

اغنية لم تتم



***

وتحت دقات المطر
سمعتها ...
أغنية حبيسة النغم
في القاع في الاغوار في أقصى قرار
كالمنبع الفوار تحت الصخر !
ألحانها تنحت في قرار القلب تهصر العصب
تغور في الاعماق
تلمس في خبايا الحس كل عرق مستكن !
سمعتها ...
والغيم دفاق كبحر لا يصد
ينحل في فيض ثقيل الوقع مبهور النغم !
سمعتها ...
وانساب من أعماقها لحن عتي مضطرم
الشمس لوحته ، صبت فيه شعلة لا تنحطم
من شمس اسبانيا ...
تغور في ارتجاج الضوء تغتلي فيها الدماء !
سمعتها ...
وانساب من أغوارها لحن شريد مختلج
مجرح بالشوق ظمآن اللهاة محترق !
سمعتها ...
وانساب من أنغامها لحن حنون مغترب
أحسسته على يدي ، ذاب رق وابتهل
أحسسته يطوف بي ، يربت أعطافي ، يناغيني
بوجد لا يحد !
لو أنني استطعت أن الم لحنه المشع في تيه الاثير
لو أنني استطعت أن أطويه في صدري على جرح الالم
أذيبه في داخلي أذوب فيه أمتزج
لو أنني ...
لو أنني نغم
واأتلفت من نشوتي وعمق ألحان
يضمها نشيد
يجري من الافلاك في تيه الاثير
وفي مدار الشمس يسرى خالد السرى !
سمعتها ...
والغيم دفاق كبحر لا يصد
من يوقف العطاء يمحو الخصب والغيم مليء محتلك؟!
سمعتها ...
اللحن حشرجت فيه الدموع ...
ارتعشت شفاهه ...
احتبست في حلقه الانغام ، بعثرته الريح، طوحته
في تيه البحار ...
فان صوت الريح غلاب أشر ...

. . . .

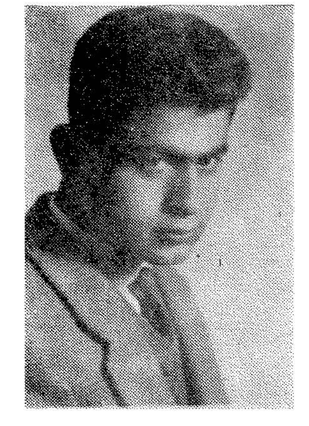
الحزن مأسور بقلبي
ضلت العينان في تيه الافق
وتحت دقات المطر
لم يبق في مسامعي سوى ندائها الرتيب
ونوحها المرنم النغم

. . . .

سمعت دقات المطر!

القاهرة

ملك عبد العزيز



عجلتا الدراجة

قصة بقلم هاني الراهب

— ١ —

نظر الملازم أسيان (١) ومساعده، والشرطة الثلاثة الذين وقفوا عند ناصية الشارع ، الى المراة التي اعترضت طريقهم واعلنت انها مجرمة وتريد ان تعترف . وراحوا يمترونها طولا وعرضا . الملازم تفحصها طولا ، وابتسم . وقد وجد انها رائعة الاطراف ، وان شعرها المسدل على كتفيها اشبه بالصمغ لونا وقواما . اما المساعد والشرطي فقد تاملاها عرضا . ووجدا ، هما الاخران ، كتفين مستفيضتين ، وحوضا شبيها بحبة فاصولياء عملاقة . اما الشرطيان الاخران فقدقاساها كثافة ووجدا بدورهما ان انبثاقة الصدر لم تكن حيلة الصدارة ، وان للقسم المخروطي ما بين الخصر ومنتهى الاليتين قوام بيضة مسلوقة ، مقشرة وعملاقة ايضا .

واستفاق الرجال الخمسة على صوتها يلعلع قائلا :

— ادخلوني الليمان ، انا مجرمة ، اعملوا معروفا .

فابتسم الملازم وقال :

— لا تزيدين عن سبعة عشر ، وتريدين السجن ؟ حكاية غريبة !

وزقت المراةبوجهة شاكية :

— ماذا اعمل يابيك ؟ ليست بيدي حيلة .

وابتسم الملازم ومساعده وقال :

— هذا صحيح .

— ربنا يخليك يابيك.

اشار الملازم للشرطي السائق ان يركب السيارة الثانية مع المساعد والشرطيين وتقدم ففتح الباب ، وقال بلطف « هيا يابنت » . وكانت تنظر اليه فاغرة العينين مفتوحة الفم . وانتبهت الى انه يخاطبها فقفزت عن ارضها مذعورة وتوسلت:

— اين يا بيك ؟ اين ستاخذونني ؟ لا اريد ان اعود ؟ انا تعبانة .

توقفت عند الجملة الاخيرة راعشة الاطراف ، فتأملها الملازم باستغراب .

قال — تعبانة ؟ ليس باديا عليك !!

فتضرعت : — تعبانة والله العظيم .

هز رأسه بطريقة العارف وتمتم قريبا من اذنها :

— لا تخافي ستذهبين الى مكان آمن ، تعالي.

وصاحت بذل : — صحيح والنبي ؟ ربنا يخليك . انت ابن حلال.

وبدا انه مل من مكوثه قرب الباب ، فتنمر :

— صوتك عال !

— امرك يا بيك .

وكان وجيب قلبها يزداد عنفا .

فتح باب السيارة واشار متعمدا الا يمسها . وحاولت ان تصعد لكن وجهها اكتسى بسحابة من التخاذل المضطرب . جفلت كمن احست ببرد في اعماقها . وتذمر الملازم ثانية ولكن بلطف ، فشد يدها الى الامام وامرها ان تصعد . ووقفت هي تتامل ، ووجهها ينفح نفس تعبيرة السابق ملونا بهدوء رمادي .

— اماقلت انك تريدين السجن ؟

— نعم يابيك : انا تعبانة .

— تعالي . ستذهبين الى ماهو افضل من السجن .

— لا يا بيك ، انا اريد السجن .

— انه سجن على اية حال .تعالى فقط .

أمسكت بالباب ، وصعدت تنتفض كشعلة باردة ، ثم جلست. أغلق الملازم الباب واستدار الى الثاني فجلس واغلقه. عندما رد مدرج السرعات الى الخلف ضرب كوعه بظاهر فخذها . وتمتم بسرعة :

— عفوا .

فتجاوزت عن الحادث . نظرت الى الامام كانها لم تحس ولم تسمع وتحركت بهما الشوارع .

بعد قليل سالها : — اتأكلين شيئا ؟

فهزت براسها نفيا .

قال : — انك لم تفطري اليوم !

— لا عليه . لا اريد شيئا .

— ولكن يجب ان تأكلي !

فانكمشت في زاوية المقعد متخاذلة ، كانها ارنب مطارد .

— ماذا يخيفك ؟

— لا شيء يابيك . لست خائفة .

واكد هو : — انت مضطربة ،لا بد انك جائعة .

ثم اوقف السيارة الى ناصية الشارع ، ودون ان يبالي باعتراضها نزل بسرعة كانت السيارة الاخرى قدغابت في نهاية الشارع .

ازدادت الفتاة تقلصا . واشتدت التصاقا بزاوية المقعد ، وشرعت تقضم اظافرها . نظرت الى نهر الناس المبدد الفروع وارتعدت . كان كل منهم يصيح ويهرع كانما يرد عنه الخياة . وأكب حاجباها فوق عينيها وشردت العينان .

انصفق الباب فجاة وجلس الملازم . كانت لا تزال تقضم اظافرها وبعد لحظات شخرت السيارة وتقدمت بالراكبين . مد الملازم يده فقدم لها شطيرتين . لم تمد يدها وازدادت انكماشا .

حضها الملازم قائلا: — انت جائعة ، كلي .

فسرقت اليه نظرة خائفة واطرقت . مد يده ، التقط اصابعها عن فخذها ، فتح الاصابع بالقوة ، وضع الشطيرة في راحتها واطبقها . لكن يدها بقيت جامدة .

سأل الملازم بحرارة : — مالك يا خيرية ؟ خائفة ؟

وضغط يده بيدها على فمها . ثم نظر الى وجهها الازرق وذقنها المضطربة ولاحظ شفتيها تتحركان بخفوت وبتر ، وانها بكت .

قال : — ما هذا ياخيرية ، انت جائعة ويجب ان تاكلي . !

وكان ما يزال يمسك بيدها ، يضغط بالشطيرة على شفتيها ، ويقود السيارة . وصار بكاؤها مسموعا .

— لا يا بيك . انا اريد السجن .

وادارت وجهها نحو النافذة فطفرت من فمها شهقة . وراح صدرها يختلج . وفي حركة سريعة مدت يديها فغطت وجهها . وخرج صوت البكاء .

قطب الملازم وهو ينظر الى الدمع المنثال من بين أصابعها . وغرغر

---

(١) هذه حكاية من مجموعة قيد التأليف بعنوان « حكايا أسيان بن الضحاك » .

صوتها بين الاجهاش والدمع :

ـ أريد السجن . أنا تعبانة .

واصطكت اسنانها على أظافرها .

هتف الملازم بحرارة وتأثر :

ـ خيرية ! أنت لم تعرفيني ؟ خيرية ! أنا أسيان زميل محرم في الجامعة . أسيان الذي كان يزور بيت سيدك بالعباسية !

فنظرت اليه نظرة سريعة ثم انكفأت . وبعد ثوان هدأ بكاؤها، وتطلعت اليه برهة ثم زقت :

ـ أيوه !! انت ؟ لا مؤاخذة يا بيك . لا مؤاخذة . ولكن لماذا دخلت البوليس ؟ تغير شكلك يا بيك؟

فابتسم وأشعل سيجارة : ـ خير للانسان أن يقبض على المتهمين من أن يقبض عليه متهما.

وفيما راحت تمسح دموعها ، والامن والطمأنينة ينتشران على محياها الرطب ، سألت ببراءة :

ـ أكنت تخاف من تهمة ؟

فابتسم وقال : على كل انسان ان يتوقع ذلك.

ـ ٢ ـ

هكذا كانت الحال عندما رأيتها مع المساعد والشرطة الثلاثة . وبعد الجملة الاخيرة صمتنا طيلة الطريق ، فقد انشغلت بالشطيرتين . وأفسح لي الصمت ردة نحو الماضي ، فتذكرت بثوان ما سوف يستغرق الان دقائق لكي أتحدث عنه :

ان خيرية بنت محمد حسين عمر خالد واحدة ممن ولدن في احدى حواري الجيزة بالقاهرة لاب قاطع تذاكر في ترام سعود، يقضي معظم وقته في العمل بغية كسب زائد . في الثالثة عشرة من عمرها دفعها أبوها الى اسرة صلاح الدين باشا لتساعد السيدة في أعمال البيت . وفي الواقع كانت خيرية تقوم بأعمال المطبخ كاملة . على ان احدا لم يعتبرها خادما ،ولم يعاملها على هذا الاساس . وقبل ما يزيد عن عام عرفتها في بيت الباشا صلاح الدين ، كنت آتي بقميص وبنطال فأحضر وابنه محرم لامتحان الاجازة في الحقوق ، قبيل تخرجي من كلية البوليس . وخلال ذينك الشهرين اللذين أمضيتهما هناك كونت عنها تلك الصورة العاطفية التي كانت ابرز ملامحها في ذلك الحين . صورة شفافة عصبية غير مقصودة .

كانت تنتشر في كل غرفة وفي كل مكان ، ناسية في نفس الوقت الوجود الذي حولها . تفيض على الطاولة ، وفي فنجان القهوة ونبرات الصوت . تستغرق في تأمل غيرها كأنها تبتهل امام معبد ، وفي صمتها الذي كان يلطم العين لشدة انعزاله كأنها تقف للمرة الاولى أمام نفسها. تدخل فجأة وتخرج فجأة ، ودون ان تنظر الى أحد ، وكل شيء يمت لها كان يبدو في نفس الوقت جامدا ومتحفزا .

لم تكن تسير بل كانت تركض . اذا نزلت الدرج ركضت . واذا لبت سيدتها ركضت . واذا لاعبت ركضت . كانت تركض حتى على رصيف الشارع . تعدو كأن تفجيرا غيبيا متواصلا يقذفها من الداخل ويفقدها توازنها . وكانت تنورتها الداكنة ترتفع حتى ليكاد يبدو المعور، وينبثق فخذاها المليئان الخاليان من الشعر . ودائما كان صدرها الاهوج يختلج بقوة ويضطرم ويرتج ، فيما يتحرك فخذاها في مسيرة ايقاعية مثيرة ويهتز كفلاها الوثيران . وكان فمها البارز مفتوحا دائما ، وخلفه تنتظم وجنتاها البارزتان وتستدير جمجمتها الصغيرة . على انها لم تتحدث قط لغير سيدتها .

صادفتها مرة في الشارع ، تعدو ذلك العدو الملسوع المطارد، مذعورة النهدين حسيرة الفخذ مخطوفة الخطى . وبعد ثوان كانت قد وصلت الى جانبي . ابتسمت لها ، وبسرعة بسطت يدي امامها. ورأتني وهي تكاد تعبر من تحت يميني فارتدت وانطرحت على الجدار متخاذلة الركبتين مطرقة الرأس . وخمدت حركتها تماما. عند ذاك تحيرت: أأشتهيها أم أعف ، ومكثت هكذا اكثر من دقيقة، أفصص أعضاءها وأشرف عليها من عل ، دون ان تتحرك او ترفع عينيها الي. كانت تلهث متدلية الشفة واللسان مسترسلة اللعاب . وراحت تمتصني بهذا الانخذال المثير ، وتلغي سدود نفسي ووعيتي . اقتربت منها فلم تتحرك ، تقدمت، مددت يدي ، وخطوت ، فأنزلتها ، وابتعدت . وظهرت يدي كأنها امتدت بحركة مسير فضفاضة ، تركت خيرية وراني . وعندما اجتزتها فقط ، تحركت : ركضت نحو البيت ركض ارنب مذعور .

ولم يكن هذا كل شيء . كنت أراها وهي تمسح أرض الحديقة المبلطة . تنورة مشكولة في نطاقها ، وفخذ مرتج . يدان تمتدان بجردل الماء الى الاعلى وتقذفان به على الارض كأنه لعبة .حتى اذا راحت تمسح البلاط انبسطت عليه . وعندما يتقدم الليل وينتشر جو القاهرة باشعاع النجوم ، كنت أخرج في غبشة الواحدة صباحا من عند محرم فألمح انها في غرفتها ، واذا اصل الى الرصيف أراها من شباكها المظلم وقد نضت ثيابها عنها ، وجثم جذعها الفذ العاري على حفاف الشباك الداخلية ، تحدق الى العالم البعيد وتسترسل في تحديقها . وعبثا كنت أحاول ان اراها تنظر نحو الارض . وفي احيان نادرة كنت أشاهدها بعد انتظار طويل ، ترتد الى الخلف ببطء وتجوس في الغرفة المظلمة ، مستحيلة الى رؤيا داكنة مثيرة ، وتشف كميات لحمها كأنها قطعة من ليل أبيض . ثم تتناول روب سيدتها وترتديه فتشده على جسدها، وتهوي فوق شيء ما .

وكنت أتعب من متابعتها فأسير على طريقي...

انتهت خيرية من قضم الشطيرتين قبيل وصولنا الى المخفر. وهناك صرفت المساعد والشرطيين الثلاثة ، وصعدنا الى غرفتي فطلبت منها ان تفسر لي هذا الالحاح الغريب منها على دخول السجن. قالت :

ـ أنا مجرمة يا بيك . عصيت ، والله سوف يعاقبني. ضعوني في السجن .

قلت لها باسما : ـ ولكن معصية الله امر منتشر بين جميع الناس ، فهل تريدين أن نضع الجميع في السجن ؟

فصاحت : ـ لا يا بيك . أنا وحدي . أنا علي ذنب كبير لم يفعله أحد ، ويجب ان يعاقبني الله.

قلت مستفسرا : ـ القانون ، أم الله ؟ قانون المحاكم تقصدين؟

فردت بسرعة : ـ لا فرق ، المحاكم والله ، كلهم واحد . أنا مذنبة كبيرة . والله يعذبني دائما ، ولن أرتاح الا في السجن.

لم أطل الحديث معها . طلبت منها أن تحكي حكايتها ، وجلست أنصت . وبعد بضع محاولات تمكنت من ان اسوقها الى سردها.

قالت ان ما حدث بدأ في السينما . السيدة تصطحب ابنتيها وخيرية الى السينما كلما ذهبت. تجلس السيدات الثلاث في (البريمو) وتجلس خيرية في (الترسو) وهي تحلم بالصور . عندما ينتهي الفيلم تأتي السيدة الى (الترسو) فتنتبه خيرية من استغراقها في تأمل الشاشة وتدلف وراء سيدتها . ثم يركبن الى البيت ، حيث تستأنف حياتها العادية .

وذات يوم حدث تغير بسيط . ان خيرية تجلس في ((البريمو)) وراء مقعد سيدتها . وتسألها السيدة :

ـ خيرية ! كيف جئت الى هنا ؟

فتجيب باضطراب وتشوش وخوف : ـ تسللت يا ستي وجئت.

ـ ألم يرك عامل السينما ؟

ـ انه هو الذي أحضرني.

ـ اياك والعودة الى هذا .

ـ أمرك يا ستي.

انها ما كانت لتجرؤ على القدوم بمفردها الى ((البريمو)) لولا ان العامل دسوقي عبد العال شجعها وأمسكها بيدها حتى وصلت فجلست. واذ تكرر تسللها لم تعد السيدة تعترض . وألفت رؤيتها الى جانبها بعد حين.

وفي مرة ، جلست خيرية وراحت تقزقز اللب من قمع بيدها،

وفسرت ذلك لسيدتها بأنها ابتاعت اللب بالقرشين اللذين تملكهما ، كذلك كان الامر مع الكوكاكولا والشوكولاته والشكليس وعصير المنجة والليمون. ولقد دفع هذا السلوك الابنتين الى الاصرار على بعض الحشمة « انهما لم تكونا تقبلان مثل هذا التصرف نظرا لمكانتهما الاجتماعية » وهاجمتا خيرية برزانة لاذعة مطالبتين بقسط معلوم من الاعتبار .

وهكذا عادت الى « الترسو » . وهناك صارت تتلقى اللب والكوكا وغيرهما من العامل ، فتمضغه مسترسلة النفس ، انها لم تدرك أبدا السبب الذي حدا بسيدتها لارجاعها الى مكانها القديم ، لكنها اعتبرت أن ذلك هو الصواب . في الحين الذي كان العامل يقدم لها ما يقدمه دونما حساب ودون أن يوحي لها بأية رغبة في التعويض . وفي الحق فان العامل دسوقي كان يثير عواطفها بهذا الحنان. انه الذي شجعها للذهاب الى « البريمو » وهو الذي واساها « فأشعرها أن ذلك غريب » عندما أعادتها سيدتها الى « الترسو » ، وهو الذي استمر يقدم لها الملهيات الطعامية فلا يمنن عليها ولا يأخذ الثمن ، حتى شعرت بعد حين بأن ثمة نوعا من الحياة يختلف عنه في بيت الباشا . وكان ذلك مفاجأة كبيرة لها .

وهو الان من اجلسها في المساء ، وكان رواد السينما قلة ، فسألها عن احوالها ومكان عملها ، ولاحق كل التفاصيل عن حياتها واهلها . هز رأسه وسكسك عندما أنبأته بوفاة والدتها منذ عامين ، فاستمطر رحمة الله عليها ، وعلى الاسرة كلها . وهو ، مرة اخرى ، الذي فغر فمه استنكارا لزواج أبيها السريع من أمرأة صعيدية صارمة . وتعدى ذلك فراح يواسيها ويضحكها . أخذ يشدها من ذقنها الى أعلى قائلا ابتسمي، ويدير وجهها اليه ، وهي تغضي بخفر ساحر . وتفلت ذقنها فتغضي ؛ ويتجرأ دسوقي فيمسكها بحرارة ، باسما صامتا حائرا .

واستمر حتى كاد يبض الدم من عروقها .

ارتمت يدها على صدره وغمغمت :

ـ يا اختي عليك يا دسوقي.

وبادرها دسوقي وهو يحتاط كتفيها :

ـ أنا أحبك يا خيرية .

ـ صحيح يا دسوقي !

ـ والله العظيم !

ـ وأنا أحبك والله .

وكانت تنظر فرحا ودهشة الى فمه المليءووجهه العريض . وأحست بدفء دوار في كيانها ، بفرط تحسس . أغضت تعض على شفتها السفلى مرهوبة من دخولها عالما فذا مثيرا دخولا ما كانت لتسمح به لو انها فطنت له قبل حدوثه .

وترسب في أذنيها صوت دسوقي الحنون يقول :

ـ مالك يا خيرية ؟

وضمها اليه برجولة . لم تجب بل استكانت . مد يده ورفع رأسها اليه .واقترب بفمه فسقط الرأس على نحرها . وثانية مد يده . مسح على جيدها ووجهها ، ومد شفتيه فملأتا وجنتيها . تحول رأسها الى اليسار وارتفعت يداها تغطيان وجهها. وفي برهة كانت أسنانها تقضم أظافر يدها ، وصدرها يتنفس مضطربا .

أحس دسوقي بطفح في نفسه وفيض غامر . ورغب بقوة في أن يلف يديه حولها فيذيبها في حواسه وينتهي الامر . وهكذا تقدم جسمه منها وامتدت ذراعه اليسرى حول كتفها .

تملصت وقالت عاتبة :

ـ ما هذا يا دسوقي !؟

فأجاب بحرارة : ـ هو الحب يا خيرية !

ـ لكن هذا عيب .

ـ هذا عيب ؟

ـ أيوه .

ـ أبدا . نحن نحب بعضنا وسوف نتزوج !

وأحس لدى الجملة الاخيرة بتخاذل تام في أطرافها ، واعترتها برودة . كان دسوقي قد راح ينظر اليها صامتا عاجزا عن الكلام .

قالت : ـ كيف نتزوج ؟ ماذا نقول للست اذا لم تقبل ؟

فرد على الفور : ـ لا ، لا. بعد أن نتزوج تقولين لها .

ونظرت اليه مذهولة : ـ ليس معقولا !!

فأكد : ـ معقول ونصف . هل تقول لك هي ما يحدث لها معزوجها؟ هذا حب يا خيرية

واستدار وجهها متدلي الشفة موسع العينين على بقعة من السينما لم تكن تراها . وبقيت هكذا برهة .

ـ صحيح.

قالت . كأنها فرغت منتأمل الكلام ...

في الحضور الثاني للسينما ، خرج دسوقي وخيرية فركبا دراجته الى المأذون ، وهناك تزوجا على سنة الله ورسوله ، بحضور شاهدين من اصدقاء دسوقي.

واذ حل الصباح التالي حضر دسوقي الى « البيت الكبير » قبل ان تستيقظ السيدة . ورفضت خيرية ان تذهب قبل ان تطلعها على الامر . وهكذا ، فعندما أفاقت كانت مفاجأة مذهلة تنتظرها . على انها وهي المؤمنة بأفضلية الزواج على كل شيء ، لم تعارض البنة . نفحت الفتاة ببعض النقود « أعطتها خيرية الى دسوقي فورا » وودعتها بابتسامة كبيرة .

أحست خيرية بالطمأنينة ، فدسوقي لم يكن يعبث بهاء التصقت به في العودة والدراجة تقطع بهما الشوارع . قالت :

ـ أنت ابن حلال يا دسوقي.

فتلمظ الجملة برهة ، ثم سألها بلهجة المعلم :

ـ تعرفين ماذا تشبه الحياة ؟

ـ ماذا يا دسوقي ؟

ـ الدراجة التي تركبين .

ـ كيف ؟

ـ الدراجة فيها عجلتان : الامامية لابن ادم، والخلفية للمثل العليا.

ـ كيف يعني : المثل العليا ؟

ـ المثل العليا ؟ الشرف يا خيرية ! الاخلاق ، كلام الله ! العجلتان تنطلقان معا . اذا نفثت واحدة تعطلت الدراجة .

وجمجمت خيرية : ـ هذا كلام لذيذ ، والنبي . كله صحيح ؟

فأكد : ـ كله !

أمام والدها انتصبت بعد نصف ساعة، تلتصق بدسوقي وتتهادا .

كانت تقول : هوذا زوجي فقد كلمتك . وخلال لحظات طفحت على عروقهما حدة الانسان . ثم فكرت هي: ان كل شيء منته بعد قليل ، وما عليهما سوى ان تنتظر . كانت متجمعة ، وأحست أن على هذه اللحظات أن تنتهي من نفسها ، فهي عاجزة عن انهائها .

وأخيرا طأطأ الوالد متضاحكا ، وصاح فارشا يديه :

ـ مبروك يا حبيبتي ، مبروك . تفضلوا تناولوا الشراب .

فأعلنت خيرية : ـ لا ، نحن ذاهبان. تعال زرنا في البيت. بخاطرك.

وقال دسوقي : ـ السلام عليكم يا عمي.

فصاح العم : ـ ليس الا بعد ان تشربا الشراب ! يجب ان نحتفل بكما !

وبرزت في تلك اللحظة إمرأة تسد عرض الباب بجسمها وابتسامتها. دخلت فطوقت خيرية ، وعانقتها بحب عظيم ، وغابت خيرية بين ذراعيها.

قالت المرأة : ـ ألف مبروك يا حبيبتي . تفضلوا .

قال دسوقي : ـ لنتعرف بالعائلة يا خيرية . أريد ان اعرف اهلك .

وكانت ترتعد . خلال السنتين رأت زوجة ابيها مرتين . لم تستطع الان ان تبتسم ، وكرهت ان ترد على تهنئة الزوجة . واحست بثقل عظيم .

ـ تعالوا اشربوا الشراب .

فردت بحزم : ـ لا بأس ، في مرة اخرى .

قال دسوقي : ـ لنتعرف بالعائلة يا خيرية . أريد ان اعرف اهلك.

ونهنه الوالد باسطا يديه ومحركا عضلات وجهه :

ـ يجب ان تدخلوا .

تقدمت الزوجة الى فسحة الدار . وفي الغرفة راحت تذب الصغار من أبناء زوجها وتطردهم الى الشارع :

ـ روحوا ، العبوا .

وقفت على الباب تدعو خيرية ودسوقي الى الدخول ، فيما راح ينسل من تحت ابطيها صغير وصغيرة . واضطر دسوقي للتوقف بسبب كثرة الصغار ووقف الزوجة في منتصف الباب حتى انتهوا من خروجهم. وأعطاه انتظاره ذاك فرصة لان ينتبه الى ان الغرفة المتوسطة الحجم هي المسكن الوحيد للاسرة كلها .

خرجت فتاة في بدء المراهقة وصافحت خيرية بلا كلام . ثم تقدمت من أبيها وانتصبت حذاءه . لم يكن الاب قد تحرك بعد.

صاح دسوقي فجأة : ـ لا مؤاخذة ، يا جماعة . نسيت ان عندي موعدا . أف أ هو موعد في منتهى الاهمية . كيف نسيت الموعد ؟ خمسة جنيهات . بقي ان أستأذن يا عمي . يا سلام ، موعد هام للغاية . يالله يا خيرية ، ياحبيبتي . زورونا يا عمي.

ـ لا يمكن . يجب ان تشربوا الشراب .

صاح الوالد والزوجة ، ولم يتحركا . على انهما ازاء الموعد الخطير اقتنعا بسرعة أن عليه ان يذهب ، وابتسم كل منهما له.

طبعت الزوجة قبلة رنانة على وجنة خيرية . وتناول الوالد ذراعها فقبل جبينها الضيق . كانت يداه ترتعشان . وتلجلج صوته فلم يفصح. لم تفه خيرية بشيء فقد عراها اضطراب . تحولت نحو دسوقي الذي اعتلى صهوة دراجته . وشد الوالد بيديه راحة دسوقي النحيلة.

وانطلقا الى المسكن الجديد .

غمر الاستقرار خيرية فورا ، واحتوتها الجدران بالطمأنينة والامن. أسرعت ترتب البيت وتنظفه . وفي المساء طبخت لزوجها طبخها الاول ليأكله قبل ان يقودها الى السرير وهو يلفها بين ذراعيه . وعندما امسك بثيابها ينضوها امتدت يدها وأمسكت الثياب ، وبعد لأي قالت « أنا أرمي الثياب لوحدي » . واضطر دسوقي للخروج من الغرفة . وبعد ذاك غابت في السرير . عندما عاد كان وجهها ينزوي تحت اللحاف.

ليلتئذ نسيت التعب وسني الخدمة. وتأكدت من أن ثمة حياة مغايرة حقا .

في اليوم التالي نهضت موفورة الراحة . سارت ، لم تركض، وأسرعت ، لم يذعر ثديها الكبير ، ولم ينكشف ثوبها عن فخذيها . قامت بأعمال البيت كأن البيت ينتشر في نفسها وليس العكس . وتركت للاعمال أن تأخذ منها ما كانت تعطيه من قبل بلا انتظار .

أول النهار يتزايد طفح فوق قرارتها . وقد غدت كتيمة فجأة . في أول الليل يمسي الطفح مصدر رعدة خفيفة طافرة . وبعد هزيع ينصب تحت ساعدي زوجها . وتتحول الارض الكتيمة رملا يفور فيه الطفح، ويبخر ماؤه المسفوح على كانون الشبق مرسلا بقايا الوهج المتفحم الى الفضاء . وتستلقي خيرية الى جانب زوجها متخمة الحس مطفأة النفس، فتعب من عالم النوم الموات ذروة تحصيلها في الدنيا .

وكان دسوقي ينزهها كلما استطاع على متن دراجته . يدور بها خلفيات القاهرة السحيقة ، وواجهاتها العالية ، الى اماكن لم تكن تعتقد ان العالم يتسع لها ، وانه اذا اتسع فسيكون كبيرا كبيرا .

وقد حرص دائما على ألا يوقظها عندما يقوم لصلاة الصبح. الا انها كانت تستيقظ مع ذلك وتبقى جالسة في السرير حتى يعود ، فتغفو ثانية الى جواره ، دون ان تمسه لئلا تنقض وضوءه .

كانت في كل ذلك تنتشي كالحليب الطازج عندما تعتنقه الحرارة. لم تشعر بغير فرق طفيف بين تعريها في غرفتها القديمة وتعريها في بيتها الجديد . وكان فرقا في الدرجة لا في النوع . بالنسبة لها كان ذلك كل شيء ، أقصى شيء . اربع وعشرون ساعة تمضي . بحيرة قرارتها نبعها . ينفجر الماء فتغتسل الاعماق ، ويترقرق السطح بمويجات لعوبات. يزدحم البيت طيلة النهار بها ، بالاطباق والثياب وترتيب الغرف ، بالانتظار المرضب لدسوقي الذي كانت عودته مغلاق نافذة وحيدة تطل على العالم ، بالدعة بالحيلولة بالشبق.

سبعة أيام . وفي اليوم الثامن وقعت المفاجأة . كانت شيئا لم يخطر لها . بل انها ربما فكرت بتوابل الهند ، لكنها لم تظن ابدا ان امرأة ضخمة طويلة سوف تحيي معها هذا المشهد :

ضحى اليوم الثامن ، فيما غاب دسوقي في السينما كالعادة، فوجئت خيرية بامرأة سمينة في أواخر العقد الثالث تلطع في صحن الدار وتزعق ، ثم تهجم الى المطبخ فتضربها ، وتلف شعرها على يدها فترفسها، وتركلها وتخدشها وتوقرها . لم تفهم خيرية ماذا يحدث ، انما وقعت فريسة الذعر . انشغلت بتجنب الضربات اللعينة . وأخيرا وجدت نفسها في الشارع أمام بيتها الموصد دونها .

هنالك وقفت هي ، مذهولة اكثر منها أي شيء اخر . لم يبرز احد ولا انفتح باب . وفجأة انتبهت الى صوت المرأة وكان ما يزال يلعلع:

ـ أنا التي هي زوجته . يلقط طفلة من الشارع ، خدامة ، ويجعلها زوجته ؟ فشرت.

نظرت الى الباب وتهالكت . أحست انها لا تريد ان تكون في تلك اللحظة . ولم تعد تسمع صوت المرأة أو ترى ما حولها . خيوط بيضاء ورمادية ارتسمت أمام عينيها ، وركضت مع حركات البؤبؤين ركضا شيطانيا . ودوت أذناها . وفي اخر الكابوس جثم على اضلاعها خانق ثقيل ، ولم تستطع ان تفهم شيئا .

فتح الباب فجأة وأطلت منه المرأة . وللمرة الاولى لمحت خيرية شعرا أجعد وحنكين عريضين ورقبة غليظة . بعدئذ ، انقذفت صرة بوجهها . وارتفع الصوت يدوي في اذنيها :

ـ لتموتين اذا دخلت هذا الباب . قيل امرأته ، قيل.

امتدت بحركة آلية يدها الى الصرة فلمست فيها ثيابها . هدأت اليد فوق الثياب ، وبدا لخيرية انها تعي نزرا يسيرا .

صرخت المرأة : ـ انتظريه ، وسأطردكما معا .

فنظرت اليها بجمود . وأحست بشوق كئيب لان تدخل البيت

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

الحبُّ والحرّية

« الى ارواح شهداء الطليعة العربية في العراق »

يا أصدقاء المصير (١)
يا رفقتي على طريق الشمس ..
يا طليعة النصر لشعبي الكبير ،
يا وجه شعبي الصامد المعذب الدامي،
يا نبع الهامي ،
أحبكم يا أصدقاء المصير ،
أحب في عيونكم أروع حلم نضير ،
أحب شلال انبعاث كبير ،
يولد في أعماقكم ويهدر ،
يقول : نحن القدر ،
أحبكم يا أصدقاء المصير ،
من أجل أن تنبع من أعماقنا الثريه ،
أروع سمفونيه ،
للحب والحياة والحريه ،
أحبكم من أجل أن نذوب في أغنيه ،
خضراء حمراء جماهيريه ،
تحرسها القلوب والسواعد الابيه ،
أحبكم من أجل أن تورق في نفوسنا ..
زنابق الاخاء ،
من أجل أن تطل من سفوحنا ...
على الدنى ...
زيتونة خضراء ،
أحبكم من أجل أن ينتصر الانسان ..
في معركة البقاء ،
من أجل أن تمزق الشعوب اسطورة قيد ونير ،

من أجل شعبي العربي الكبير ،
أحبكم يا أصدقاء المصير ،
أحب فيكم لون مأساتي ،
أحب نيران العذاب الكبير ،
تصهر في آلامكم ذاتي ،
تحرق أهاتي ،
تشدني للشمس أنى أسير ،
وتقذف الحاضر للآتي .
أحبكم يا أصدقاء المصير ،
يا رفقتي ، يا ضمير
شعبي ، ويا منبع الهامي
جنحت من عالمكم ، من دمكم
حكايتي ـ ألذ أحلامي ،
أروع أنغامي ،
حكاية تقول : كن
من عالم الطين الها مبدعا ، وانجبل
من العدم
من القدم
من الزمان والمكان ، من عروق الازل ،
فالله والزمان منذ الازل ،
ينغمان في عروق البشر
أنشودة التحرر ،
أنشودة النماء والعطاء ،
من أجل ذا أحبكم يا أصدقاء المصير ،
أحب أن تورق في قلوبكم زنابق الوفاء ،
أحب أن نصدح من أعماقنا بأروع الغناء :
يا رفقتي ، ما أروع الحياة ...
أن نبدع في معركة المصير

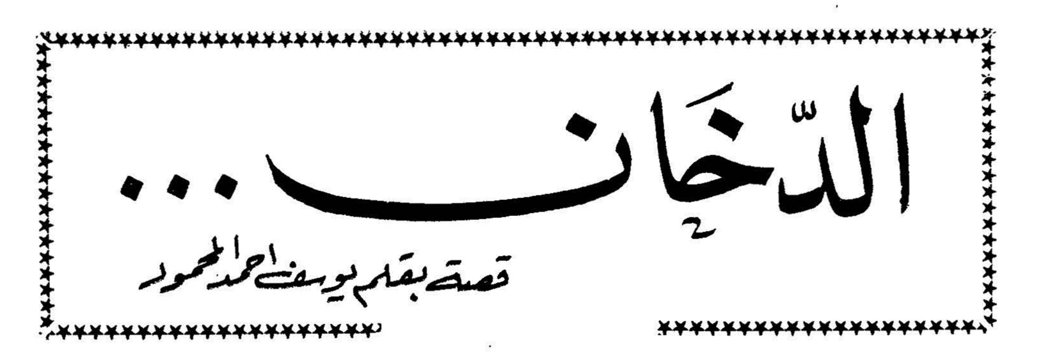
من روحنا الخالد ، لونا خالدا ...
ونكهة لفجرنا الكبير ،
ما أروع الفداء ...
أن نحمل عن انسان هذا الكوكب
عذاب كل الناس في معركة البقاء ،
ما أروع الانسان : أن يرفع للعلاء ...
في صراعه الرهيب
صخرة « سيزيف »
ومصباح « ديوجينوس »
ومشعل « بروميثيوس » ... (١)
صانع اللهيب ،
ما أجمل الحياة .. لو تغيب
عن وجهها عواصف الفناء ... لو يصير
انسانها آمن من حمام
مكة . لو تنبع من أعماقه أنشودة السلام ،
أحبكم يا رفقتي ...
من أجل وجه مشرق حبيب ،
ألف مسيح علقوا
لاجل عينيه على الصليب ،
وألف ألف يولدون في الدجى
من جرحه الخضيب .

سجن بعقوبة **محمد جميل شلش**

---

(١) كتبت القصيدة في سجن بعقوبة عام ١٩٦١ بمناسبة ذكرى تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي وهي عنوان المجموعة التي يعدها الشاعر للطبع .

(١) في الاساطير اليونانية أن بروميثيوس سرق النار من الالهة واتى بها لاهل الارض فعاقبه كبير الالهة وشده الى جبل القوقاز وسلط عليه نسرا يأكل من كبده ولا تكاد ان تنتهي حتى تتجدد .. الى ان فكه من الاسر « هرقل » ... وكان بروميثيوس لا يخشى التعذيب لعلمه ان مصير معذبه في يده .



أخي صاحب الآداب ،

تحية عربية وتهنئة بانتصار القومية العربية المتوثب وبعد ،

تشاء الصدف ، أو بالاحرى القدر العربي ، أن تعلن ثـورةالجيش والشعب في سورية بعد الليل الطويل ، في صباح اليـوم الذي انتهيت فيه من ضرب هذه القصة على الالة الكاتبة ، وقـدبيضتها لارسلها لمجلتكم ، بل مجلة القومية العربية الادبية ، وأنـا موقن بأنها لن تصلكم ، واذا وصلت ونشرت فاما أن تمنع المجـلةكلها من ان توزع في سورية واما ان القصة تنتزع كما كان يفعل بكل ما يكتب رمزا وتصريحا عن سورية في عهد الانفصال ، وأفقت بعدأربع ساعات من الفراغ منها لاجد الصباح غير المساء ، وسبحان مبدل الاحوال ولخير العرب له الحمد . وترددت بأرسالها .. فالدخان قدانقشع بعاصفة جبارة ، ولم يعد من داع لان نذكر شيئا بعد مضيه، ولكني أرسلتها لانها فترة من فترات كارثة الانفصال الغادر .. وبعـدذلك لكم رأيكم ودمتم ودام انتصار القومية العربية ..

٨ - ٣ - ١٩٦٣ . يوسف احمد المحمود

يداه لاتمتدان الى لقمة اخرى .. لماذا يأكل ؟ وظلت عيناه تحدقان في الطبق ، بينما كان دماغه يدفع بالسؤال من نقطة الى ثانية ، ولعلهـا أول مرة تصور فيها الدماغ مؤلفا من حبوب كالرمانة وكل واحدة من تلك الحبوب ترمي بالسؤال الى الاخرى .

لماذا يأكل ؟

نفس السؤال انطرح أمامه من الحبة الاخيرة ، كما تنطرح الورقة من الميزان الآلي دون أن تكون تحمل أرقاما تشير الى الوزن والتاريخ !

سمع صوتا من حوله .. صوتا تعود أن يسمعه منذ سنوات ، ولكنه لاول مرة قال له :

ـ كل .. فلا تموت !

وأجاب دون ان يرفع نظراته من الطبق :

ـ لماذا لا تأكلين أنت .. فلا تموتين ؟

ـ أنا !.. انني آكل في غيابك .

ـ كنت دائما تنتظرينني حتى أرجع ولو طال غيابي يومين !

ـ تخليت عن هذا .. صرت آكل متى أجوع .. متى شعرت بالحاجة

نحن نعيش معا ، ولكن طريقة الشخص الذاتية في النوم والطعام قلمـا تتغيـر .

ـ ولكن كيلو الخبز الذي نشتريه كل يوم لا يزال كما هو !

ـ صنعت لنا أمي أكلة نحبها .. أكلتها مع شقيقاتي .. صـدفة التقينا كلنا هناك .

ولم يسترسل في الحوار .. « كل .. فلا تمـوت » هل وقفت زوجته أكثر من دماغه بالاجابة على السؤال ؟

الطعام ضد الموت ! ولكن كثيرين من الناس يموتون ، والطعام أوفر شيء لديهم . لو كان الطعام ضد الموت لمات هو والاف غيره منذ ان فطموا . وهل يأكل الانسان بأي شرط ، شرط ان لا يموت ، كائنة مـا كانت الظروف ؟ شيء اخر ، كما يحس ، غير ابقاء الحياة ، هو الـذي لاجله يأكل الانسان .

ثم قام يفتح النافذة المطلة على الزقاق الضيق ويفتح الباب بـالرغم من أن صاحب الدار قد طلب اليه بلهجة قاطعة أن لا يفتح الباب . مـا كان هو في الغرفة ، فهناك جيران يطلعون وينزلون ، وعليه هو ان يقطـع الهواء عنه باغلاق الباب ، وليس عليهن هن ان يخرجن باللباس الـذي يمنع النظرات من التهاوي الى العورات . وكان الطقس معتدلا ، ولكنـه يحس بالاختناق ، فنزل الى حيث يتصالب الزقاقان ، وأخذ يفتح فـاه الى أقصاه .. أعاد ذلك مرات ومرات ، الا أن نسمة من الهواء لم تدخل، وزفرة واحدة لم تخرج .. فالهواء هو الاخر لا يأتي الرئتين الا اذا أتـى الطعام المعدة ؟

رجع يفتح الراديو .. الراديو الذي كان لا يغلق ما دام في البيت، أعاد اغلاقه بحنق ، وقذف فمه شتائم بقدر ما قذف الراديو من الدخان. كيف يطيق سماعه ، وهو منذ يومين يكذب عليه بوقاحة ؟

منذ يومين ، وهو يناديه فيمن ينادي من المواطنين بأنه : استجابة لرغبة المواطنين .. تلبية لرغبة الشعب .. تضحية في سبيل الشعب.. لرفع الضيم ، لانقاذ الكرامة ، لاعادة الحرية الى الالسنة .. الى العيون، والعزة الى الجباه .. لاعادة الطمأنينة الى النفوس .. فعل « الـ .. » ما فعل .!

أي كذب هذا . أي تمويه وتضليل ! كيف يسكت ؟ كيف يطيـق سماع مثل هذا الافتراء الوسخ ؟ هل يحطم الراديو .. أم يحطم رأسـه هو ؟ انه واحد من هذا الشعب ، الشعب الذي تحقق حلمه مرة واحـدة، ثم .. ثم انهدم هذا الحلم ، انهدمت الحقيقة التي تتجسد فيها هـذا الحلم بضع سنوات .. انهدمت مرة واحدة كما تنهدم القلعة الكبيرة في زلزال أرعن ، ثم يبلغ الاستهتار بالزلزال أن ينـاديه ، وينادي غيره: ابتهجوا .. لقد فعلت هذا لخيركم .. استجابة لرغبتكم .. فاطمئنوا !!

وتناول الجريدة .. الجريدة التي كان يعمل فيها منذ سنة ... قلب صفحاتها بسرعة ، ثم رماها كما يرمي الحذاء الضيق في الصيف. انها هي الاخرى تكذب عليه . انها تغص بالصور .. بوصف الافراح التي أنزلها الزلزال بالقلعة الكبيرة . انها تدل على الشعب بهذا الزلـزال الذي هدم كيانه .. هي الاخرى تقذف بالدخان في وجهه ، وتملأ بـه أعماقه ، فلا يستطيع أن يتنفس . هي نفسها التي كان يتنفس عـلى صفحاتها ، صارت تقطع نفسه . انها تلح على القول بأن الزلزال دمـر مـا دمر لاخراج الشعب من القلعة ، ولاحلاله في أكواخ واهية ، ولتحريره من هذه القوة التي كانت تشد رأسه كبرياء الى السماء ، وتجعل اسمه محترما في أرجاء العالم .

هل هو طفل ؟ هل هو مستغفل الى هذا الحد .. الى حيث يكذب

عليه في وجوده ذاته ؟ لماذا لا يمزق هذه الجريدة .. الجريدة التي كان يأكل من عمله فيها ، ثم أصبح الان ينظر الى مكاتبها من بعيد كما ينظر العاشق الى دار حبيبته التي انقلبت عليه ، واغتصبت منه.

هكذا .. هكذا في لحظة زوروا الجريدة عليه .. على الشعب كله.

ثم .. ثم لا يزالون يجهدون لتزوير نفسه الى نفســه ، لتشكيكه في وجوده ، فيمضون بالقول في الاذاعة ، وفي الجريدة ، بأن جعل الحلم حقيقة خطيئة كبرى . فالحلم ، حلم بطبيعته وتحويله الى حقيقة مخالف للطبيعة وتشويه لقدسية الاحلام !

وعاد يرمي بالطعام في معدته كما يرمي بالدواء الكريه الرائحــة والطعم ، فلا يموت . فالطعام بالنسبة له منوم ، واقترب طفله .. وضع يديه على ركبتيه ، ونظر في وجهه ، وهو يحرك رأسه كالحرذون الذي يلوك الهواء على صخرة بازلتية حارة ..

نظرة يابسة جمدت على وجه الطفل ، وجعلته يمسك حركات رأسه.

هل هذا أبوه ؟ انه لم يضع رأس اصبعه في ثغره ويطلب اليه أن «يكز» للتأكد من بروز سنه الاول كما تعود منذ بضعة ايام . ان الدخان غمر ملامح ابيه . أنه مزور !

شيء .. أي شيء يؤكد له وجوده ، أو يخلصه من هذا الوجود ؟

استلقى في الفراش .. أخذ يشد جنبه الايسر على ذلك الفراش الصلب ، محاولا ان يسند قلبه ، بعد ان لم تعد ضلوعه تمسكه ، بـل يشعر انه معلق به من الخارج.

لماذا يمتنع النوم منه ، وهو الذي كان ينام بمجرد امتلاء معـدته، وبمجرد دخول الفراش ، وكان يعيش من النوم كما يعيش بالطعام، ويرى في النوم تصفية لاتعابه، وتنقية لافكاره ، بل يرى فيه استبدالا كبيـرا لحالات قديمة بحالات أخر ، كما تموت وتعيش بعض خلايا جسمه دون ان يشعــر ؟

راديو الجيران يملأ الحارة كلها بجعيره الاهوج المتهدج .. الدخان يتدافع منه ، ثم يسترخي حوله ، كدخان معمل كبير ، تلقيــه المدخنة بقوة ، ولكنه لا يجد هواء يحلق به ، فيترامى ببطء ، ويتكاثف فـوق الارض ، والجيران من حوله يغضون رؤوسهم كالكلب الذي يحمي الجيفة. كيف ينام ؟ انه يستعيد الايام القريبة .

ثلاث سنوات ونصف السنة ، كان هؤلاء الجيران يتخذون من بيتهم وكرا .. رفاق يتسللون واحدا بعد الاخر في الساعات القريبة من منتصف الليل ، وزجاجات العرق في ايديهم .. ثم كانت القهقهات ودخـان السجائر ، هي وحدها التي تخرج من الغرفة. كان يعرف ان العرق ليس الاستارا ، فاذا ما دوهموا ، فسرعان ما يقولون بأنهم في سهرة عـادية ينسون فيها تعبهم من العمل طول النهار . شخص اخر كان يتململ معه. انه الاب يأتي اليه في النهار ، ويبث تذمره ، وكأنه يرجوه ان لا يطلع السلطات المختصة ، لأولاده يعصونه، واكثر من مرة تجهم في وجـه رفاقهم ، بل طردهم ، وهدد ان يخبر هو نفسه السلطات التي تلاحق الشعوبيين ، ولكن الاوامر التي يتلقونها من رؤسائهم، كانت فوق أن يرعوا حرمة الاب ، او يبالوا بطرد .

كان يرى بعينيه ، ويسمع من الاب ، ويـدرك بحسه واطلاعه على الحركات السرية المشابهة ، وكانت احدى يديه على قلبه، والثانية يحار ماذا يفعل بها ؟ هل يضعها على فمه ، ويراعي حرمة بيت أمضى فيإحدى غرفه خمس سنوات ، أم يدل بها السلطات على هؤلاء الذين يعبثون بمصير بلاده وشعبه ؟

وظلت يده حائرة أكثر من نصف سنة ، ولكنه الان هل يهوي بهـا على رأسه ؟ هل يشد بها على عنقه ؟ ان ثقته بيقظة السلطات المختصة كانت مخيبة له .. ذات مرة كتب تقريرا للمسؤولين عما رآه في ناحية اخرى من المدينة ، وقبل ان يضع التقرير في البريد ، كانت حمـلة شاملة تشن بقوة على تلك البقايا الشعوبية ، ومن هنا اشتدت ثقتـه، ومن هنا احجمت يده هذه المرة ، وكان أن أفاق على النكسة ، على الزلزال . ويده الاولى لم تعد تستطيع امساك قلبه ، والثانية لم يعـد تحت سلطتها الا رأسه وعنقه .

ساعات تتوالى ، وهو كلما تحرك يجر قلبه من حوله .. نظـراته تتردد في الكتب الجاثمة على رفوف متقابلة في ناحيتين من الغـرفة. انها نظرات محتضر يتلجلج انسان عينه مرة ، ويجمد مرات . يـده لا تمتد الى قلمه ، والوقت الذي كان يخصصه للكتابة يمر كأنه في ظـلام لا فجر له .. الحياة كلها لم تعد له . لقد اغتصبت في لحظة واحدة.. لحظة انطلق فيها الدخان الكثيف من محطة الاذاعة ، فملأت به البيوت، الازقة الضيقة ، الشوارع العريضة ، الجبال والسهول ، وكل مكان فيه عربي يعمل لتحقيق الشعار القومي من المحيط الهادر الى الخليج الثائر دولتك العربية .

لم يعد يستطيع التنفس .. الدخان يتكاثف .. يطلق باسم الشعب .. أي شعب !

انه يسمع هذا التزوير .. هذا الكذب ، ولا يستطيع انكاره الا بأضعف الايمان .. بقلبه !

أجل ..! بقلبه فقط يستطيع الانكار.

من أجل هذا فقط !

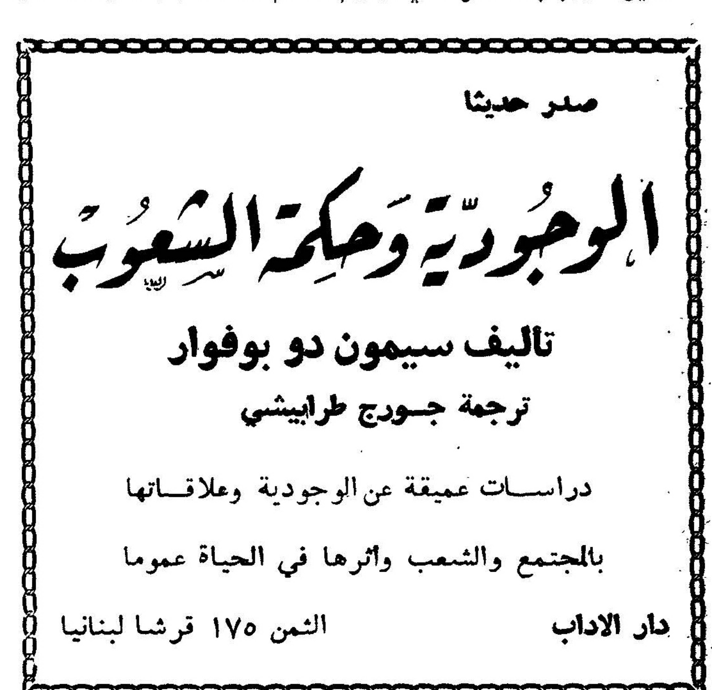
من أجل ان يستنكر بقلبه جر نفسه من الريف الى المدينة .. الى المدارس الثانوية ، والى الجامعة .. أنفق السنوات .. أعطى الكتـب بصره ، وأوراقها وحبرها أعطاه ثمن قوته ، والمظاهرات القومية أعطاها سعة حنجرته وقوتها .. أعطى نفسه لبلاده شابا قويا واعيا، حتى اذا ما تحققت أول أحلامه القومية .. حتى اذا ما بلغ هذا الحد لم يستطع أن يدفع ، أن يستنكر الغدر الطائش الا بأضعف الايمان .!

حتى أن يضرب رصيف الشارع بعصا لا يستطيع .؟

لن .. كلا ! لن يموت خنقا بالدخان كما يموت الثعلب في أعمـاق وكره .. سينطلق عاصفة تمزق هذا الدخان الشعوبي . لملم نظراته مـن أرجاء الغرفة .. جمعها تحت جفنيه كأنه يستضيء بها في أعماقه .

لا شيء !

مرة أخرى عاد يلتفت حوله . كل ما كان يعيش له انعدمت فيـه القدرة أو الرغبة لاستعماله . حتى زوجته لم تعد له اليها حاجة. انه بدون عزة .. كبرياؤه تحطمت .. الفريزة .. الفريزة : غريزة الطعام ، النـوم والجنس أيضا كلها تتلاشى اذا أصيبت كبرياء الرجل .. الحيـوان الاعجم تحولت غريزته الجنسية الى موسمية لانه يعيش بلا عزة ..يكذب الانسان عليه كما يكذب عليه هو الان ، ولا يستطيع دحضا لهذا الكذب.



أثبت نظرة في وجه زوجه الشاحب ، ثم سحبها قبل ان تنتبه اليهـــا ، ولكنه ما لبث ان رجع بالنظرة ، ولما أحس بزوجه تكاد تنظر اليه قـال:ـ

هل تريدين الحياة بعــد ...

ولم تر وجهه كله .. كان غارقا بالدخان ، فأجابت وهي تحاول ان تشد أعصابها : ـ

ـ ما الحاجة لمثل هذا السؤال الان ؟

ـ لمجرد الحديث فقط .

ـ ألم تجد ما يثير الشهية الا هذا ؟

ـ هذا ما خطر لي .. أرجو أن تجيبي .

ـ ألا يمكن ان أعلم الاسباب .. أسباب الموت والحياة ؟

ومد يده يفتح الراديو ، ثم قال : ـ

ـ اسمعي .. اسمعي ما يقولون .!

ـ هل هذا ما يدعو للموت ؟

ـ انه يدعو للقتال .. كيف أتحمله .. أتحمل الافتراء ، الكذب والتضليل . لقد جرت نفسي ـ جسدي عاريا على الاشواك الشرسة ، وتمكنت بالامل والصبر ان اتعلم .. أن أعي مصلحة بلادي .. أن أفهم الحرية والوحدة والاشتراكية ، وتحقق الحلم .. عشت بضع سنـــوات في الحقيقة التي كانت حلما .. ثم ـ ثم أسمع الان من يقول بأنهـــدم الوحدة ، وألغى الاشتراكية ، وأطلق الحريات « الديمقراطية » لاجـــل الشعب .. لاجلي أنا .. فعلى من يضحكون .؟

ـ وماذا تستطيع أن تفعل ؟

ـ أ ... أسك ...

ـ ان صوتا واحدا لـ .. لن ...

ـ لن .. لن أسكت .. لن أرد هذا المنكر بأضعف الايمان فقـط . انني .. ان الشعب العربي يريد الوحدة بأي ثمن .. بـــأي حال . لا يريدها ليأكل خبزا ، بل يريدها لانها شرفه .. عزته .. تاريخه ، والتاريخ لا يكتب الا بالدم .

ـ الشعب كله يدرك هذا ، وقد يمهلهم ، ولكنه لا يهملهم .. هـذه سنة الله في الفجرة ، وهي أيضا سنة الشعب .

ـ الامهال ليس في كل شيء .. سأصرخ .. دعينا نصرخ فـي وجوههم .. وجوه الكذبة ..

ـ نصرخ .!

ـ نستقل الباص .. حتى اذا ما صرنا في الشارع الرئيسي .. أنت أمامي تحملين طفلنا ، وأنا .. أنا أصرخ : تسقط المؤامرة المأجورة .. تسقط ...

ولمعت ابتسامة على شفتيها وقاطعت : ـ

ـ بهذا لا أريد أن أعيش بعدك .. انني أصرخ معك . تزوجتك في الشهور الاولى من تحقيق حلمنا القومي .. وطفلي عندما ولد سجلتـــه مواطنا في دولة كبيرة ، ولا أريده عندما يستيقظ ، أن يرى نفسه بعيدا عما ولد فيه .. الانسان يولد صغيرا ويكبر ، كيف يحمل ، وهو في المهد ، جنسية دولته العربية الكبيرة ، ثم يفتح عينيه ليرى نفسه يحمل جنسية جزء صغير من تلك الدولة . لا .. لا أريد له هذا ، ولا لي أنا أيضـــا .

ـ أرجو أن تتركي هذه « اللاكن » جانبا ..

ـ أمهلني .. انني لا أقولها امتناعا ، ولكن صراخنا في هذا الوقت يضيع ، ونضيع نحن معه ..

ـ لا .. أبدا لن نضيع . من يموت في سبيل حقيقته التي كـــانت حلما طوال أجيال بعيدة ، ثم بعثرت لتكون مرة أخرى أبعد من الحلم .. من يموت في سبيل هذه الحقيقة لن يضيع ..

ـ لا تزال تحول بيني وبين اتمام ما أريد قوله .. أنت معي بـــأن هذا الزلزال المدمر قبض ثمنه .. فهؤلاء لصوص ، واللصوص يبيـــدون أهل البيت اذا ما استيقظوا عليهم .. يبيدون من يعارضهم ، لان مـــن يستيقظ عليهم ، ومن يعترضهم لن يرأف بهم ، فهم من ناحية أولى يحفظون حياتهم ، ومن ناحية ثانية يحفظون الاموال التي غامروا بحياتهم لاجلها ..

ـ مهما كانت النتيجة لا بد من المقاومة .. كيف يسكت صاحب البيت على اللصوص .. بل على مدمري بيته ؟

ـ ان المقاومة الان لا تجدي . ان مصيرها الابادة العاجلة . المقاومة المجدية ان نحاول الاتصال بآخرين .. أن نجعلها تستمر شهورا ، بـــل سنوات اذا استوجب الامر .. أن نوسع نطاقها . أما الان ، فاننـــا نخرس قبل ان نطلق صرختين .

ـ يكفي .. صرخة واحدة تكفي ..

ـ تكفي لان نموت راضين عن تصرفاتنا ، ولكن البلاد لا يكفيها صرخة واحدة .. أيام قليلة ونستطيع الاتصال بآخرين . لا شك أننا لسنـــا وحدنا الذين توقفنا عن ممارسة الحياة ، ومع أولئك الاخرين ننظـــم صفوف المقاومة ، وننتقم .. لابد من الانتقام .. أن ننكب الذين نكبونا .. ألا تسمع جيراننا كيف يضحكون .. الأشفى للنفس أن نضحك ، ونحـــن ننتقم ..

ـ الثعالب التي أطلقت حول أقفاص الاسود تطلق عواءها بوقاحة .. هي ـ هي وحدها الموجودة . هي وحدها الان ، والنار في أذنابها تحرق الارض . لن .. لن أظل في القفص ، سأصرخ في وجهها . الثعالب التي تسكت اذا ما قلب حذاء على وجهه ، ستسكت اذا ما شهر في وجههـــا هذا الحذاء .. ستهرب .

ـ ثعالب ! هل تعوي الثعالب الا في أول الليل .. في أول الظلام ؟ لنتركها تعوي حتى تظهر كلها ، وعندئذ نعرف كيف نبيدها . دعها تدلنا عليها ، على بعضها بعضا ، كما تدل الضفادع بنقيقها حية البحر عليها .

وكان الراديو .. راديو الجيران يقذف الدخان بحماس ، دخـــان مزابل المدينة المتفسخة ، دخان البالات التي تكاد الرطوبة تفنيها مضافا الى دخان الاحقاد الشعوبية المزمنة ، وقد وجدت فرصتها الذهبية بقطع خط النضال العربي القومي بهذا الزلزال الغاشم ، ولا شيء يستطيـــع أن يمسكه : لا يستطيع أن يأكل فيشعر بالنوم ، لا يستطيـــع أن يقرأ فيتعب ، لا يستطيع أن ينام فيغير النوم شيئا من حاله ، وهذا الكذب .. هذا الافتراء يحرق دمه ، والحرية .. حريته هو ، حرية بلاده قد مزقت تحت ستار العودة الى الحياة الديموقراطية . أي ديموقراطية ؟

ديموقراطية مخلفات الاتراك ، ديموقراطـية الاستعمار الغربـــي ، ديموقراطية الشعوبية التي تحاول تضييع البـــلاد مـــرة اخرى ، أم

ديموقراطية الاقطاع ورأس المال والاحتكار والشركات ؟ هؤلاء كلهم هم عناصر الزلزال ، هؤلاء هم الذين ينادون بالديموقراطية .. من أي أبله وأحمق يضحكون ؟

أي شيء يمكن أن يدخل في نفسه أن هدم القلعة الكبيرة وبعثرة حجارتها الضخمة ، واقامة أكواخ واهية هو لخيره .. لخير بلاده ؟ أي شيء مهما أوتي من القوة يقنع الفلاح ، بأن انتزاع الارض منه ، واعادتها الى الاقطاعي افضل له ؟ من يستطيع ان يتفوه أمام العامل ، بأن رفع يده عن المشاركة في ادارة المعمل ، أضمن لحقوقه ، وأن مشاركته في الارباح تضر به ؟ من يستطيع أن يجعل العامل يصدق ، بأن الرأسمالية أدعى للتقدم من الاشتراكية ؟ واذا كان شخص يبلغ به الاستهتار بالقيم وبالمفاهيم الى هذا الحد ، فأي استهتار يدفع بشخص لان يقول امامه ، بأن بقاء بلاده مجزأة الى دويلات وحكومات ، هو الوضع الصحيح للبلاد الواحدة والشعب الواحد ؟

حمل رأسه بين يديه ، ولكنهما لم تستطيعا ان تحملاه . لم تستطيعا منع الدخان من حبس أنفاسه . الثعالب تعوي .. تفتري على ارادته . الثعالب تستطيع أن تمنعه من الكلام ، أن تعبث بحريته ؟

كان الباص يتدحرج في الشارع . النهار قبل منتصفه ، وأواخر الصيف لا يزال يمنع الغيوم من التسرب الى السماء ، ولكن الظلام يمسك عليه نظراته .. أشخاص يسيرون هنا وهناك منفردين كأنهم متماوتون يتسللون من أرض معركة ، وهم يخافون أن يكون هناك من لا يزال يراقبهم .

في أي مكان يصرخ ؟ حركات السير .. السيارات الصغيرة تحاول ان تكبر برفع أبواقها .. في كل خطوة يرفع صوته الى حلقه يجربه .. يختبر مدى قوته . هل يمكن أن يرتفع على هذه الجلبة ؟

والتفت .. الشارع هنا مكتظ .. الناس يخرجون من حفلة اضافية في احدى دور السينما . أبدا لن ينتظر .. لن يبدل هويته التي تحمل جنسيته في الدولة الكبيرة بهوية تعود به الى الوراء .. الى جزء من تلك الدولة .. لن يموت مختنقا بالدخان الشعوبي .. لن يتحمل الكذب عليه .. لن ينتظر حتى ينظم الصفوف مع الاخرين .. الان .. الان ، وانطلق صوته : تسقط الانفصالية .. يعيش العرب دولة اشتراكية واحدة من الخليج الى المحيط .. تسـ ...

وانقطع الصوت .. عقب بندقية دقت رأسه .. عقب بندقية أخرى قصفت ظهره . وتنفس كأن الدخان الكثيف الخانق قد انقشع ، ولكنه كان النفس الاخير !

يوسف أحمد المحمود

تحية الثائرين في العراق

بعزم الشباب .. رفعنا اللواء ، على « الكاظمين » وفي « كربلاء »..
وطارت أغاني الاباء الجريح الى « موصلي » .. قلعة الكبرياء ،
ورفت أماني ... لا تنتهي ، لشعب عظيم .. عظيم الوفاء .
شرقنا ، هنا ، بدموع السعادة . بالله أحلف .. بالانبياء !
سمعنا ، على لهف الظامئين ، نداء الاذاعة .. نعم النداء !
شربناه .. في خفقات القلوب . وعيناه .. في نبضات الدماء ،
بهتنا ! . أخذنا ! . حوانا الذهول !. وغبنا .. بايحاءة الانتشاء !.
أبغداد قد حطمت قيدها ؟!. ومات « هولاكو » ؟. وزال الوباء ؟!.
عليكم - رفاق النضال - السلام ، وشكرا .. وحمدا لرب السماء .

●

سلام عليكم .. ففي روعكم ، شددنا القلوب الى دجلة ..
وعشنا ليالي العذاب الطوال .. نشاطركم قسوة المحنة !..
ونعصر من نبضات القلوب ، ومن وهجها .. أمل الوحدة .
هنالك .. كنتم على موعد ، مع البعث في صيحة الثورة ..
لتمحوا ركام السنين الثقيل ، وتسموا .. بمستقبل الامة ،
وكنا - هنا - في الفراغ الرهيب .. نناجي ، ونمعن في التوبة !.
تعبنا - هنا - ومللنا النضال ، فقدنا الوبال من الخيبة !.
وأوشك أن يحتوينا الضياع ، فنغرق .. في وسط اللجة !.
سلام عليكم .. فاعصاركم ، لوانا اليه ... الى العزة ،
فأنقذ فينا بقايا الاباء ، وشاركنا شرف الوثبة .
سنحيا ، معا ، إخوة في النضال .. دعاة سلام وحرية
جنودا لتحرير أجيالنا ، وتحرير آمالنا .. الحلوة .
سلام عليكم . وفي عرسكم ، تطير القلوب الى الفرحة .

●

ملايينا - يا أخي في العراق - تعيش .. على ومضة من أمل ،
تحث خطاها بنور الرجاء ، تفتش .. عن فارس ، أو بطل ..
لتلقي اليه مقاليدها ، وتمنحه غاليات القبل !..
وتعلن عن حقها في الحياة ، وتحمله في عزيز المقل ،
فقد سئمت عيشها (العبقري) بسجن - هنالك - أو معتقل !.
كأن الشقاء لها وحدها ، أعد .. لتحياه منذ الازل !.
ملايينا - يا أخي في العراق - تصلي .. ليأتي ربيع الامل ..
تمد اليك بأحلامها ، وفي دمها البعث .. لما يزل ..
وفي دمها التضحيات الكبار ، لتبني .. لتعرف طعم العمل ،
فتكتب تاريخها من جديد ، وتثبت مركزها في الدول .
فهيىء لها رشدها يا أخي !. وخل الحقود ، وخل الدخل !

●

حقيق بنا - كلما نابنا ، من الدهر ريب - جموح الشمم ..
واما تأله فينا عتي ، نفار الاباة ، وحطم الصنم !
ونسمو سمو الكرام .. الكرام ، ونحفظ مركزنا في الامم ،
واما بلغنا مجال الحياة ، حزي بنا نظرة .. من أمم ..
فنهدي الوجود عطاءاتنا ، بسيف تسجل .. أوفي قلم .
لنا مثل قد روته القرون ، وعته الهنود ، وعته العجم
ضربناه .. في وثبات الكمي ، وفي هزة العطف عند الكرم .
يحوم ، فوق الحمى ، بأسنا .. فيرعاه . ان حمانا حرم .

●

ملايينا .. شعل في الطريق ، تبارك ثورتك الظافره ..
تزغرد .. تشدو .. ترش العطور .. توشوش بالنغم الزاهره ..
وتلعن - آسفة - لا تمل .. ضغائن شذاذها الكافره ،
وتأسى على همرات الجراح ، تولول في قصة غابره
تذكرها غزوات التتار ، تجددها عصبة فاجره
من الدار منبتها والجوار ، وأقسى الجراحات من الآصره .
ملايين شعبي ، وما قدمت .. لبعث العروبة في « الناصره » ،
وفي « ميسلون » ، وفي قريتي ، و « أم الطبول » وفي « القاهره »
وفي « الاطلس » المارد المستفيق على رجة الوثبة النادره
ملايينا - يا أخي في العراق - تشد على يدك القادره ..
وتكبر فيك الشجاع .. الشجاع . وفي وجنتيك الرؤى الباهره ،
وتدعوك - في حبها للجميع - الى وقف أحقادها الفائره ..
فتأسو رمال البوادي العطاش ، جراحات توأمها الحاضره
وينشق عنها حجاب الدجى ، فتبصر قدامها الهاجره .

●

أخي !. قد وصلنا الى مطلب ، عزيز علينا .. بعيد المدى
رددنا التتار ، ومات « هولاكو » ، ولم يبق في أرضنا من عدى
فرد الينا الطموح الحبيب ، ووسع دروب العلى ، والهدى !.
طموح العزيز على أرضه ، رعايته .. حفظه سيدا .
ويؤذي شعور الكريم افتقاد المروءة في أرضه والندى .
كفى مجد آبائنا أننا ، أبينا - على الدهر - أن نستجدا ،
وأنا أقمنا .. على بابل ، نفدي حماها ، ونأبى الفدى .
أخي !. يا رفيق الشعاع بعيني !. أيرضيك أن نبلغ الوعدا ؟.
أتسمع همس السفوح العطاش ؟. وترجيعه ، في الذرا ، كالصدى ؟
تحسس دعاء الحياة الملح !. سيبقى الدعاء ، هنا ، سرمدا .
بلاد .. مع الوحي قد أشرقت . جلاها المسيح الى أحمدا ،
بلادك تحتاج كل الزنود ، فجرد لها جيلك الامردا !.
وجند لها كل أبنائها !. وقولوا : حطمنا الصنم الاوحدا !.
ستسعد أمتنا - يا أخي - اذا أدركت بكم السؤددا
ستبني مكان انطلاق الاباة الى غدها المشتهى .. معبدا
وتهزأ ، عند اجتياح الحدود ، بمن خط في الارض أو حددا

طرطوس — جميل حسن

اغنية للثورة

١ ـ النسر الجريح

النسر في بغداد يقتنص الحصى
والذروة الخضراء في أعماقه بعض الدموع
يغتالها في وحدة وثنية الميلاد .
تلتفت الذرى
الصمت مبخرة الشموع .

. . . .

الليل طال ، وموقد الاجرام يشتعل الزمان
الجيل طرز دارنا بالبيلسان .
ورفاقنا في كل بيت دمعة حرى جريحه .
أنشودة الطاغوت تحرق بيدري ،
يغتالني الجار القديم ،
تزاحم الاعصار في دربي ، وأذهلني الرصاص .
الله يمطرنا رصاص .
من القتيل ؟! شقيقي المصلوب ،
يا فجر الخلاص .

٢ ـ أم الشهيد

ـ « شدوه كالالاف فوق الاعمده ،
ودعوا الدماء تفور في صلب الحديد ،
تسح ملء الاورده ،
تجري على درب تصبي عمره من ألف جرح لاهث ،
وليبتسم ذعر الجبان .
شدوه فالامطار تغسل روحه حتى القرار .
قنديلنا ينبوع نار .
شفتاه ضاحكتان ، لا توقظه ، لا تلمس جروحه ..
ما كان أسوأه الفرار .
ما زال جيش رفاقك الاحرار ...
ينتحب الطريق
بدمائهم . يا عين أمي : نم هنيئا ، لن تفيق » .

٣ ـ الليل الاسود

الليل طال ، و « محكمات الشعب »
تفترس الحياة
ـ « يا صاحبي من ينسل العرق الوضيع ..
وبالزجاج يسدها تيك المحاجز ؟ !
أطفيء خطايانا بها ، رقد سناها ،
في زواياها انتشاء ،
عبأت أنفي برائحة المقابر » .

. . . .

« الحمر » يحتفلون بـ « الرقاع »(١)
بالبارود ، بالزرنيخ ...
وارتفعت كؤوس ،
نخب المجوس .
العرس في أم الطبول (٢) .
بغداد ، هولاكو يرود بيوتها ..
الليل مسبحة الخطاة .

٤ ـ قنابل في الفجر

الصمت يصلى .. حيرة السفاح ..
وزر المجرمين
ذعر تدفق من شقوق الغيب ، من صبح الرفاق .
الدم يورق ، أزهر الرمان في فجر البنين .
الموت والميلاد يقتتلان في أرض العراق .

. . . .

أماه ! ، صوت رفاقنا في الساح ، في بغداد ،
صوت الانبياء .
وكر الدفاع انهار . حمحمة الخيول
في خاطري . أم الطبول ـ
ثكلى .. الى المذياع يا أبتي .. أتسمع؟
ما النداء ؟
ثكلى .. أبيدوهم ، غزاة ...
ثكلى .. دم « السماك » (٣) ينشج
ثكلى .. دم « السماك » ينشج بالدموع .
يا فرحتي ! أعد البلاغ ، أكاد أمضي خلف هذا الصوت ،
أقتنص السماء .
ماذا يريد « الحمر » ؟ « أوحدهم » ومات ! !
أمي .. أكاد أرى القنابل تحطم السجن الرهيب .
من ها هنا ،
هل تذكرين صديقنا النجفي ، ذاك اللاجيء الصلب الصغير ؟
هل تذكرين حياته في بيتنا ؟
هل تنظرين ؟
اني أراه يطوف باللهب المقدس كل زاوية ودار ،
ولربما قتلوه . واشتعل الضمير
لا ! لن يموت ، واننا لنحبه ـ
سيعود كي نلقاه بعد الانتصار ..
« بأبي غريب » (٤)
لن يفلتوا ؟ فالنسر في بغداد يقتحم الذرى
وغدا نرى
ملء الجفون . توحدي يا أمتي ،
وغدا نرى ..
فالبعث فجر في العراق الخصب ينبوع الحياة .

حمص **عبد الكريم الناعم**

---

(١) حسن الرقاع أحد أبطال المد الفوضوي في العراق !

(٢) المكان الذي أعدم فيه الشهيدان الطبقجلي والحاج سري ورفاقهما .

(٣) عارف السماك عربي اغتاله رجال قاسم في الموصل علنا ، في أواخر عام ١٩٦٢ .

(٤) المكان الذي انطلق منه صوت الثورة .

صانعو الفجر

قصة يمنية بقلم محمد الزرقة

« الى الدماء العربية المتعانقة .. وهي تغسل « مأرب » العربية من بقايا العفن .. تصنع اشراقة النور للملايين العربية الزاحفة نحو فجر الوحدة والحرية والاشتراكية » م.ز.

*

المدينة تذوب في ظلام حالك .. كل شيء صامت ابدا .. أطلال صنعاء ومبانيها وأقبية المساجد قد استحالت الى جدران من الصمت.. أشجار الاثل تتمايل وتهتز على انغام عاصفة طويلة من الريح .. حول صنعاء جبال شاهقة وعيون ماء تتفجر بين الصخر الصلب فيسمع لها هدير داخل الجبل كهدير شلال ينحدر بقوة .. نهيق الحمير قد انعدم في تلك الساعة من الليل .. اقفر الطريق .. صفرت الريح .. خيم ظلام كثيف .. دب الموت في شوارع صنعاء .. في حاراتها وأزقتها .. استحالت الحياة الى مقبرة كئيبة الى ليل سرمدي لا اخر له .. لم يعد هناك سوى كلاب تتضور جوعا .. تملأ الحارات نباحا .. وبقية اصوات الزامرين عند القصر سرعان ماانتهت وسرعان مابدأ ليل صنعاء منذ السادسة .. لم يبق سوى الكلاب الجائعة التي تعوي .. الكلاب فقط .. اما الناس فقد ناموا .. وها هي « فاطمة » لم تزل مسهدة القلب مؤرقة الجفون .. جالسة في سكون مفترشة حصيرة متآكلة وبجوارها لمبة غاز صغيرة .. ترقع ثوب ابنها الصغير النائم .

حدثت فاطمة نفسها كثيرا عن صغيرها .. انه لايفكر في المستقبل يأكل .. ينام .. يأكل .. ينام .. لا شيء سوى الرتابة المملة في سلوك ابنها .. ليس طموحا كالاخرين .. لم يكن شقيا .. لم يتشاجر مع احد حتى عندما كان صغيرا يلعب مع رفاقه في الحارة كان يستمع في صمت وفي لذة الى قصة خاتم سليمان .. الى قصة بنت الجزيرة .. الى شجاعة عنترة وكان يقص ما سمع عندما يعود الى أمه كلما بدأ الليل الطويل وخيم الظلام الحالك .. كان يقص عليها تلك الاقاصيص ولكنه لم يبد رغبته يوما ان يملك الخاتم .. ان ينقذ بنت الجزيرة من براثن الجن .. ان ينقذ عبلة كما فعل عنترة .. لقد كان كل صبيان الحارة يتباهون بانهم ابطال ولطالما تشاجروا في معارك تمثيلية في الحارة ولطالما علت صيحاتهم وهم يهتفون .. عنتر بن شداد بن زبيبة ..!!

الليل يمضي وفاطمة لاتدري كيف يمضي الليل . ستظل ترفو ثياب ابنها الممزقة حتى تنتهي ثم تأخذ حظها من نعاس النائمين ابدا. وفجأة ارهفت اذنيها : هل هو الفجر ؟؟ عيد ..؟؟ طلقات تدوي .. تهز العاصمة .. نيران .. ادخنة .. وارتجفت فاطمة واهتزت وتملكها ذعر لم تألفه من قبل .. تركت الثوب وجمدت قليلا تصغي الى اصوات طلقات المدافع في رهبة .. القت نظرة جزع على الجسد الممدد امامها في استسلام يغط في راحة .. كأنه لايبالي بالدنيا .. ومدت يدها في حركة آلية نحو رأسه تقلبه .. وهي لاتزال ترهف سمعها والفزع يأكلها ..

وفتح احمد عينيه ثم مد يديه نحوهما يزيل كرى النوم منهما .. ثم قام متثائبا وهو يسألها في خمول دون ان يتبين نظرات الفزع في عينيها ..

ـ لماذا ايقظتني ياأماه .. اما كان الافضل ان تتركيني ..؟

وكأنها لم تسمع سؤاله .. بل همست والخوف باد على محياها..

ـ هل تسمع ..؟ لقد قامت القيامة ..!!

فعاد يتمدد في كسل وهو يهمس برما :

ـ اذا قامت يحلها الله !

ولكن الطلقات اشتدت .. أصوات حجارة تتداعى وبيوت تنهار .. اصوات حادة فظيعة اهتزت لها المدينة .. لم تعد عيون احمد مغمضة.. كان يشارك امه الفزع ويرهف سمعه لاصوات كأنها الرعد ولكنه فجأة وثب في سرعة ولف يديه حول عنق امه وهو يصيح في جنون :

ـ انها .. انها الثورة .. الثورة ياأماه .. لقد ..

وخلصت نفسها من يديه بسرعة ثم هوت بيدها ووجهت الى خده صفعة قوية أحسها احمد ولكنه نظر الى أمه في ألم .. صامتا دون ان ينبس ببنت شفة .. ثم سمع امه تقول له مؤنبة :

ـ لو سمعك احد تقول هذا الكلام لعدونا « دستوريين » ..

فسألها في غيظ ويده لاتزال على خده الملطوم :

ـ وهل نحن « دستوريين » ؟

فحدقت فيه برهة ولم تجبه بل اصغت الى دوي المدافع وهي تشتد واستحالت عيون القسوة التمثيلية فيها الى عينين مفزوعتين حقا ... ولكنها عادت تهمس لنفسها :

ـ انها القيامة حقا ..

فنظر اليها وتأمل عينيها القلقتين ثم قال لها معاتبا :

ـ صدقيني ياأماه انها .. لقد سمعت يوما ان ..

وكانت الكلمات تحتبس في حلقه لولا ان بادرته تسأله وهي لاتدري

ـ ماذا سمعت ..؟

ولم يجبها .. لقد بدأ فجر الملايين الحقيقي مع اصوات سكان الحارة وهم يصيحون ويهتفون ... لقد استحالت الحارة في ثوان الى بحر زاخر بالبشر .. بالحفاة .. وخيوط الفجر تتبدى خلف ضباب الليل القاتم الكئيب .. ولم يلبث ان احس بقشعريرة تملأ جسمه .. وتقمصته روح التحدي فنهض في جنون وهو يصيح وقد بدأ يرتدي جلبابه :

ـ سأخرج .. سأخرج ...

نحاولت ان تمنعه ولكنه نهرها لاول مرة في حياته حين قال باصرار:

ـ اذا كنت أمي حقا فاتركيني ..

وسرعان ماتشنجت الام المسكينة .. دفنت وجهها في أطراف جلبابه وبكت فأحس بألم عميق يجتاح قلبه ولكن العاصفة الخارجية وطلقات المدافع وهتافات الناس في الخارج جعلته لايلقي الى بكائها بالا .. اسرع نحو الباب . وبسرعة دس نفسه بين جموع الناس يتساءل في ذهول عن الحدث الحقيقي وقيل له بفرح طاغ مجنون :

ـ لقد قامت ثورة ..

ـ وقتل الملك ..

وكانت اجهزة الراديو الصغيرة تملأ الايدي .. حين بدأ الصوت الحقيقي للثورة يعلن مع الفجر :

« هنا اذاعة الجمهورية » ..

واجتاحته الغبطة مع الاخرين .. أحس بجنون دفاق يملأ اعماقه.. كان يقفز في الشارع وهو يصيح مع الاخرين :

ـ جمهورية .. جمهورية .. جمهورية ..

ولقد كان يسائل نفسه في غبطة .. وفي ذهول :

« ـ أمات الملك ..؟؟ هل صحيح ذهب اسم « المملكة » ..؟

ولكنه سرعان ماوقف عن القفز وشملته موجة من التفكير الحزين واكتسى وجهه بمسحة من الالم وهو يهمس لنفسه :

« ـ لقد ثاروا لابي اذا .. مافائدة بقائي ؟؟.. كان لابد ان أثور... قبلهم » ووجم قليلا ولكنه سرعان ماالتفت الى الجموع وهي تسبقه ... وسرعان ماابتسم في غبطة وقد لحق برفاقه من سكان الحارة وهم يسيرون ويهتفون .

* * *

دبت الحياة في المدينة الصغيرة .. ابتسمت المدينة في زهو لاول مرة وهي ترى فجرا أبيض مشرقا يبتسم امامها زهوا بصانعيه .. أولئك اهل الكهف .. السعداء دوما .. الحفاة والجياع .. والموتى .. والشحاذون وانصاف العراة وحاملو البنادق الصدئة اصحاب الذقون الكثيفة والاجساد الهزيلة .. كلهم .. كلهم يبتسمون ..

ولقد امتلأت ساحة « الصافية » خارج صنعاء بأعداد هائلة من هؤلاء ، طلقات من النيران يظل صداها يتردد طوال اليوم من جبل النصارى ومن جبل شعيب ومن نقم .. وفجأة توقف صوت النيران وصاح القائد في جنوده :

ـ ياابناء الفجر العربي .. لابد من مأرب ..

غير ان صوتا تردد بين الجموع قائلا :

ـ وان طال السفر ياسيدي القائد !

فعبس وجه القائد وارتسمت عليه علامات الضيق والتبرم وفتش بعينيه عن مصدر الصوت ولكنهما لم تقعا على غير احمد فقال القائد مؤنبا :

ـ لاتنطق « ياسيدي » ثانية .. لقد انتهى السادة ..

ومن جديد ابتسم احمد وهو يهز رأسه في سعادة كأنما ليطيع الاوامر الجدية الصارمة لاول مرة ..

* * *

قبيل الغروب .. الشمس تستعد للرحيل .. أشعتها الواهنة الضعيفة قد مالت الى الاصفرار .. والليل قد بدأ يطل من بعيد .. بدأ يتسلل الى الارض وبعد قليل كانت بقايا الاشعة الواهنة الضعيفة قد ذابت وسط لون كثيف من السواد .. وما زال معسكر الجنود في « الصافية » كخلية نحل .. طلقات مدافع وادخنة ونيران تدوي من المعسكر .. ماعرفت الارض تلك الخطوات الجبارة تهز المدينة كلها لاول مرة .. من قبل كانت خطوات الجنود أشبه بزحف الافاعي ... لاشيء هز الارض ولربما كانت الحجارة اقوى من ان تهزها تلك الاقدام الجليدية الحافية .. بات المعسكر ليلتها حارسا للفجر .. مأاحس احمد بنشوة تملاءعماقه .. قشعريرة من الفخر تسري في جسده .. انتفاضة الكبرياء وهو يفترش الرمال بكل جسده يضغط على الزناد .. قبل قليل كان يغمض عينيه عندما يضغط .. ولكنه ضغط وضغط وألف حركة مؤخرة البندقية وهي تلكز كتفه عقب كل طلقة .. لقد انتقل الى المدفع .. ود ان يرقص على صوت الرصاص .. ود لو زحف المعسكر توا الى مأرب .. هل يعقل ان يكون هناك من يخذل الثورة ..؟؟ مأرب العظيمة الباسلة .. تقاوم الثورة .. مأرب اسطورة التاريخ .. شيء لايصدق .. ولكنه كان شيئا واقعا .. كان شيئا حقيقيا ان تجد الثورة مقاومة من بشر نأت عنهم الحياة وحاد عنهم النور حتى هدموا المعابد يوما تحت تأثير الظلام وألفوا مر الواقع وقاسوا الخير والشر على أساس الواقع الموجود .. لم يعرفوا يوما الفاظ « القرن العشرين » .. و « الصاروخ » و « العدل » ولكنهم حافظوا على عادة تشربوها وسرعان ماكانت الاقدام الحافية تتلاصق في نظام كان هو النظام الوحيد الذي اعتادوه .. عندما يحين موعد الهتاف الابدي السرمدي الذي تعلموه يوما بعد يوم .. عندما تهتز المقارع الخشبية الطويلة وتهوي على الطبول الكبيرة .. تتحرك الافواه الحافية والذقون الكثيفة وتهتز الحناجر ويدوي بين المعابد صوت واحد يهز مدينة الصمت والتاريخ كل يوم ساعة الغروب .. « الله يحفظ الامام » .. كلهم .. كلهم حفظوا شعار العبودية والذل واصبح مستحيلا ان يقنعوا بان هناك ماهو غير الامام وغير القصر وغير كل شيء .. ولكن العقول المهترئة قد الفت الحياة الحجرية ..

كان احمد يفكر في كل هذا مأخوذا غير مصدق رفض القبائل للثورة ولكنه تنبه على صوت القائد وهو يصيح ..

ـ استقامة .. انتباه ..

لقد تقمصتهم الروح العسكرية الجديدة وأحسوا بالفخار يتقمص أعماقهم .. حراس الوطن .. والفجر .. أعداء للظلام .. لليل ..

لقد بدأت اصوات تعلو .. تهتف .. امتلأ سور صنعاء بحشد هائل من الصبيان والنساء .. ظن احمد انهم يرقبون المعسكر .. يشهدون مولد الابطال .. ولكنه سخر من نفسه ان يظن بهم الفراغ في هذه اللحظات .. وخطر له نفس الخاطر الذي جعله ينظر الى القائد.. يخفق صدره في شدة .. وسأل نفسه في همس ..

« هل أتى الشياطين .. الجهلاء » ؟؟

ولقد رسم صورة للمعركة وظلت مخيلته ترسم ضبابا من النيران والرصاص والدخان ولكن صوت القائد عاد يصيح من جديد ..

ـ سنزحف غدا عند الفجر .. لن نكون وحدنا .. ولكن تذكروا جميعا ان لابد من مأرب ..

وصاح اول القادمين وهو يركض مسرعا فوق الرمال يصهرها تحت الحذاء القاسي رافعا ذراعيه وبأحدهما مدفع رشاش صغير ..

ـ وان طال الليل .. أيها القائد ..

والتفت القائد فجأة الى مصدر الصوت .. وسرعان مافتح القائد ذراعيه وتلقف اول القادمين بقبلة جياشة طبعها على خد زميله القائد الاخر القادم من بعيد ..

ولقد تعانقوا جميعا دون حاجة الى تبادل الاسماء .. لقد كانوا اخوة منذ بدء الخليقة ..

* * *

ادركوا انف الجبل عند الفجر .. كانت العربات الصفراء تنهش الطريق تشق طريقها بين مروج الدرجات الجبلية الخضراء .. كانت ضياء الفجر الشهباء تبدد ظلمات الطريق .. أشجار السنديان على مشارف الجبل لاتزال في احضانه سوداء كالاشباح .. عيون الماء بين الصخور لاتزال تهدر كهدير الشلال .. لم تجف بعد .. لقد ملأوا زمازمهم منها ثم عادوا يثبون على العربات .. أبطالا .. يحدقون في الفجر .. يتنسمون نسيما صافيا .. يحسون بدغدغة باردة تنعش اجسادهم .. وبدا الظلام يرحل وعبرت السماء اول اسراب السمان تداعب موكب النور .. وبدأت اشعة الشمس الاولى تطل من فوق الهضبة في حياء كعذراء صغيرة .. وكانوا يسيرون في صمت .. في رؤوسهم الف الف خطة للساعات والايام المقبلة .. ولقد كان احمد يحدق في الافق .. في السماء الزرقاء تعبرها الطيور في وداعة خليقة بان تكون صورة للحياة المقبلة .. ولكن احمد التفت فجأة الى الجالس امامه وابتسم وسأله في رقة ..

– من أي بلدة يا أخ .؟

وقال الجالس امامه وقد ابتسم بدوره .

– من المنصورة ..

فقال احمد ضاحكا :

– أوه .. لويس الفرنساوي .. انك تذكرني

فقال اخر اراد ان يشترك في الحديث

– نعم .. ودار ابن لقمان ..

فأجاب صوت من بعيد

– ولهذا سنعمل اول دار لقمانية مشتركة

وأكمل صوت اخر ضاحكا :

– بل ثلاثة دور لقمانية

وفجأة صاح القائد وقد وقفت العربات خلف التل الصغير

– استعداد ..

وقفزوا جميعا من العربات ثم اصطفوا في طوابير منظمة وسرعان ماانتشروا في السفح مجموعات صغيرة ينصبون الخيام الصغيرة خلف الصخور الكبيرة . يعدون معسكرا يكون مركزا لتموين الزاحفين نحو الجبل الاخر حيث فلول العدو والعفن تتخفى وراء الكهوف .. لقد كان امامهم ان يقطعوا الوادي الكبير ليصيروا وجها لوجه امام فلول الهزيمة.

وقال القائد وقد ارتسمت على وجهه علامات الصرامة والجدية :

– لقد بدأنا المعركة .. استعدوا جميعا .. لم يعد امامنا سوى هذه المساحة الصغيرة من الرمال .. موعدنا عند الظلام ..

ثم نظر القائد الى الجبل واستدرك قائلا :

– ولا بد من تناوب الحراسة باحكام .. غير ان القمة بحاجة الى حراس ثم وقف برهة وحدق في الجنود قليلا ثم تساءل :

– من منكم يريد الصعود الى القمة ..؟

وارتفعت ايديهم جميعا .. ولكن القائد سرعان ماحسم الموقف قائلا :

– سأختار الاسم الاول من كل فرقة .. واخرج من جيبه أسماء الفرق ثم اختار الاسم الاول وبقية الاسماء ..

– عدنان المنصوري .. سعيد اليريمسي..احمد الروضي .. صالح الشمندي قناوي ..

وتقدم الاربعة من بين الصفوف ووقفوا في ثبات وتصلب امام القائد الذي صافحهم بسرعة سرعان ما استداروا في خطوات عسكرية بعد ان ادوا التحية للقائد والجنود .. ثم اتجهوا نحو السفح يصعدون الجبل الشاهق الاخضر يتقدمهم احمد .. لقد كانت تلك اول مرة لعدنان وصالح ان يصعدا جبلا يحتضن الف كهف في اعماقه .. مشحونا بالكبرياء .. مليئا بالصخور .. لقد كانت الانفاس تلهث وقد احتضنهم الجبل .. كان عدنان يحدق ذاهلا في اشجار السنديان ويصغي الى صوت الينابيع المتحدرة من عيون الماء وكان كلشيء قد عاد الى الصمت وانقطعت عنهم اصوات زملائهم تحت الجبل ولم يخطر ببال احمد الا انه يصعد الجبل ولسوف يقضي وقتا على القمة مع الزملاء الجدد .. وفيما هم يقفون .. يتطلعون الى القمة بانفاس لاهثة دوت اول رصاصة تجاوب صداها في الوادي المليء بالرمال الصفراء .. في الهضبة البعيدة المقابلة ..

وتدحرجت جثة احمد تاركة بضع نقاط من الدم تلون الحصى المنتثر على الجبل ..

وهمس عدنان وهو يفتش حوله في ذعر وقد صوب رشاشه نحو مصدر الصوت وقال لزميليه بسرعة :

– اختبئوا بسرعة خلف الصخر ..

ثم هبط قليلا الى حيث جثة احمد .. كانت قطرات الدم قد ملأت ثيابه الصفراء الجديدة .. وبرك عدنان يتفحص احمد فوجده شاخصا اليه يحشرج .. لقد اخترقت صدره اول رصاصات العفن ..

وقال احمد في أنة ضعيفة :

– احترس يأخي .. لسوف ترى الغدر بكل أهواله ..

وهمس عدنان في ذهول :

– الاعمار بيد الله ..

وشهق احمد وأنفاسه تتصاعد .. ونظر الى عدنان من خلال عينيه اللتين بدأت حلقاتهما في الاتساع .. وأن أنه ضعيفة ثم قال:

– أرجوك يأخي .. سلامي لامي .. سلامي للقاهرة ..

فقال عدنان منفعلا وهو لايصدق عينيه :

– لاتخف .. سنحرس صنعاء .. والقاهرة ..

ثم القى نظرة الى احمد فوجد روحه قد صعدت الى السماء .. ومسح اول دمعة تحدرت ثم انحنى ويده قابضة على رشاشه الصغير وأودع جبين احمد قبلة حارة .. وحمله الى حيث وضعه خلف صخرة ثم عاد يتصعد الجبل من جديد .. وجاشت اعماق عدنان وطافت بها الذكريات كوميض برق سريع .. تذكر بلدته الصغيرة في المنصورة .. بينه وبين « سمنود » مئات من الذكريات .. على الترعة وحقول القطن وأشجار البرتقال والنخيل يظلل الطريق .. وكان يمشي يدوس على الصخر بقدمين بدأ فيهما الخوف يدب .. يتسرب الى اعماقه ولكنه سرعان ماعاد الى نفسه مؤنبا تلك الومضات من الخوف التي اجتاحته بعد مصرع احمد .. ببصره الى السفح والوادي المليء بكثبان الرمال الصفراء والتلال البعيدة .. ثم القى نظرة بعيدة الى منحدر الجبل وساورته الاسارير وهو يرى مخيما لزملائه ليس ببعيد .. وسرعان ماوجد نفسه يهمس ببضع كلمات جاشت في اعماقه :

– « نحن هنا .. نخطو .. كأننا رجل

« الى الامام ..

« أقدامنا مع الكلام

« تدنو من القلعة في أعلى الجبل »..

وفجأة دوت من جديد طلقة بندقية طاشت رصاصتها من جانبه .. ووجد نفسه يتلفت في ذعر ويضغط على أسنانه بغيظ مقهور وسرعان ماراى ظلا لرجل يتوارى خلف صخرة كبيرة فتمدد عدنان ثم صار يزحف ببطء غير آبه بالنباتات الشوكية تخترق ثيابه الصفراء الفاقعة حتى اذا ماصار وراء الغدر فتح رشاشه ضاغطا على الزناد بكل اصرار وأفرغ الرصاص في الجسد المتعفن حتى مزقه أشلاء متناثرة .. ثم سرعان ماسمع وقع أقدام تتصعد الجبل وأحس بالانفاس اللاهثة تقترب منه فأحكم وضع نفسه وتوارى خلف الصخور وصوب فوهة الرشاش نحو الاقدام القادمة ولكنه عاد فأرخى يديه على الرشاش عندما تبين انهم لم يكونوا سوى رفاقه .. ابتسم لهم ثم سرعان ماقص عليهم قصة احمد وقصة الغدر وسرعان ماانتشروا حول الصخور وكهوف الجبل يفتشون عن الغدر الكامن في أول جبل ..

ولقد ظلت القلاع تتجاوب أياما وتناثر الرصاص وتجاوبت الاصداء في كل الهضاب والمنحدرات الجبلية .. وأصبحت كل الوديان المحصورة بين الجبال ارضا من رماد ..

لقد ألف عدنان حياة الجبل واعتاد الضغط على الزناد من المكامن الصخرية وتمرس بطبيعة الغدر المختبىء في الكهوف .. ولقد احب يوما تلك الراعية الصغيرة ذات العيون الزرقاء واللون الخمري .. اجل .. لقد وجدها يوما وهم يتابعون السير نحو مأرب ـ ترعى قطيعا من غنم وانه ليذكر ذلك اليوم بكل تفاصيله .. عندما سمع أصوات الغنم تثغو ..

ولقد سرت في جسده قشعريرة احساس جديد بالبطولة .. لقد تحدى الرمال في سيناء وواجه رصاص الغدر في السويس ولكن الامر كان يختلف هنا .. أعداء كالافاعي .. كالاشباح .. خلف الصخور .. انه لن ينسى قصة احمد .. البطل .. لقد اطلقوا اسمه على ذلك الجبل بكل ينابيعه وأشجاره وأعشابه .. بسفحه وتله وهضابه المتعرجة ..

ولقد استطاع ذلك اليوم الذي التقى فيه بالحسناء الصغيرة راعية الغنم ان يكسب قلبها الفطري .. وان ينقذها من براثن الرصاص الغادر المنطلق من الكهوف الجبلية ..

وبعد شهور من الحروب الضارية في جبال القسوة والتحدي والغدر كان عدنان واليريمسي وبقية الرفاق يطلون على أنف الجبل الاخر .. يرمقون مدينة الصمت والاعمدة التاريخية بنظرات الاعجاب..

وجلس عدنان مستندا الى احد اعمدة معبد بلقيس .. وجاشت ضلوعه بأشواق الحنين الى الجبل .. الى الراعية الصغيرة وقطيع الغنم ولكنه عاد يتذكر وصية احمد ..

« سلامي الى أمي .. الى القاهرة »

ولقد أتى القائد وصاح في الجنود :

ـ استعداد .. انتباه ..

واندفعوا صفا واحدا يتلاصقون ومن خلفهم الاعمدة التاريخية. وكانت اشعة الفجر الاشهب تغمرهم بأشعة فضية وعندما اتجهوا نحو الحدود يسدونها ويشيعون رمال العفن الصامت بنظرات التحدي المشحونة بالكبرياء العربي الصارم اندفعوا يرددون جميعا في نشوة :

« نحن هنا .. وفي عيوننا الوطن
« وجوه أباء وذكرى .. وزمن
« وفي صدورنا امانة اغترابنا هنا
« نرخص في سبيلها الروح وزهق البدن
« فان حيينا توج النصر العظيم عمرنا
« وان فنينا .. فاذكرونا .. اننا أغلى ثمن »

ولم ينس عدنان ان يرسل عبر الريح .. أشواق احمد الى القاهرة ..

محمد الزرقة

رمضان نار ...

رمضان نار ..
زحف اللهيب على العراق
وتوقدت نذر النهار ..
وأفاق عالمنا على فجر انطلاق
وسلاحنا نفض الغبار ..
الثورة الكبرى يشب سعيرها في كل دار
والثأر نشوان .. غزير الانعتاق
بشرى لتموز العظيم ..
رمضان بارود ، ودم ..
الافق صاعقة ، وقصف ، وانفجار
الويل للمتألهين ، وللاكاسرة الصغار
الشعب ثار على الصنم ..
الويل للمتسلطين .. الضاربين مع الظلام
الخنع المتشدقين مع الضفادع والكلاب
من كل منحرف .. ومنجرف ، ومغرور أثيم
الويل من غضب البنادق والحراب ..
ويل الشعوبيين من يوم الحساب ..
قد مات هولاكو ، ومزق شمل غوغاء التتار .

***

بشرى لتموز العظيم ، ومرحبا بالثورتين
الشمس أنجبت المحرر فوق أرض الرافدين
ليعيد حق النور والامل السعيد لكل عين
حق الملايين التي ناءت بأثقال الزمان
سعرت قيود الغدر فوقهم ، وعربدت السياط
حق الدم المهدور .. في دار السلام ..
بغداد .. يا حلما تحقق في شباط ..
ظفرا تضمخ بالاريج ..
بنسيمه انتشت الصدور من المحيط الى الخليج
بغداد .. يا زحف العروبة للامام ،
للوحدة الكبرى على درب المحبة والوئام
لا تذكري عهدا تعثر لم يقر له قرار
لا تذكري المتفردين الحاكمين بأمرهم
وبأمر شيطان أصم ..
ساروا على طرق الضلال من انزلاق لانزلاق
ان لطخوا بالعار دجلة والفرات ،
فالطهر في رمضان يضرم بالصيام وبالصلاة
رمضان يمسح كل عار ..
النار في رمضان تمحو السيئات .

***

بغداد تنتظر الصحاب ..
برزوا على حمم المدافع .. يهزجون ..
وعلى لظى الميدان طاب لهم عناق ،
وعلى سلاح النصر تبتسم الدموع ..
وبوابل الطلقات تنتفض المواسم بالربيع .
رمضان يرفع راية الفتح المبين
ويعيد تموز المجيد ..
قد هب في بغداد اعصار جديد ..
رمضان يسحق كل أفاك لئيم ،
ويفجر البركان .. في وكر الخيانة والخداع ،
ويدك أوزار الدفاع ..
بغداد تزحف بالقنابل والمشاعل والنشيد
بغداد تنتزع الكرامة من حماقات العبيد
بغداد عرس .. وانتصار ..

***

مرحى لابطال العروبة في العراق الخالد
مرحى لفرسان الطايعة والشباب الصاعد
وتحية للواثبين على الفساد البائد ..
الاوفياء الصامدين مع النضال الصامد
بشرى لتموز الكريم ..
رمضان يعصف بالزعامة والزعيم ..
رمضان يمحق كل مغتصب زنيم ..
رمضان .. أكرم من كريم .

***

بغداد نار
سقط الطغاة مع السلاسل والجدار ،
وأضاء في أفق العروبة كوكب حر المدار
بيديه ألوية كبار ..
مرحى لامتنا التي لم تعط رايتها لعاق ،
ومضت بركب الثائرين ..
مرحى لامتنا التي داست على المتآمرين ..
الوالغين دم الشعوب ، الحاقدين على الضياء
ظنوا اصابعهم تغطي الشمس أو تحمي الهواء ..
أخذوا بناصية البلاد الى التمزق والضياع ..
فأبادهم في ساحة التحرير جيش من شعاع ..
مرحى لامتنا التي هدمت حصون المجرمين ،
وأقامت المجد التليد ..
جسرا على جثث الفدائيين والمتقدمين
وليزحف الاحرار ..
والنصر للثوار .

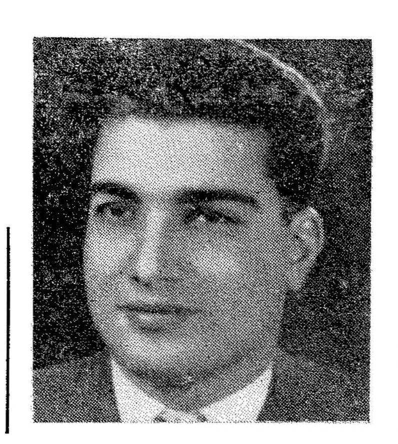
الكويت — **صبحي سلامة**

الصَّمت

لا تصمتي ..
الصمت يفضح العيون ..
يشعل الظنون ..
يهدم الجدار بين عاريين ..
عيناه تكشفان وجهي الحزين
وتبصران في المدى .. دروب لوعتي
حديثك العقيم يا ثلجية العيون
يا طالما نسجت من حروفه رداء
لأتقي عيون الناس .. لحظة السكون بين واجفين
وهما حسبناه يذيب قبضة الشتاء
وينفض الحياة في عروقنا ..
يا طالما كتمت خلفه أساي ..
لان طعمه المرير في حلوقنا ..
لان جرحا فيٍّ ما يزال ..
أحذر أن تلمسه الاكف والعيون
وقد تسيل من فمي حكاية عجوز ..
وقد أقول ما يقول الناس ساعة ويلغطون
شيئا غريبا .. شائها ..
يفصلنا .. كأنه جدار ..
يسترنا .. كأنه ازار ..
يقتات من الظلام من دمائنا
ويستحي أن يطلع النهار
تضمه يداك .. تحسبانه كنوز !
لكنني أقسم لك ..
بكل لفظ لم أقله ، لو أقوله لكان سجني الكبير :
ــ لان في الفاظنا .. مكامن الاعداء ــ
الصوت ليس صوتي القديم
ولا الحديث بهجتي وسلوتي ..
ولا الذي قلناه نم عن غرامنا الدفين
محض اشتهاء كان يومها .. محض اشتهاء
وقد صحوت بعدها ..
وانهار وهمي العظيم .!

***

صديقنا الحزين .. يتقي العيون بالسؤال
يلقيه في وجوهنا ..
يفجؤنا ..
يطير من رؤوسنا الملال :
« ماذا لو احتضنت وجهها الصغير في يدي ؟!
مسحت بالعينين مرة على الجبين ..
نفضت من طريقنا المحال ..
لو استدرت في الطريق .. ها هنا ... وصحت في الجموع



بأنني لمستها ..
قبلتها ..
أسمعتها لواعج الشجون .. »
وبللت حديثه الدموع ..
يا صاحبي .. يا صاحبي الحزين ..
الصمت في الطريق قيَّد الشفاه والعيون ..
تصدنا الاحزان والجدران والسكون
وكل شيء واجف .. كأنه يموت ..
حتى غرامنا .. صموت ..

***

الصمت ظلي الخجول .. كم أحسه وراء خطوتي
هذا الفضولي الذي تشوقه حكايتي ..
أهرب من عينيه .. من ظلاله على الطريق
لانه هنا .. لانه هناك ..
أراه في الاحزان والاشواق .. في استدارة الشروق
في كل ما تنطقه الشفاه والعيون ..
ممددا .. بلا حراك ..
من طول ما مل حديثنا العتيق ..
وصوتنا الذي تنوشه الظنون ..
كأنه جنون ...

. . . .

الصمت منطق الحياة في زماننا ..
لان كل شيء في شفاهنا نباح ..
الصمت مجدنا .. وعارنا ...
صمودنا الجليل .. وانكسارنا ..
لان بيننا .. الذي قضى ..
وبيننا الذي أصاب .. فاستراح
الصمت مهما طال تيهنا .. ملاذنا ..
لاننا مغللون بالجراح ..
الصمت يأسنا الكبير .. وانتصارنا
لان شيئا قادما .. كأنه صباح !

القاهرة — **فاروق شوشة**

لغة الحوار

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٩ ـ

الخاصة « الصعيدي بلغة الصعيدي ، والبحراوي بلغة بحري مثلا »، والا جاءت المسرحية خليطا غير مفهوم وانما يلجأ الكتاب الى مثل هذا القصد يعمدون اليه ، وبطريقة عرضية . وانما المقصود بواقعية اللغة ملاءمتها لشخصيات الرواية ، فهي الواقعية النفسية والعقلية والعاطفية فلا يتحدث امي بافكار الفلاسفة ، واما الواقعية اللفظيةفليست بمقصودة في التاليف المسرحي او التاليف الادبي الذي لا يخرج من ان يكون فنا ـ وكل فن صناعة . وليست الواقعية اللفظية بالتي تعطي الحوار قوة مشاكلته للحياة ، وانما تأتي هذه القوة من الواقعية الانسانية قبل كل شيء » (٤٠) .

أما اليوم فان الدكتور مندور يرى :

« قدرة اللغة العامية الحية على التعبير احيانا عن ظلال من المعاني والاحاسيس التي قد لا تستطيع الفصحى التعبير عنها بنفس الدقة والايجاز . ومن المؤكد ان الاحساس بهذه الحقيقة هو الذي يدفع كثيرا من الادباء الى تفضيل العامية في كتابة بعض انواع المسرحيات ، بل وفي كتابة الاجزاء الحوارية بين الشخصيات الشعبية في كثير من القصص الطويلة والقصيرة على السواء » (٤١).

كما يعبر الدكتور عبد القادر القط عن رأي مشابه فيقول :

« وحرص الكتاب على تصوير الواقع تصويرا دقيقا صادقا فلجأوا الى الحوار العامي حين يكون لشخصيات القصة اسلوب من التعبير في الحياة يعين القارىء على استحضار صورهم المادية والنفسية في سرعة ويسر. ونستطيع ان نجد كثيرا من نماذج ذلك الحوار في اعمال مبكرة مثل اعمال ديكنز وغيره من كتاب القرن التاسع عشر » (٤٢).

أما المدرسة النقدية التي تولي الشكل اهتماما اكبر وتدرس العمل الادبي من داخله ، فتعتبر هذا الشرط مفروضا على العمل الادبي من خارجه ، لا يختلف عن النظر اليه على اساس اجتماعي او نفسي او تاريخي .. الخ . والصحيح ان ننظر الى العمل الفني ككل اولا ، وينصب نقدنا على لغته طبقا لمدى ما حققه من فنية لهذا العمل سواء أكانت الفصحى ام احدى لهجاتها . فالحكم الاخير على العمل الادبي بالاجابة على هذا السؤال : هل هو فن أو لا فن ... ؟

وقد اثبت الزمن ان اعمالا ادبية لم تلتزم الفصحى في اسلوبها ، كالملاحم والسير الشعبية قد بقيت في تاريخنا الادبي جنبا الى جنب مع الاعمال الادبية التي التزمت الفصحى ، وان « الاصلح » الذي يقي هو الاصلح فنيا بغض النظر عن اللغة المستخدمة ، كما ان الرديء أيا كانت لغته قد اندثر ، وان مصدر الرداءة كان احيانا التطرف في الاهتمام بفصاحة اللغة لذاتها على حساب المضمون ، تماما كما كان مصدر الرداءة في احيان اخرى هو ركاكة اللغة ركاكة جنت على المضمون . بل ـ على حد قول توفيق الحكيم ـ لم يكن :

« ظهور الادب الشعبي احيانا الا علامة قصور أو تقصير من الادب الرسمي ، او صرخة احتجاج على جمود الفصحاء ... ومن الغريب انك اذا تأملت التصميم الفذ والبناء الروائي لهذا الادب الشعبي وجدته من حيث الفن لا اللغة هو السائر في الطريق الصحيح ... فقد تخلى الخاصة عن بعض هذه المهمة لعامة ادباء الشعب وشعرائه ووقفوا بعيدين عن كل تفيير وابتكار » (٤٣)

ونحن :

« اذا اردنا ان نبحث عن فن ادبي يعد في ذاته خلقا انشائيا فنيا لما وجدنا شيئا يضارع الادب الشعبي فهذه الاثار على الرغم من انعدام الروعة اللغوية فيها وضياع الجانب الشكلي قد استطاعت ان تؤثر بمجرد فنها » (٤٤) .

كذلك فان روايات مثل « زينب » لمحمد حسين هيكل ، « وعودة الروح » و « يوميات نائب في الارياف » وكثير من تمثيليات مسرح المجتمع لتوفيق الحكيم ، والمقامات ليوسف السباعي (٤٥) والارض لعبد الرحمن الشرقاوي ، والجبل لفتحي غانم ، والباب المفتوح للطيفة الزيات هي اعمال فنية لاينكر احد دورها التاريخي ـ على الاقل ـ للفن الروائي في ادبنا العربي ، وقد كتب كل حوارها بالعامية ، ولو طبق عليها شرط الحوار الفصيح لتم الحكم على اغلبها بالاعدام والغيت فجأة من تاريخنا الادبي .

وقد كتب الاستاذ يوسف السباعي تعليقا على هذه القضية عندما اثيرت في العام الماضي فقال :

« العمل الفني ... ومن بينه الانتاج الادبي .. عمل متكامل لا يمكن تجزئة مقوماته .. والحكم عليها كأجزاء منفصلة .. فنحن لا نستطيع ان نفصل لغته واسلوبه وفكرته ، لكي نقوم كلا منها على حده ، لان العمل الفني ناتج عن اندماج هذه العناصر وتفاعلها معا ، ونحن نظلم العمل الفني اذا حاولنا ان نرى كل عنصر من عناصر تكوينه على حده . ان العمل الفي يجب ان تقاس عناصره بحكم وجودها فيه .. لا بحكم وجودها في تسجلاتنا » (٤٦).

كما اعلن الاستاذ توفيق الحكيم قائلا :

« رأيي في لغة المسرح هو ان يراعي المؤلف الجود الفني للمسرحية، وهذا متروك لذوقه الادبي وغريزته الفنية والفنان يجب ان يكون حرا في اختيار اللغة التي يحتاج اليها في التصوير والتعبير . واختيار الفصحى او العامية مرهوناحيانا بموضوع المسرحية ، ومضمون الفكرة او الصورة. فهناك موضوعات وافكار وصور لا يمكن ابرازها والتعبير عنها الا باستخدام الفصحى . كما ان هناك صورا خاصة لا يتم تلوينها الا باستعمال العامية المناسبة لها . ولا احب ان احدد هنا تحديدا شاملا سريعا فاقول مثلا ان الروايات العربية الموضوعة او التاريخية او الاجنبية او الفكرية يجب ان تكون بالفصحى ، وانالروايات المصرية المحلية يجب ان تكتب بالعامية ، ففي بعض الإحيان نجد من الروايات المصرية المحلية ما يحتاج في تصويره وافكاره ومراميه الى الفصحى . وفي الروايات المصرية ما يتم ابراز فكاهاته مثلا ونوادره الطريفة بالعامية . فالتحديد يوقعنا في الخطأ . ولا يجب ان نحدد للفنان ، لان التحديد تقييد. والفن هو الحرية . المسألة اذن متروكة جملة وتفصيلا الى الذوق الفني عند الفنان وهو قلما يخطىء اذا كان فنانا اصيلا » (٤٧) .

كذلك يقول الاستاذ محمود تيمور :

« ان الكاتب المسرحي يخطر بباله ـ اول وهلة ـ ان روايته للتمثيل على المسرح ، وانه سيخاطب الجمهور على تباين طبقاته ، فحتم عليه ان يطرق الاذان بما ألفت من لغة، ويجلو للعيون ما عرفت من مشاهد، حتى يأخذ عمله الفني سبيله الى اعماق القلوب ، لا ترده وحشة، ولا تعوقه غرابة . فان تخللت روايته كلمات يتعذر فهمها على النظارة في الجملة ، كانت الصلة بينهم وبين الممثلين غير مأمونة الانقطاع. ومتى انقطعت الصلة ذهب التأثير وضاعت الفائدة المرجوة من الادب المسرحي.

وان دور التمثيل لهي في الحق مجالات للمتعة الذهنية ، واللهو البريء ، وان كانت مع هذا تحمل رسالة تهذيبية في مغزاها ، ومن حسن الكياسة الا يكدر الكاتب المسرحي صفاء تلك المتعة ، ورقة ذلك اللهو بان

يقدم للجمهور شيئا يستغلق عليهم فهمه ، وتخفى معانيه ..

يضاف الى هذا ان المسرحية عرض لحادثة مستخلصة من لب الحياة ، اما عاطفية ، واما نفسية ، واما اجتماعية ، ولكي يصل الكاتب الى الاقناع والتأثير ، يجب عليه ان يحرص في عرض موضوعه على السرعة في التصوير ، ولن يتم له ذلك الا بأن ينطق الاشخاص بلغتهم، التي تمثل ما لهم من سمات وخصائص . فهو جدير بأن يجعل الصدارة للمعنى حتى يصل توا الى الافهام ، فعليه أن يعبر عنه من اقرب الطرق واضمنها ، أي باللغة التي تكون أكثر سدادا في بلوغ الهدف المقصود.

ورب سائل يقول : وهل تعجز الفصحى عن التعبير الناصع في الموضوع الذي يتناوله كاتب المسرحية ؟ والجواب انها لا تعجز ابدا، ولكنها لغة الكتابة لا لغة الحديث فهي ـ بهذه الصفة ـ لا تستطيع ان تبلغ رسالة المسرحية الى اشتات الطبقات .

ومن الامثلة التي تؤيد قولنا ، في وجوب كتابة المسرحية بلغة العامة ما نراه في المسرحيات الانجليزية . فعلى الرغم من تقارب لغة الكتابة والحديث هناك ، لا تخلو المسرحية من عبارات ، تكاد تخلو منها الروايات القصصية والكتب الادبية ، وما ذلك الا لان المسرحية تتناول كل ما هو دائر بين الناس من الالفاظ .

وثمة عامل نفسي ، لعله كان اولى بالتقديم والابتداء ، ذلك ان المسرحية تقوم على الحوار ، فهو كيانها العام . ونحن في مصر يتحدث بعضنا الى بعض بالعامية ، فتعودت اذاننا هذه اللغة ، واستساغت لهجتها ، فهي مسموع الجمهور في كل مكان ، وهي لذلك وثيقة الارتباط بحياتنا المصرية . فمتى شاهد المصري مسرحية بالحوار العامي ، فانه يستمع الى اللغة التي استقرت في اعماق نفسه ، وتحببت اليه، واستعذبتها مسامعه ... وليس من حق انصار الفصيح ان يتخوفوا من كتابة المسرحيات بلغة الشعب ، فان ذلك لا يضر بالفصحى ، ولا يعوق خطاها . فأمامها ميادين الادب والثقافة شتى متراحبة . وتلك هي الازجال والاغاني تصابحنا وتماسينا بالعامية المحضة ، لم تقف عقبة في سبيل الفصحى ولم تلحق بها أي ضير . ولتطمئن الفصحى الى ان العامية وليدتها وربيبتها التي تحرص دائما على الاتصال بأمها الرؤوم.

ومهما يكن من أمر ، فان فرض اتجاه لغوي على الكاتب المسرحي ضرب من التعسف والعنت ، وفيه مع ذلك حد من حريته في اختيار أبين الوسائل للترجمة عما يريد الترجمة عنه من الاغراض ، وفي سلوك أيسر السبيل الى قلوب الجماهير التي يكتب لها ... واللغة ـ في اول الامر واخره ـ ما هي الا اداة مجردة للتعبير » (٤٨) .

ثم يقول محمود تيمور انه يقصر الحوار العامي على المسرحيات التي كتبت لتمثل لا لتقرأ ، بل ومن بين هذا اللون التي تصطبغ باللون المحلي ، اما المسرحية المترجمة او التاريخية ، فكلتاهما جديرة أن تصاغ بالفصحى .

١١ ـ ويمكن لانصار الفصحى ان يردوا على ذلك كله على اساس ان الكلمة المنشورة ، مذاعة او مكتوبة ـ اوسع تداولا في لغتنا العربية ، من البيئة المحلية حيث يرتبط الحوار بأرضية لغوية مشتركة ـ زمانيا ومكانيا ـ وبالنسبة للمؤلف وشخصيات عمله الادبي وقارئه على السواء ، ولكن بمجرد تداول العمل الادبي في بيئة عربية تختلف عن بيئة الكاتب ، تتعطل بعض وظائف الحوار التي تبرر استخدام العامية فيه ، وكما اننا حين نقرا العمل الادبي المترجم لا نطالب شخصياته ان تتكلم بلهجة لا يرتبط القارىء العربي ببيئتها الاصلية ، كذلك فان هذا القارىء العربي في العراق او سوريا او المغرب او السودان حين يقرا عملا ادبيا لاديب مصري فانه

لا يطالب الشخصيات ان تتكلم بلهجات لا يرتبط وعيه ببيئتها الاصلية .

ان الحوار العامي هنا لا تتعطل وظائفه الفنية ، بل تتعطل كل وظائفه التيتبرر وجوده اذا لم يستطع القاريء ان يفهمه ويتابعه مما يهدد بتعطل الوظيفةالفنية للعمل.

ان الحوار بالفصحى بالنسبة لهذا القاريء العربي قد يشبه الحوار المترجم ، اذ تتعطل بعض وظائفه الفنية « وهذااحد اسباب عدم استمتاعنا بقراءة الادب المترجم كما نستمتع بقراءته في لغته الاصلية » لكنه ينقذ العمل الادبي كله من خطورة عدم الفهم ، فهذه الوظائف الفنية ليست غاية في ذاتها ، انما هي وسيلة فنية لكي يصل العمل الادبي ، الى الاخرين ، فاذا كانت سببا في تضييق دائرة هؤلاء الاخرين ، فلا بد من اعادة النظر في قيمتها الفنية .

والاحتجاج بان العرب في كل مكان يفهمون لهجة القاهرة ويحبونها (٤٩) احتجاج ضعيف لاننا بصدد الحديث عن قواعد عامة بالنسبة لكل الكتاب العرب ، فهل يباح الحوار العامي للكاتب في مصر لان لهجته القاهرية مفهومة ولا يباح للكاتب في دول عربية اخرى لم تكن للهجة بلاده حظ الذيوع مثل لهجة القاهرة؟ اننا اذا اردنا ان نعمم المبدأ نجد الحجة أضعف من ان تثبت .

١٢ — وقد عبر سلامةموسىعن هذا التعارض بين لغة الحوار التي يرى استخدامها فنيا ولغة الحوار التي يرى استخدامها لاسباب قومية ، وراى انه لا بد ان يضحي باحدهما فهو يقول :

« انا لا انكر غرابة الحديث بالفصحى على المسرح او السينما ولكننا نستطيع ان نضحي بذلك لمصلحة الوحدة القومية بين الشعوب العربية ، لستانكر ان في ذلك تضحية ، ولكن الحلم الاكبر الذي نحلمه هو ايجاد دولة قوية ينهبها الان الاستعمار ... هذا الحلم يستحق ان نضحي من اجله باللهجات وبشيء من الفولكلور الاقليمي » (٥٠)

ومعنى هذا ان كاتب الحوار في مرحلتنا الحاضرة عليه ان يضحي باحد اثنين ، اما بعامة الشعب اذا كتب بالفصحى كما اوضح محمودتيمور ، واما بجمهوره الادبي في مختلف الدول العربية اذا كتب بالعامية . ولهذا يقول محمود تيمور :

« ان الكاتب المسرحي اذ يؤثر العامية على الفصحى انما يقوم بتجربة ادبية في هذا العصر الحائر ، الذي لم تستقر فيه المذاهب من حيث اللغة ومن حيث مناهج الادب فهو يلقي بتجربته بين يدي الجمهور، ليحكم لها او عليها . والمستقبل كفيل باملاء ارادته على العصر الجديد. وكل ما يقال في تقدير هذهالارادة رجم بالغيب ونثر بالظنون » (٥١).

هذا وسنعرض في مقال تال الحلولالمقترحة لهذه المشكلة .

القاهرة — **يوسف الشاروني**

مصادر البحث :

١ — مجلة صباح الخير — العدد ٦ — سنة ١٩٥٦ — ص.٥٠.

٢ — يحيى حقي : الارهاب ممنوع والزعل مرفوع — جريدة المساء — القاهرة — ٣٠ يوليو سنة ١٩٦٢ .

٣ — الرسالة الجديدة — ابريل سنة ١٩٥٤ — ص ٤ .

٤ — توسع في بيان ذلك محمد عفيفي في مقدمة لمجموعة قصصه «أنوار» — مطبوعات مجلة القصة — العدد ٢٢ — سنة ١٩٤٦.

٥ — الدكتور عبد العزيز الاهواني : العربية الفصحى في حرج — مجلة الاداب — ابريل سنة ١٩٥٦ — ص ٢٠ .

٦ — محمد فريد ابو حديد : موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى — مجلة مجمع اللغة العربية — جـ ٧ — سنة ١٩٥٣ — القاهرة — ص ٢٠٨ .

٧ — مقدمة ابرهيم الكاتب — ص ٩

٨ — انظر مقدمته لمجموعة قصص « جمهورية فرحات » للدكتور يوسف ادريس .

٩ — علي احمد باكثير : محاضرات في فن المسرحية من خلال تجاربي — ص ٧٣ .

١٠ — صحيفة الاخبار — القاهرة — ٢٣ مايو سنة ١٩٦٢ .

١١ — الوان منالقصةالمصرية— دارالنديم — سنة ١٩٥٦ — ص ١٤.

١٢ — عباسمحمود العقاد: ساعاتبينالكتب—مطبعة المقتطف والمقطم— سنة ١٩٢٩ جـ ١ — ص ٩٥ — ٩٦ . وقد اشير في الكتاب الى ان هذا المقال سبق نشره بتاريخ ٢٢ ابريل سنة ١٩٢٧.

١٣ — علي احمد باكثير : محاضرات في فن المسرحية — ص ٧٣.

١٤ — يحيي حقي : خطوات في النقد — مكتبة دار العروبة—القاهرة ص ٢٠٠ .

١٥ — محمد جلال كشك : شرف المهنة — مكتبة دار العروبة — سنة ١٩٦١ — دراسة بقلم يحيي حقي — ص ٢٥٢ .

١٦ — يحيي حقي : فجر القصة المصرية — المكتبة الثقافية —رقم٦— دار القلم ومكتبة النهضة — القاهرة — ص ٦٤ .

١٧ — الدكتور عبد القادر القط : حول التأليف المسرحي — مجلة الشهر — ديسمبر سنة ١٩٥٩ — ص ٣٨ . كما كرر الرأي نفسه فيمقاله: قضايا المسرح العربي المعاصر : مجلة الشهر — ابريل سنة١٩٦١ — ص٨.

١٨ — الدكتور محمد مندور : المسرح النثري — معهد الدراسات العربية العالية — القاهرة — سنة ١٩٥٩ — ٧١ .

١٩ — الدكتور محمد مندور : في الادب والنقد — لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة — سنة ١٩٤٩ — ص ١٥٥.

٢٠ — عباس العقاد : ساعات بين الكتب — ص ٩٦ .

٢١ — عباس العقاد : أغراض البحوث في الفصحى والعامية مجلة مجمع اللغة العربية — القاهرة — جـ — ١١ — سنة ١٩٥٩ — ص ٧٧.

٢٢ — الجاحظ : البخلاء ، ضبطه وشرحه احمد العواري وعلي الجارم — دار الكتب المصرية — القاهرة — جـ ١ — ص ٧٨ (اخر قصة جبل الغمر مع ابي مازن) .

٢٣ ـ يوهان فك : العربية ـ ص ١٢٠
٢٤ ـ الجاحظ : البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعةلجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ جـ ١ ص ١٤٥-١٤٦.
٢٥ ـ الجاحظ : الحيوان ـ تحقيق محمد هارون مكتبة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ سنة ١٣٥٧ هـ ـ حـ ١ ـ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ .
٢٦ ـ ابن قتيبة : عيون الاخبار ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٠٥ ـ المجلد الاول ـ مقدمة المؤلف ص م ـ ن
٢٧ ـ قدامه بن جعفر : نقد النثر ـ حققه وعلق حواشيه الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادي ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ سنة ١٩٤٠. ـ ص ١٣٩ .
٢٨ ـ المرجع السابق ـ ص ١٤٣ ـ ١٤٤
٢٩ ـ انور فتح الله : الحوار في المسرحية ـ مجلة الاديب المصري ـ القاهرة ـ مارس سنة ١٩٥٠. ـ ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .
٣٠ ـ علي احمد باكثير : محاضرات في فن المسرحية ـ ص ٧٥
٣١ ـ ج. مندريس : اللغة ـ ص ١٨٥
٣٢ ـ المرجع السابق ـ ص ١٨٦
٣٣ ـ المرجع السابق ـ ص ١٩١ .
٣٤ ـ فتحي غانم ـ الجبل ـ الكتاب الذهبي ـ روز اليوسف ـ القاهرة ـ العدد ٥٩ ـ فبراير سنة ١٩٥٩ ـ ص ١٣ .
٣٥ ـ توفيق الحكيم : فن الادب ـ مكتبة الاداب ـ القاهرة ـ ص١٦١
٣٦ ـ مجلة الاداب ـ بيروت ـ مارس سنة ١٩٦١ ـ ص ٦
٣٧ ـ اربع مسرحيات من الادب الامريكي ـ جمع ومراجعة حسن محمود ـ مقدمة بقلم توفيق الحكيم ـ مكتبة الانجلو ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥٤.
٣٨ ـ المرجع السابق ـ ص ٣١٦ ـ كما طبعت ترجمة هذه المسرحية « ما حدش واخد منها حاجة » طبعة مستقلة ومعها تقديم حسن محمود فقط ـ مكتبة الانجلو ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥٨ .
٣٩ ـ مجلة الكاتب ـ القاهرة ـ العدد ١٤ ـ مايو سنة ١٩٦٢ ـ ص ٧ .
٤٠ ـ الدكتور محمد مندور : في الادب والنقد ـ ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
٤١ ـ الدكتور محمد مندور : المسرحية بين العامية والفصحى والشعر ـ مجلة الكاتب ـ العدد ٩ ـ ديسمبر سنة ١٩٦١ ـ ص ٦١.
٤٢ ـ الدكتور عبد القادر القط : مشكلتان في القصة المصرية القصيرة ـ مجلة الشهر القاهرة ـ العدد الاول ـ مارس سنة ١٩٥٨ ـ ص ١٠ .
٤٣ ـ توفيق الحكيم ـ زهرة العمر ـ ص ١٤٠ .
٤٤ ـ المرجع السابق ـ ص ١٤٢ .
٤٥ ـ اعلن يوسف السباعي في مقدمة روايته « السقامات » انه حاول ان يكتب الحوار بالفصحى لكنه لم يلبث ان وجد ابطال القصة ينطقون على الرغم منه في احاديثهم بالعامية .
٤٦ ـ مجلة روز اليوسف ـ ٢٢ يونية سنة ١٩٦١.
٤٧ ـ عبد العزيز مطر : من حديث اللغة والادب ـ دار المعرفة ـ القاهرة ـ سنة ١٩٦٢ ـ مع الاستاذ توفيق الحكيم ـ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
٤٨ ـ محمود تيمور : دراسات في القصة والمسرح ـ مكتبة الاداب ـ القاهرة ـ ص ٢٧١ ـ ٢٧٦ .
٤٩ ـ الدكتور محمد مندور : دفاع عن الكوميديا ـ مجلة الكاتب ـ العدد ٤ ـ يوليو سنة ١٩٦١ ـ ص ٨ . وكذلك : المسرح بين المستوى والجمهور ـ مجلة الكاتب ـ العدد ٧ ـ سنة ١٩٦١ ـ ص ١٢.
٥٠ ـ الرسالة الجديدة ـ ابريل سنة ١٩٥٨ ـ ص ٦ .
٥١ ـ محمود تيمور : دراسات في القصة والمسرح ـ ص ٢٧٧.



مراجعة في أدب المغرب العربي

بقلم أنور الجندي

في السنوات الاخيرة تحررت اجزاء الشمال الافريقي من الاستعمار ، وبدأت تستعيد كيانها الفكري والثقافي وتعود من جديد للارتباط بالشرق العربي مرة اخرى بعد عزلة طالت اكثر من مائة وثلاثين عاما .

وهي « عزلة » وهمية حاول الاستعمار فيها ان يفصل هذا الجزء من الوطن العربي ليصنعه على نحو يحول بينه وبين الالتقاء في الاهداف والغايات . فكان ان وضع سدا بين وصول الثقافة والفكر العربي الذي تفاعلت فيه مصر وسوريا ولبنان والعراق والحجاز والسودان وبين هذه المنطقة ، غير ان هذه السدود في الواقع لم تحل دون التقاء المغرب العربي بالمشرق العربي ، فقد تم اللقاء من فوق الاسلاك الشائكة ومن ورائها ، ولم تقع العزلة كما تصورها الاستعمار ، فقد ظل المغرب ينظر الى المشرق ويتابعه في تطوره ويرقب ادبه ، وثقافته وفكره وتعليمه وصحافته على نحو دقيق ، وكان في صحفه وكتاباته يناقش كل فكرة وينقل كل راي ويحاول ان يجري معه على خط واحد .

حقا ، لقد كانت النهضة الفكرية ، في مصر والشام والعراق سابقة سبقا كبيرا في مراحلها عن اقطار المغرب العرب « ليبيا وتونس والجزائر ومراكش » وقد حققت مصر والعراق استقلالها في الثلاثينيات وسوريا ولبنان في الخمسينيات ، غير انها كانت تقاسي من النفوذ الاجنبي كثيرا ، اما في المغرب فقد كان الامر مختلفا كل الاختلاف . لقد سقطت الجزائر في قبضة الاستعمار الفرنسي عام ١٨٣٠ وحاول الاستعمار منذ اليوم الاول ان يقرر انها جزء من فرنسا او انها فرنسا الجنوبية كما سقطت تونس عام ١٨٨١ .

اما مراكش وليبيا فقد سقطتا في العشرينيات من هذا القرن وكان الاستعمار الفرنسي يحاول في الاقطار الثلاثة « تونس والجزائر ومراكش » خططا مختلفة في اساليبها متفقة في اهدافها ترمي الى القضاء على اللغة العربية والتراث العربي والاسلام على نحو عنيف ، استطاع ان يحقق بعض نتائج في الجزائر حيث قضى على اللسان العربي في مناهج التعليم وخرج جيلا من الذين يجهلون لغتهم الاصلية ولولا جهود عبد الحميد بن باديس بمدارسه الثلاثمئة لكان الامر اشد نكرا .

ولقد واجه المغرب العربي مؤامرات فكرية متعددة غاية في العنف غير ان صلابة ايمانه بالشخصية العربية ومقوماتها وعمق الفهم لوسائل المقاومة قد مكنه من العمل في ميدان الثقافة عن طريق فتح المدارس العربية ، وانشاء الصحف مما قضى على هذه المؤامرات بالفشل .

ولقد يلمس المراجع لهذه الفترة ان المغرب العربي كان ينظر الى الشرق دائما ويتطلع الى مصر والشام والعراق ويراقب كل تطوراته ، ويكرم اعلامه وشعراءه ونبغاءه ويتجاوب مع احداثه وازماته .

اما المشرق فقد كان مشغولا عن المغرب الى حد كبير فبين عشرات الابحاث والدراسات التي تناولتها الصحف والمجلات في خلال تلك الفترة قل ان تجد بحثا يعني بقضايا المغرب الفكرية عناية لها طابع متجرد ، واعني بهذا ان صحفنا كانت تنشر فعلا عشرات البرقيات والمقالات عن قضايا المغرب السياسية ولكنها كلها بلا استثناء لا تحمل وجهة نظر الامة ولا تمثل روحها . ذلك ان هذه الصحف كانت تعمل في الاغلب لدى النفوذ الذي يحكم المغرب ، حتى لقد كان عبد الكريم الخطابي والثوار الذين يقاتلون معه يسمون بنظر هذه الصحف « العصاة » .

اما قضايا الفكر واللغة العربية والتعليم والثقافة فكانت تتناول من وجهة نظر المستشرقين والمقيم الفرنسي ، حتى ليندر ان تجد في المقتطف والهلال في هذه الفترة ابحاثا لها طابع وطني . فاذا عرض لقضية « البربر والعرب » تناولها الباحثون على النحو الذي يزلزل الوحدة بين ابناء الوطن الواحد ويحاول خلق الفوارق الضخمة بين العنصرين المتزجين منذ الوف السنين .

اذن فتقصير المشرق العربي امام المغرب العربي واضح كل الوضوح ، فبينما تفتح صحف تونس او الجزائر او مراكش في هذه الفترة فتبرى كل ما في المشرق من قضايا وابحاث فانك لا تجد مثل ذلك في صحف مصر او العالم العربي الا على النحو المنحرف الذي كان يفرض على هذه الصحف .

وقد استثني من ذلك بعض صحف مصر بين الحربين كالبلاغ وكوكب الشرق التي عنيت على نحو اوسع باخبار المغرب العربي غير انها كانت عناية بالامور السياسية وحدها .

وربما كان اتجاه الصحف في العالم العربي الى الاقليمية في الاغلب هو مصدر هذا القصور ، او كانت غلبة النفوذ الثقافي الفرنسي على بعض بلدان المشرق العربي وصحفه سببا في هذا التقصير ، الا انني اعتقد اننا اليوم خليقون بان نعترف باننا كنا مقصرين كل التقصير ، وانه قد آن الاوان لنواجه ادب المغرب العربي في ليبيا وتونس والجزائر ومراكش مواجهة صريحة واضحة على نحو شامل عميق .

ولقد حاولنا منذ عام ١٩٥٩ ان نعمل شيئا في هذا السبيل عندما اخذنا في دراسة الادب العربي المعاصر على نحو موحد شامل للامة العربية كلها (١).

ولقد اتيح لنا ان نتلفت بعناية وشغف واستمرار خلال هذه السنوات الخمس الى ادب المغرب العربي ونتعرف على انتاجه واثاره واعلامه ، ونقرأ عديدا من صحفه وكتبه ومؤلفاته ونشراته في محاولة خصبة لمراجعة شاملة لادب المغرب العربي المعاصر تكشف عن مدى التطور الذي حققه في معركة المقاومة والتجمع والحرية والوحدة.

ولعل ابرز مظاهر الادب العربي المعاصر اليوم - بعد ان تحققت دعوته الى الحرية - هو بعث التراث العربي المغربي المدفون من مخطوطات واعمال ودراسات لاعلام الوطن وادبائه وادبه ، يبدو ذلك واضحا في اعمال « علي مصطفى المصراتي » في ليبيا و « عبد الله كنون » في المغرب و « ابو القاسم كرو » في تونس .

وقريبا سنرى علماء واعلاما يحملون لواء هذه الدعوة في الجزائر .

ذلك ان معركة التحرير الممتدة التي لم تنته الا في السنوات الاخيرة في المغرب العربي قد حالت دون العمل الادبي سنوات وسنوات وكانت هجمات الاستعمار تقضي على التراث القديم ، وتنثره هنا وهناك ، فمضت السنوات دون ان يجمع او ينسق .

هذا فضلا عن ان تاريخ المغرب العربي لم يكتب منذ مائة وثلاثين عاما على نحو صحيح ، فقد كان يكتبه المؤرخون الفرنسيون ويدسون فيه سمومهم ويشحنونه بالاكاذيب والروايات المغلوطة التي يهدفون بها الى تحطيم معنوية الامة وتمزيق وحدتها . .

لذلك نرى « محمد علي دبوز » احد اساتذة معهد الحياة في جنوب الجزائر يعد في القاهرة الان اول دراسة عن تاريخ المغرب العربي الكبير وهو عمل ضخم يتطلب مراجعات لا احد لها وتصحيحات ضافية لكل اغاليط المستشرقين واخطاء الكتاب الذين وضعوا مؤلفاتهم في ظل الاحتلال الفرنسي .

اما « على مصطفى المصراتي » فهو منذ عشر سنوات تقريبا يحاول ان يمسح الادب العربي في ليبيا فيكتب عن « اعلام من طرابلس » و « لمحات ادبية عن ليبيا » ودراسة عن « ابراهيم الاسطى عمر » شاعر ليبيا و « غومه فارس الصحراء » « وابو قشه الصحفي الليبي » و « صحافة ليبيا في نصف قرن » وله دراسات عن الامثال والادب الشعبي في ليبيا .

وهي محاولة لكشف الجوانب الغامضة في التاريخ والادب والفكر الليبي المعاصر التي اوشكت ان تضيع في ظل الاحداث القاسية التي واجهتها ليبيا في معركتها مع الاستعمار ، فقد ضاعت معظم الاثار الادبية وانشغل اكثر الشباب في معارك المقاومة ومنع الاستعمار وصول الصحف والكتب من مختلف انحاء العالم العربي اليه رغبة في تعميق نطاق العزلة .

وفي ظل المعركة الوطنية السياسية ذهبت اكثر الاثار الادبية والمؤلفات التي كتبها اعلام الفكر والثقافة.

وان انتاج الادباء الذين ظهروا في درنة وبني غازي وطرابلس في هذه الفترة من اواخر القرن الماضي حتى منتصف هذا القرن قد ضاعت ومن هنا تبدو اهمية العمل الذي يقوم به «علي مصطفى المصراتي » الان في محاولاته المتصلة .

وهو يحاول في قصته « غومه - فارس الصحراء » الكشف عن جوانب التاريخ الليبي الذي عاش في صورة الاساطير وتحويله الى تاريخ واضح المعالم . ففي هذه القصة يرسم صورة فرسان ليبيا الذين كانوا يصدون كل تيار اجنبي يصل الى شواطيء البلاد ، عندما صدوا الاسبان والمالطيين والفرنسيين والطليان عن شواطئهم ومعارك الفرسان المغاوير الحافلة بالبطولة ومن هؤلاء غومه المحمودي ، وسيف النصر وابن مطروح .

وقد جمع ذلك من القصص والاسمار التي كانت ترويها الامهات وحاول ان يرده الى التاريخ . يقول « نود ان نزيح تراب الاهمال الذي غطى على هذا الفارس ، ونخرجه من بين الانقاض واكوام التقارير واكداس المراسلات من بين عشرات الوثائق المهترئة التي انهكها الاهمال ودفنت في قاع سحيق »

وهكذا تجري المحاولة لتنقل الدراسات الشعبية الى دراسات تاريخية لها اسس علمية واضحة .

وعمل «عبد الله كنون » يجري في نفس الاتجاه وعلى نحو اخر ، فان هذا العلامة الباحث يعمل على الكشف عن النبوغ المغربي في الادب العربي في كتاب ضخم صدر حديثا في ثلاثة اجزاء وشمل عشرات من اعلام الشعر في الادب العربي ، وله كتاب « ذكريات مشاهير المغرب » في اجزائه التي بلغت الثلاثين . وفي مقدمة اسماء الاعلام ابو بكر بن شيرين ، وابن عبدربه المكناس ، واحمد بن شعيب الجزنابي ، وابن الونان وابن غازي وعثمان السلالجي والامير سليمان الموحد وعبد العزيز الملزوزي ومالك بن المرحل وميمون الخطابي .

وقد اشار العلام كنون الى ان اعماله هذه محاولة لاعطاء صورة عن المجهود الكبير الذي بذله المغرب في سبيل اثبات شخصيته والمحافظة على كيانه امام المؤثرات القوية التي حاولت مرارا ان تمحوه من صحيفة الوجود .

ويعطينا الوزير المراكشي عبد الله كنون بمؤلفاته نافذة على الحركة الادبية بالمغرب في امثال « التعاشيب - خل وبقل - - واحة الفكر » .

وقد صور ان معالم الادب العربي المغربي المعاصر تتمثل في :

- رابطة الوحدة بين مراكش وتونس والجزائر
- قوام الادب : الاسلام والوطن والحرية .
- الامجاد القديمة المتصلة بتاريخ المغرب العربي والاندلس .

(١) تناولنا هذا الموضوع في كتابينا « أدب المقاومة والتجمع والوحدة » و « النثر العربي في مائة عام » .

● مقاومة اتجاه المستعمر ضدالقضاء على اللغة العربية والاسلام او تمزيق وحدة المغرب بدعوة البربر والعرب .

وقد لاحظت في مراجعات متعددة في صحف المغرب ان بعث الاثار الفكرية القديمة وتجديد عرضها وبحثها وربط المغرب كله وربط المغرب بالمشرق في مجال الامجاد العربية والاسلامية جانب هام من جوانب النهضة الفكرية اليوم.

ويحرص كتاب المغرب المعاصرون على اعادة عرض الوقائع الهامة الضخمة في تاريخهم باسلوب ادبي جديد .

ويشيدكتاب المغرب بامجاد العرب في الشمال الافريقي وللاندلس في الفكر المغربي العربي اهمية فلسطين والاسكندرونة .

وفي تونس نجد الاستاذ « ابو القاسم كرو » يحاول ان يعطي هذا الجانب من تاريخ تونس العربي بالكشف عن الجوانب الهامة في ثقافته بما يظهر في مؤلفاته عن أبي القاسم الشابي وابن خلدون والطاهر الحداد محرر المراة في تونس وخير الدين التونسي .

وقد دعا كرو في مؤلفاته المتعددة الى الاهتمام بهذا « النوع الخطير الذي يحيط بتاريخنا وادبنا وتعليمنا » ويرى انذلك تاكيد «لحبنا لبلادنا اولا ولامتنا العربية وتاريخها وادبها ومستقبلها من الاهتمام بالمغرب كالمشرق» ونعي كرو على اهتمامنا بالغربيين دون الشرقيين وبالقدامى دون المعاصرين .. وقد حوت سلسلة كتاب الشعب الذي اصدره مجموعة نافعة منالدراسات عن الصحراء الغربية « لمحمد مبارك الميلي » و « أثار المغرب العربي « لسليمان مصطفى زبيس »

وهي في مجموع اجزائها تستهدف عملية اعادة مسح التراث العربي التونسي من جديد .

فاذا اضفنا الى هذه الدراساتالفلسفية الضخمة التي قدمها الفيلسوف الجزائري « مالك بن نبي » عن الامة العربية في معركتها مع الاستعمار الثقافي من خلال تجربة الجزائر « وقد بلغت حتىالان اكثرمن عشرين كتابا » استطعنا ان ننظر بعين التقدير الى العمل الكبير الذيبدا فعلا في المغرب العربي والذي يسترعي انظار المشرق العربي والذي نحاول اليوم ان ننظر فيه لنقضي دينا طالما حمله ايانا اخواننا في الاقطارالعربية الاربعة .

ولست استطيع انامضي دون ان اذكر اسماء نابهة في هذه الاجزاء العربية تعمل وتتيح دراسات بارعة جديرة بالتقدير والعرض والنقد امثال علال الفاسي وعبد المجيد بن حلوية وعبد الكريم غلاب ومحمد الوزاني ومحمد ابن تاويت ومحمد المختار السنوسي والحسن السايح وعبد القادر الصحراوي في المغرب ومحجوب بن ميلاد وعثمان الكعاك والطاهر الخميري ومحمود المسعدي ومحمد الحليوى ومحمد مزالي وحسن حسني عبد الوهاب وعبد الله شريط وزيدالعابدين السنوسي في تونس .

ومن الكاتبات زعيمة الباروني في ليبيا اول قصصية ليبيةوباحثة الحاضرة في المغرب ومقيدة الشاهد وفتاة تطوان وامنة اللوة الالفي .

وبعد : فان الادبالعربي في المغرب العربي جدير بان يعرض عرضا شاملا تحلل فيه جوانبه وترصد تطوراته ومواقفه في حلقات متوالية .

القاهرة — **انور الجندي**

بين تذكاراتي

للشاعر « جونتر أيش » *

ترجمها عن الالمانيه الدكتور ميشال جحا

* * *

صهريج القمر الابيض
منهوك فارغ
والنوم بدون النجوم
صعب جدا .

غيوم ، قوارب ترسو
على الجبين . حلم وريح
تقذف الموتى الى الارض ، تمطر
الايام الواضحة بالرمل

وتعلق على شواطئي
مع الخشب والعاج ،
والسفن ، والصواري
ذكريات ، صغيرة لا تفهم .

ليلة خفيفة الزرقة وجزر الرياح ،
شجرة تنحني امام الخريف ،
تلفني بالاوراق وبلحاها
وبدمها الذي يجري ويندفع .

والصيف ، والجبال ، مساكن النباتات ،
انعكاس ضوء الثلج ،
كان هذا ــ الا يجري مع
نبات الماء الى العدم ؟

استيقظ . في السجاجيد
حيكت اشباح
وكلمات من الف صلاة .
خرافة ، من منا يعيش .

وعندما تتعب الذكريات احيانا ،
اشعر ،انه يجب ان يكون
ان وجهك المظلل دائما ،
خالد ومن حجر .

★ من مجموعة « اشعار » ١٩٣٠ .

عجلتا الدراجة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٧ ـ

وتتشبث به . استرخت على الارض ، وانتظرت دسوقي ليرى كل شيء. وكان الشوق الكئيب ما يزال يهيمن عليها عندما تقدمت ضرتها مرة اخرى تأمرها بالانصراف .

أخيرا دخلت الضرة البيت وصفقت وراءها الباب ، فلم يسمع صوتها حتى جاء دسوقي . وجلست خيرية معممة باحساسها المر بهروب البيت منها . لم تلتفت بعد الى أي من المارة واسترسلت في تذكراتها.

بعد نصف ساعة تقريبا أقبل دسوقي من امتداد الشارع الاعلى. كان يركب دراجته ويسيل على التراب الصلب . وتطلعت اليه ، فيغمرة البكاء الذي تحرك في عروقها ، كأنها تراه للمرة الاولى.

قال لها : ـ ما هذا ؟ لماذا تجلسين هنا ؟

ونزل عن الدراجة .

ـ جلبت لك منجاية . ولكنها منجاية ! ليس لها أخت في القاهرة كلها . واسند الدراجة الى الجدار فاقترب منها . كان مضطربا.

ـ ما بك ؟

أمسكها من راحة يدها ، وأحس انها ميتة .

ـ أنت ، عندك امرأة ثانية غيري ، يا دسوقي ؟

فاضطرب اضطرابا شديدا وارتعشت شفتاه . كانت هي تنظر اليه بثبات وامعان وكآبة .

ـ لماذا لم تقل ؟ طردتني من البيت .

ـ يستحيل !

ـ ألست أقعد هنا ؟

ـ لماذا لم تطرديها أنت ؟

ـ أقوى مني يا دسوقي .

وأضافت بشيء من الاهتمام : ـ ماذا نعمل يا دسوقي ؟

ـ سوف نطردها !

ـ ولكن أين تذهب ؟

ـ نطردها ونتركها ! أنا لا استطيع أن أعيش معها . انها مجرمة، خنزيرة ، بحجم الجاموسة . انها لا تستحق بيتا ، وانا لا استطيع أن أعيش معها .

ـ طلقها هي ... أو طلقني أنا.

ـ أنت مجنونة . أطلقك ؟ من يقول هذا الكلام ؟ أنت حياتي. أنا أحبك يا خيرية ، ولا يمكن ان اطلقك « وقد تلجلج صوته بالبكاء عند هذا الكلام » خيرية ، حبيبتي ، اسمعيني . أنت تعرفين اني احبك : لك غرفة ولها غرفة . موافقة ؟ لماذا يا خيرية ؟ أنا أحبك أنت ، وسأبقى أحبك دائما . لكنها امرأتي ، ولا يمكن ان تطلقني . هذا قضاء وقدر . ليس عندي سبب للطلاق . يعني اذا جئت للقاضي ماذا أقول له ؟ لا شيء . سيقول القاضي لي : عندك زوجتان ، وهذا ليس جريمة . القرآن يقول أربع . نحن تزوجنا على كلام القرآن . انظري يا خيرية . لماذا ؟ أترين الدراجة ؟ سنركب على الدراجة معا . وسأريك القاهرة كلها ، فيضوء القمر . اليوم نفخت العجلتين خصوصا . نفختهما بنفسي. تعرفين ؟ سنذهب اليوم الى القناطر ، موافقة ؟..

عند كلمته الاخيرة رأى دسوقي زوجته الاولى على العتبة مشبوكة الذراعين طاوية الرجل . وأتم كلامه :

ـ خيرية ، سنذهب الى القناطر . دعيها في البيت . ما لنا ولها... هي في غرفة ونحن في غرفة . سنركب الى القـ.. بل الى حلوان. خيرية .. لا يا مبروكة . خيرية .

وكانت مبروكة قد وصلت الى خيرية وانهالت عليها رفسا ولبطا وقذفا حتى طمرتها . والتفتت الى دسوقي. تقدمت منه متحفزة متوفزة. كان ينقل عينيه بسرعة بينها وبين خيرية . ولما رآها تقبل انهى كلامه.

أطلقت خيرية لعينيها الدمع ، وغمرت وجهها بيديها .

وتقدمت مبروكة من دسوقي فأمسكته من نحر قميصه ، وكان يقول الان :

ـ أنت يهودية ، صهيونية ، ساقطة ، لا تعرفين الله . أنا سوف أطلقك ، وشرفي. خيرية خيرية ـ أنت بنت حرام . ولدتك أمك في الاسبوع الرابع للقمر . خيرية تعالي يا خيرية . لا تتركي البيت..

وجرجرته الى الباب ، وبعدئذ أدخلته دون ان تنبس بحرف . وبقيت خيرية تبكي متكومة فوق الارض ، وقد تمددت الى جانبها العجلة الخلفية للدراجة . كان بطن خيرية يختلج ، وكانت عجلة الدراجة تدور في الفضاء . رفعت رأسها ونظرت حولها بعينين دامعتين ذليلتين . ودون ان تعي مدت يدها فلمست العجلة ، ثم سحبت اصابعها وقد تلوثت بالقذر . وخيل اليها ان العجلة سوف تفترسها .

بعد قليل جاءت مبروكة وادخلت الدراجة الى بيتها.

ـ ٣ ـ

الشيء الوحيد الذي نبهها من هواجسها المترامية كان صوتا ثاقبا طن في الجو فجأة وولج كل أذن : الله أكبر ، الله اكبر . كانت الساعة تقارب الواحدة الا الربع ، وهجير القيظ في القاهرة يكاد يوري لهبا.

وتابعت المسير .

نظرت الى الناس كأنهم ملاقط داكنة تهتز بخفقة كهرباء . كأنهم عطسة تتبعها عدة سعلات عنيفة . وبعد مرور وقت ، تحولوا الىاستطالات مألوفة قديمة العهد ، غير معروفة مطلقا . وكانت مشاعرها قد ذابت في عجين جسمها التعب ، وسالت تسكب المرارة في مجاري عينيها وحلقها . وكان كل شيء يعدو : سريعا مذعورا يائسا ، وتعافه النفس.

وأخيرا وصلت الى منزل والدها .

كان اخوتها وأخواتها بين نائم في البيت ولاعب في الحارة ، وزوجة أبيها تغسل صحون الغداء . لقيها والدها وهو يهم بالخروج فاستوقفه قدومها .

قال : ـ مالك يا بنت ؟ كفى الله الشر.

قالت : ـ ان دسوقي متزوج من امرأة اخرى .

فهز رأسه ورفع حاجبيه : ـ وماذا ؟ أخذ على خاطرك ؟

قالت : ـ ضربتني وطردتني من البيت .

فهتف نافد الصبر : ـ يا الله يا الله ، بلا مشاعر . ضربتك وضربتها ، هذه أشياء نسوان . سوف تضربك ، طبعا ، الضرائر هكذا ! أم انك كنت تتوقعين آن تبوسك ؟! يا الله يا بنتي ، ارجعي الى زوجك ، ولا تبالي بها .

فنبست خيرية باصفرار : ـ لا يمكن . طردتني وحبسته فيالبيت! لم يأت الي هو مطلقا .

وصاح الوالد نافد الصبر : ـ لقد كتب الله على قلبك الشقاء منذ خلقك . وها أنت تزيدين حياتك بلوى بنزواتك الغريبة . عودي الى زوجك في الحال ، ولا تريني وجهك الا بصحبته . تريدينه ان يأتي اليك ويأخذك ؟ مستحيل ! هذا رجل . المرأة تسعى الى الرجل . ويجب ان تحتفظ به . يا الله يا بنتي ، يا الله . الزواج سترة . ولست أنت أول من كانت الزوجة الثانية .

فتشبثت بقولها : ـ لا يمكن . انها سوف تميتني.

قال الوالد : ـ أنت خائفة فقط ، واهمة .

وأمسكها من ساعدها : تعالي . تعالي نركب الاوتوبيس الى بيته.

فأصرت : ـ لا يمكن يا أبي ، مستحيل.

ـ تعالي ، تعالي فقط . لا تزيدي غضب الله علينا.

وسحبها من يدها من البيت ، فتجرجرت وراءه مكرهة قارفة. وعند موقف الباص كان ما يزال يقول لها :

ـ الزواج ستر يا خيرية . الله سبحانه وتعالى اختصك بنعمة كبيرة . وما هي غاية الزواج بعد كل شيء ؟ : زوج يطعمك ويؤويك، أنت تعرفين ان حالتنا صعبة .

صمتت . ركبت الباص الى جانب والدها وأنصتت له . كان ما يزال يتكلم :

ـ أخوك الصغير مريض . رحت للطبيب والصيدلية فدفعت مئة وثلاثين قرشا . فستان اختك تساقط عنها لشدة البلى . ماذا أفعل ؟ دفع ، دفع ، دفع. يأتي الجنيه ، أوفت ، طار الجنيه . يجب ان تعرفي أن لقمة واحدة تزيد شيء مستحيل . هذه حكمة ربنا. لن تستطيعي شيئا أمام الله .

قالت خيرية فجأة : ـ سأنزل هنا .

ـ هنا ؟

ـ أيوه . البيت قريب . لا ، لا تنزل.

ـ انتهى يا خيرية . لست مستعدا لاستقبالكمرة اخرى يا حبيبتي، فاهمة ؟ يجب ان تبقي في ظل زوجك ، يجب .

نزلت من الاتوبيس ، وسارت لم تنظر الى ابيها . تقدمت في الشارع . وفي قليل من الزمن نفذت الى شارع اخر وتابعت سيرها. كان سيرا كافيا لان يملأ مفاصلها بالتعب ، على انه اوصلها اخيرا الى بيت سيدتها . وعلى عادته ، كان البيت مغمورا بالصمت والجلال وبأشجار حديقته .

دخلت من البوابة ، بعد ان سلمت على الحاج متولي ، البواب، ثم من الباب الكبير . ثم صعدت فورا الى غرفة سيدتها . ابتسمت السيدة تعتذر لضيوفها عن هذا السلوك . نهضت فانفردت بخيرية عند الباب ، وسألتها ما بها .

قالت : ـ أريد أن أعود للخدمة عندك يا ستي.

فصمتت السيدة برهة ثم قالت بوداعة وحب :

ـ تعودين للخدمة ؟ ألم يقل لك أبوك ؟ أحضرت أختك يا خيرية، وفتاة أخرى . اختكبنت حلوة مثلك ، أصغر منك .

أطرقت خيرية .

قالت السيدة مواسية : ـ لقد كنت تقومين بالعمل قياما مدهشا. تصوري أن اثنتين شابتين تقومان بعملك . أم ... تريدين بعض النقود ؟

فغمغمت : ـ لا يا ستي . كنت اريد ان اشتغل فقط .

ـ خذي ... تعالي .

ـ لا يا ستي. أبدا .

انتابها احساس جارح بالغربة ـ شدت أسنانها على بعضها. استدارت ودلفت في الرواق . ونزلت الدرج ، فغادرت البيت الكبير.

كان الوقت غروبا والسماء مخضبة بلون النجيع . سارت على

الرصيف وئيدة الخطى ، مضيعة السمت . وأخذ طنين الشارع يدوي في رأسها ويفتل كالخذروف . وعند بداية الرصيف الثالث أحست مجددا بعروق ساقيها تتصلب وتتألم.

في المساء تقدمت تحاذي شاطيء النيل . وشردت عيناها فوق المد المسفوح ، تتأملان الاضواء الغامضة وهي تنعكس من بعيد في قلب المياه المظلم . تقدمت من الضفة وجلست مطلقة آهة كثيفة . واذ أخذها بعض الراحة رأت أنها تكاد ان تكون خارج البلد . وفجأة داهمتها رغبة البول . نظرت حولها بخوف . كان الناس يمرون كالاشباح ، وبسرعة هادئة أقعت فانزلت معورها ، وجعلت تبول .

عندما رفعت المعور برز أمامها شاب يتعطف وتهتز يده.

قال وهو يلثغ «الظاء» : ـ السيارة تنتظر .

فانتصبت ونظرت اليه باستغراب : ـ سيارة ؟

وجمجم بابتسامة مرتبكة : ـ السيارة ! ههنا !

ولم تفهم شيئا . انكمشت برد فعل غريزي وأدارت ظهرها.

وقف الشاب برهة ، ثم تحول مضطرب الخطى . قال ولسانه يلثغ «الذال» : ـ عجيب ! لماذا أنت ههنا ؟

وانصرف .

مكثت خيرية برهة مشلولة بالخوف ، ثم سارت . وصلت الى الرصيف وانطلقت نحو قلب القاهرة حالمة بجو من الامان .

« عودي الى زوجك » وأي زوج ! « يأتي الجنيه من هنا ـ طار الجنيه » واجتازت شارعا . « لم تكن مبروكة تملك جنيهات البتة » على ان المهم الان : أين تذهب . « ارجعي يا ابنتي ، ارجعي . الزواج ستر » . دراجة دسوقي تستلقي على الارض ، وعجلتها الخلفية تدور في الفراغ الخفيض ، دسوقي ذو الاذنين الكبيرتين . على ان المهم الان: ماذا تفعل ؟

بغتة ، ألفت نفسها في الشارع الهابط الى بيت دسوقي. وعندما اقتربت وجف قلبها بعنف . كان البيت غارقا في الظلام ، والشارع يركع في غيبوبة السكون . اقتربت اكثر وتأملت الباب . وبيد تالفة الاعصاب جست مقبضه . ثم نقرت . ثم دقت . ولم تسمع صوتا . قرعت الباب بقوة وخوف ، ثم قرعته . ولم يجبها احد . وانتهى بها الامر الى ان تخبط عليه بكلتا يديها .

ثم استرخت اليدان في اعياء .

ضربت خيرية بعد ذاك في حواري القاهرة وشوارعها وساحاتها، متعرضة بين الحين والحين الى النعر والمرافقة والمماحكة، وحاملة دائما ذلك التصلب المزق في ساقيها . انها لا تذكر ذلك المساء بارتياح: مسير بلا نهاية ، وبشر يطلبونها . واصعب من هذا كله انها كانت تحت وطأة الحاجة الى التغوط . وزادها ذلك حصارا . واخيرا تهالكت فوق صرتها مفرغة الخاطر عاجزة عن المسير طاوية البطن ، وممتنعة عن ان تقرع باب الشقة الذي قصدته . وبعد هنيهة تواثبت في رجليها نيازك التعب كأنها تفج اللحم وترميه مزقا ، أحست برغبة في ان تعض ساقها او تضغط عليها بنصل سكين .

عندما طن في اعماق سمعها صوت مبهم أحست كأن مطرقة تتدلى فوقها لتضربها . واشتدت الجلبة فأجفلتها . وبين ضباب الاستيقاظ الراغم سمعت صوتا يقول بهدوء وخفوت:

ـ لم تكن القاهرة بخيلة يوما . والله في الاعالي يرزق القائم والنائم والمتكيء على جانبه .

استيقظت تماما ونظرت اليه . زحفت على وركها لعلها تنجو من هول انتصابته . وبعد ثوان دخلت معه البيت وهي تستند على كتفه. أوكاها في البهو ثم اشعل الضوء . قادها الى المرحاض فاغتسلت وتبرزت واغتسلت ثانية . وبعدئذ قادها الى غرفة يسارية فأجلسها على كنبة. رمى كتبه على الطاولة وخرج . عاد يحمل طنجرة يتصاعد منها بخار خفيف ووضعها عند قدميها . نزع الكندرة وأمسك قدميها ، فرفعتهما باستحياء منهك ، ووضعتهما في الطنجرة . وأحست بدفء الماء

فاسترخت والقت رأسها على الجدار .
جلس الشاب على الارض وغسل يديه بالماء . امسك ساق خيرية وراح يدلكها . واستغرق في ذلك زمنا : يرفع اصابعه الى ما خلف الركبة فيشدد العروق ، ثم ينزل الى بطة الساق . فيفركها بين راحتيه، ثم يضرب عليها بظاهر راحته ، ويضغط على العضلات بابهامه وسبابته. أخيرا انتهى من الساقين ، فنهض وغادر الغرفة .

عاد يحمل طعاما مؤلفا من نواشف وبيض مقلي. وضع الطعام على الكومدينة واشار لها ان تأكل . لكنها سكنت في مكانها . وعاين الشاب احجامها فخرج وأغلق الباب.

وهكذا امتدت يدها الى البيض فأكلته، ثم الى العسل فنالت منه حتى امتلأ بطنها ، ثم جلست مستفيضة النفس.

دخل الشاب ببطء . وصوب اليها نظرة مهيبة . نظرت اليه والتقت أعينهما . كان في عينيه انتظار واثق مطمئن ، وكان فيهما سؤال. على انها لم تجرؤ ان تتكلم ، وراح قلبها يلعج بالرهبة والوجيب . رد ملحفة السرير واشار لها ان تضطجع .

نهضت وفعلت ذلك بلا ابطاء . ورفعت بؤبؤيها اليه . امتدت يده فأمسك يدها المرتعشة في تحركها . وكانت ما تزال ترمقه بنفس النظرة الراضخة . تناول يدها جيدا ، وراح يفعل لها ما فعل للساقين . واهتز لحمها الثر بين اصابعه الطويلة ، نفرت الدماء في عروقها حارة مثارة متعبة . وتصدت لعينيه الغامضتين نظرة من عينيها منقوعة بالاسترخاء. لقد اعطته زندها ، شأنها شأن من يخطو الى الامام خطوة يعلم انها بدء هبوط في الوادي العمودي.

عندما أمسك يدها البعيدة أحست بشدة أصابعه . وتهاوت نفسها مفرغة بالنعاس . جثم هو على السرير لكي يتناول ساعدها . واحست ببرودة يده تحت ابطها . ولجت الى ملاعب الزئبق مرسلة الخاطر في تهويمة نوم ضبابية .

— ٤ —

أفاقت خيرية ضحى اليوم التالي فنظرت الى سقف الغرفة. وعجبت من هذا الفضاء الشاسع يتمدى امامها . حاولت ان تتذكر اين هي ومن هي. ثم حاولت ان تتذكر كيف توجد الان . وأعياها تذكر الجهات الاربع . ذعرت . قعدت في السرير على عجل واضطراب، فوجدت نفسها عارية الا من الرداء الخارجي الذي لم يكن لها ، تأملته بلا وعي : كان شبيها برداء سيدتها . رفعت عينين مدورتين الى فراغ الغرفة الابكم ، وشفتين منفوختين . ولم تفهم شيئا.

لم يكن في الغرفة احد ، ولا في الشقة . وامام حوض المطبخ وقفت تنظر الى الباذنجان والبندورة والبصل ، كلهم مرمي على الارض ببالغ الفوضى . تثاءبت ، تمطت ، دخلت المرحاض . في المرحاض فكرت بكل ما حدث لها بالامس . وعاد اليها الخوف.

احتواها انفساح الشقة من جديد ، واحست بالامن. تقدمت فغسلت وجهها ودلفت الى الغرفة . وفجأة عاد خوفها.

لبست ثيابها على عجل وحملت صرتها . تقدمت من الباب وفتحته. كان أول ما رأت رجلا عبر الشارع واختفى . واندفعت يدها فأغلقت الباب . ووقفت مطرقة . في خاطرها اغتلى سؤال منعها من الحركة ما الذي سيقوله الناس عندما يرونها ؟

مكثت وراء الباب ممسكة بالقفل ، وكأنما اراحها الوقوف من العودة غير المرغوبة الى الغرفة ومن الخروج غير الممكن منها ، فراحت تتأمل الجدار خالية الذهن . ولم تجرؤ على الحركة .

أخيرا تعبت ، استدارت وجاست في الصالون . دخلت المطبخ. ودفعتها عطالتها الى ان تمسك باذنجانة . جثت ، أمسكت بالسكين، وشقت بطن الباذنجانة . واسترخت على الارض قاصرة الذهن .

بعد ساعة ونيف انهت طبخ الطعام ، ولم تتمالك نفسها فتناولت وجبة كاملة . وبعدئذ غسلت وهرعت الى الباب تتأبط صرتها ، وهي واجفة الخطى . فتحت الباب ، واغلقته . وهكذا صارت في الخارج دفعة واحدة . نزلت على الدرج مضطربة ، وسرها أن لا يراها احد .

عند مدخل العمارة انتصب امامها الشاب .

— خفت ألا أجدك .

وبغتت فتخاذلت واسترخت على الجدار خافقة الحنايا متصلبة الاطراف ، وسقط رأسها على نحرها ممتد الفم الى أمام.

— سأعرض عليك أمرا . أرى انك واحدة ممن حكمت عليهن القاهرة بزوال عقدة الاثم . نحن هنا ثلاثة سوريين ، طلاب جامعة ، من طرطوس: أنا لطف الله ثم سعد الدين وأديب ، رفيقاي يعودان اليوم من نزهة بالاسكندرية . اذا أردت المجيء الينا نكون مسرورين جميعا وسنرحب بك .

وصمت ينتظر الجواب . على أنها لم تجرؤ حتى على ان تفهم ما قال . كانت موكوءة على الجدار ، متخثرة وملفاة . وبعد قليل بدت عليه الحيرة . تأملها في التحامها الساكن بالجدار وعلائم ضحك مستغرب تجيش في وجهه . ورفرفت هي جفنيها ولم تحر جوابا . صمتت ، وصمت . واستمرت متقعرة فوق الارض .

قال : — ما اسمك ؟

فلم تجب . تقدم يرقى الدرج يائسا من تحريكها . وانكمشت لدى مروره بخوف واستسلام ، جعلاه يلتفت . وسألها ثانية :

— ألا تريدين أن تقولي ما اسمك ؟

ثم : — ما اسمك ؟

— خيرية .

قالتها بخفوت ، وكانت ما تزال على تخاذلها .

— ألا تريدين ان تسكني معنا ؟

فلم تجب .

— عندما تقبلين تعالي. سنرحب بك حقا .

وصعد الدرج ، عند الباب تأملها برهة ، ثم دخل دون ان يغلقه .

زحفت خيرية الى المدخل وخرجت ، واستقبلها قيظ الظهيرة الحاد يلسع جلدها المرتعش . كل ما حولها كان غريبا . تذكرت الاشخاص الثلاثة الذين كانوا يستقرون في مكان بعيد هادىء من واعيتها . وأتعبها أن كلا منهم قد غدا نائيا كأنه في عالم اخر.

عبرت شارعا واستأنفت المسير ، وسرت في مفاصلها رعدة . ثم عبرت شارعا ثالثا ، وكان ذلك شاقا لكثرة ما حاذرت الاصطدام . على أنها ظلت تعبر الشوارع واحدا يتلو الاخر ، وتندس بين كتل البشر والحديد المتسارعة .

وصلت الى البوابة الكبيرة . سلمت على عم متولي ودخلت . استدارت الى اليمين فالتفت حول البيت الكبير . وسارت الى شجرة معينة فجلست . هناك غمرها الظل الكثيف وأرعشها ببرده . استندت الى جذع الشجرة وعبثت بالربيع الذي حولها.

كان البيت مستسلما لنوم القيلولة . وراحت خيرية تتأمل الغرف واحدة واحدة ، وتكبح حنينها الى شباك شمالي صغير . انتظرت ان تلقى أختها والفتاة الاخرى فتتبادل معهما الاحاديث . وقد صممت مسبقا أنها لن تمكث في الحديقة فور أن تراها سيدتها . انها سوف تذهب لحظة تراها .

وتحقق لها ما املته . بعد قليل أقبلت فتاتان ، كبراهما في نحو الثانية عشرة ، والصغرى في نحو العاشرة . تقدمتا من الجانب الخلفي للعمارة مستغرقتين في حديث ضاحك لاه. وراحت الكبيرة تنط وتفرش يديها . عندما رأتا خيرية توقفتا بنظرة فاحصة . وفجأة ركضت الكبرى وارتمت بين الذراعين اللتين امتدتا للقائها .

عندما وصلت الصغيرة ، قالت لها زميلتها :

— هذه أختي خيرية ، يا حبيبتي يا أختي.

وعانقتها من جديد .

في غرفة خيرية القديمة ، راحت النساء الثلاث تتبادلن الحديث بطلاقة وانشراح . لم يطل الوقت بخيرية ، فخلا ذهنها من كل شيء. وراحت تتصارع معهما ، وتنط . وجعلن تتدافرن . ثم دب الحماس في خيرية فاقترحت لعبة الاستغماء . وقبل الاقتراح فورا ، فغممت عينا أخت خيرية ، ثم الصغرى ، ثم خيرية . وعلت أصواتهن بالضحك والصخب . ورحن يتفنن في انتقاء الزوايا الصعبة الالتقاط ، حتى اذا أمسكت الفتاة المغماة بزميلتها المبصرة حاولت انتطبق عليها بكل قوة ، فيما تنشد الاخرى متباعدة ، والاثنتان تتفجران بالصخب والكركرة .

أحست خيرية بنشوة حارة . واندفعت تلعب باذلة للحركة ضعف ما تستهلكه من جهد . قفزت في الجو . انطرحت على الارض . صاحت بكل حنجرتها . حبست انفاسها حتى الاختناق. خبطت بيديها وساقيها. انسلت كالشبح .. حتى انطرحت أخيرا على سريرها القديم فائرة مسترخية .

وأخيرا حل المساء .

قالت أختها : ــ ستذهبين الان ؟

فغمغمت باضطراب حيي : ــ أوه .. ما أصعب ذلك.

ووقفت أختها تتأملها حتى خرجت .

خرجت من مخبئها السحري ليلفح جبينها الرطب نسيم المدينة المعدم . ومع انها لم تكن تدري أين تمشي فقد ثابرت على اجتياز المسافات، وكان جو المدينة الضخم يعيدها الى صوابها الكريه . تذكرت أباها فارتعدت وفجأة وجدت نفسها امام منزله. وغاص قلبها.

سلمت على زوجة ابيها بارتخاء . وقالت مجيبة :

ــ انه في السينما . كنت أمر من هنا ...

ولم تتم جملتها .

قالت الزوجة : ــ انت بنت حلال . كان أبوك يكاد يزورك هذا اليوم . ولكنه لم يستطع بسبب الشغل . قلت لنفسي : خيرية تزوجت رجلا ميسورا ، ولعلها تستطيع مساعدة ابيها واخوتها بكم قرش.

رددت خيرية : ــ تريدين نقودا ؟

فنهنهت الزوجة : ــ قلت ، يعني .. يمكن ان خيرية حازت قليلا تعطيه لابيها . أنت تعرفين كم هي صعبة أحوالنا . تشربين قهوة؟

دخلت الزوجة الى المطبخ بحفاوة بالغة. وهربت خيرية بأقصى سرعتها . لم تكن تدري أين تسير، ولكنها ثابرت على اجتياز المسافات. وأخيرا تركت ساقيها ترتميان أنى شاءتا.

على انها بعد قليل شعرت ان شبحا يطاردها منذ زمن . وسربلها الخوف . رجفت اعضاؤها وتجمد اتجاه رأسها . واخيرا ادركت انه « هو » وانه لن يكف عن ملاحقتها . واسرعت . جعلت تطوي الارصفة بارتجاف ساقيها وخوف عينيها .ومرة اخرى لم تكن تعرف الى أين المسير . ومرة اخرى بوغتت : وجدت نفسها امام بيت دسوقي. ولكن لم يكن ثمة احد .

لم تجرؤ على الوقوف . كان « هو » ما يزال وراءها ، وسوف يأخذها الى النظارة . وهكذا غذت المسير . وعادت تقطع الشوارع من جديد .

على باب الشقة ضربت بسرعة ، وكان الخوف يأكلها . مرت ثوان قلقة ، ثم فتح الباب . وانتصب أمامها شاب لعوب العينين طحيني اللون. رآها ، فمد اصبعه على امتداد يده وصرخ بحيوية :

ــ انك خيرية .

وظل مادا اصبعه بحذاء أنفها حتى همت بالدخول . وعندئذ خرج اليها فأمسك زنديها يدفعها بهما الى الداخل . واستمر حتى اجلسها على كرسي وضع الى المنضدة . رمى على ركبتيها فوطة ، وكوم أمامها اربعة ارغفة . وجلس .

قال لطف : أهلا خيرية . هذا أديب . جاء اليوم .

وكان يجلس هو الاخر الى الطاولة.

في نفس اللحظة برز شاب ثالث ، رأته خيرية يكشر ثم أدركت أنه يبتسم . وقال اديب باقتضاب وسيادة ، وهو يمد يده مطرقا :

ــ سعد الدين : أحضر كرسيا لك.

فأتى الاخر بالكرسي ولم يعر أديبا أي انتباه . نظر الى الباب ، ثم سار اليه فأغلقه ، وعاد فجلس .

وبدأ الاربعة يأكلون . قال سعد الدين :

ــ من ذا الذي يقف على باب العمارة ؟

فتوقفت اللقمة في حلق خيرية .

سأل لطف : ــ شرطي ؟ أراهن أنه ذهب.

ونهض فاستطلع ، وعاد يؤكد كلامه .

قال : ــ كلي طبخا . الخبز يجعلك سمينة .

فلبت ذلك ببساطة.

وخطب أديب : ــ أقسم لك ، ثلاثة ايمان بالله ، أنك اذا تركت البيت فسوف أتضور ثم أموت. نحن الثلاثة هنا على استعداد لان نحبك: أنا ، بعنف وتهور ، لطف بعمق ، وسعد الدين بطريقة ميتافيزيكيةمعرورقة معلنفطة .

كشر سعد الدين فابتسم ، واستعذبت ذلك خيرية . قال :

ــ انتظر حتى تصل البنت ، لتطمئن نفسيا الى أننا بالرغم من كلمات لطف الفضائحية لسنا وحوشا .

نظر اليه لطف ، قال : ــ لماذا ؟ نحن نريدها كل منا . صح ؟ لقد قلت لها ذلك منذ البداية لئلا تعتقد أننا ملائكة .

زعق أديب : ــ انكما تعقدان الامور . لا ملائكة ولا شياطين ، بشر. أنا وخيرية بشريان محترمان ، بشريان متحرران . وغدا سنذهب على الدراجة الى القناطر.

وتابعت خيرية أكلها .

قال سعد : ــ أما آن لهذه الدراجة أن ترتاح ؟

فتشنج أديب : ــ أوصلتنا الى الاسكندرية ! أفيتعبها ان توصلنا الى القناطر ؟

وتابعا حديثهما عن الدراجة .

قال لطف : ــ هل تريدين أن تأتي يوميا ، أم تسكني معنا ، أمماذا ؟

فتوقفت عن الاكل تماما . قالت :

ــ أنا متزوجة .

ورد لطف حاسما : ــ وماذا في ذلك . المهم هل قررت أم لا . يجب أن تقرري أنت .

فرددت باضطراب وخفر :ــ ولكنني متزوجة .

فتح لطف عينيه الكبيرتين وقال :

ــ كل النساء اللواتي يأتين الى هنا متزوجات ، ولهن أولاد أيضا.

وانتبه الاخران .

صمتت خيرية . قال سعد:

ــ خيرية متزوجة .

قال أديب بلامبالاة : لا يهم . المهم ان تروي غليلنا وتبقي.

ولم تتكلم ، قال سعد :

ــ ستكون اقامتها معنا تجربة مثيرة .

فرد أديب مكشرا : ــ لماذا ؟ أراهنك أنه لا توجد في القاهرة امرأة تختلف عنها الا في الدرجة .

قال سعد : دعنا من هذا ، ولنمتع حواسنا بميتافيزيقا جسمها.

قال أديب : سيكون ذلك رائعا ..

ونبر لطف : ــ المهم الان ــ اسمع يا اديب ــ ستبقين عندنا !

في مساء اليوم الثالث كانت الشقة تكتسي بطابع جديد منالاستقرار والحيوية والنظافة . وعندما أردفها أديب وراءه على الدراجة شعرت انها دمية مترفة . والتصقت به عندما اجتاز « شبرا » وتقدم نحو حدائق القناطر الرائعة . هناك وضع الدراجة عند بقال قريب واشترى بعض الفواكه ، ثم جعلها تتأبط ذراعه وتسير الى جانبه . وتذكرتسيدتها وسيدها .

قشر أديب موزة ووضعها في فمها . ثم قشر تفاحة وقسمهـــــا ، فتناولت خيرية ثلثا منها بالرزانة التي اقترحها اديب وبالبساطة . واذ همت بقضمها رأت بحس فطري ان اللقمة يجب ان تكون صغيرة.

ولم تترك ذراعه البتة ...

اصطحبها لطف في اليوم التالي الى مخازن القاهرة العالمية ليشتري لها كندرة بكعب عال . واعتقد ان معارضتها لهذا الاصطحاب قد زالـت نهائيا . ذلك انها ذابت في ذلك الخضم الحاشد من عنفوان الحياة . امتصتها العيون وهي تجوس في « محلات زينة » . ضاعت ، لولا لطـف الذي كان يمد ساعده باستمرار . ولقد أخذت تهرع اليه كلما رأت انها ابتعدت عنه . تعمد ان يتركها وحدها لبعض اللحظات ، واذ ذاك أحسـت بثقل العيون . على انها ادركت بطريقة ما ان هذه العيون لن تستطيـع ايذاءها . وازداد اتزان خطواتها وتناغم اهتزازها .

وأخيرا خرجا . لم تجرؤ مطلقا على ترك ذراعه ، خشية ان يوقعها ذاك الرأس الحاد الذي الصقته بكعبها ، على الارض .

وكانت موفورة الارتياح والهناء.

عندما اجتمعوا في المساء الثالث أعلن سعد الدين ـ وقد جلسوا في الشرفة ، وخيرية ترتب الطعام بينهم ـ :

ـ انها في سبيلها الى الذوبان .

فصرح لطف وهو ينظر الى الشارع :

ـ انها تختلف في النوع ايضا .

قال أديب : ـ ما الذي في سبيله الى الذوبان ؟

فأوجز سعد : ـ عقدة الاثم . ماذا : تختلف في النوع ؟

أجاب لطف متأملا الشارع في هدوء : ـ عن النساء اللواتي عرفناهن.

فقرر سعد وهو ينظر اليه : ـ انها تفتقر الى التكيف .

قال أديب متحمسا عابثا : ـ الا انها لا تفتقر الى الحس الرباني.

فتحول عنه سعد نهائيا ، وانقطع الى لطف ، الذي قال :

ـ انها تفتقر الى جرثومة الانحلال المباركة .

وأرخ سعد : ـ انها ما تزال تقيم انسانيتها على أساس الاعتبـارات الكلاسيكية المتعفية للاخلاق . ومن هنا يصعب التفاهم معها.

فخنخن أديب : ـ انها مثل الحمل يا رجل ، حرام عليك.

ـ انها اذن يصعب عليها التفاهم مع نفسها .

وكثرت « الانهات » على مسمعي خيرية فلم تعد تحفظ الكـلام. كانت مسرورة وحسب ، فالثلاثة يتحدثون عنها .

نظر اليها لطف أخيرا فرآها تستند الى باب الغرفة.

قال : ـ اذا حضر الطعام صمت فرويد .

وشرعوا يأكلون ويمازحون خيرية .

بعد العشاء قال أديب متمطيا :

ـ واذا انتهى الطعام رفع فرويد عقيرته.

وظلوا يتحدثون ، حتى أعيا خيرية الكلام فنهضت الى غرفتها.

بعد وقت متأخر من الليل دلف كل من لطف وسعد الدين الــى غرفته .

في اليوم الرابع راح أديب يحوص في البهو مفتلي الذهن . اقترب من خيرية في المطبخ وحاول ان يتكلم . توقف ، ثم اتجه الى الصنبـور فغسل يديه ووجهه . ولم ترفع خيرية رأسها بل استغرقت في بشـر البطـــاطا .

دخل لطف فشرب . والتفت اليها .

قال : ـ ان السيدة الماهرة لا تضطر الى غسيل الصحون مرة ثانية. لقد رأيتك .

فانخذلت ، وسقطت السكين من يدها .

قالت ، وهي تتناول السكين :

ـ صببت عليها ماء فقط.

ولم تستطع ان تبتسم .

خرج أديب . وقال لطف :

ـ ماذا حدث ؟

لكنها لم ترفع رأسها .

دخل سعد على غير توقع ، وهتف بسخرية جاذلة :

ـ أما آن للمرأة ان تتخلص من بشر البطاطا والاستعاذة بالله مـن الشيطان ؟ انهضي ايتها الحورية الفاتنة . الحياة تصلي لكنوزك الثـرة الرائعة ، فالبسي أجود الاراء وتطيبي بروائح القرن العشرين وهلمــي معنا الى السينما .

خرج لطف متحيرا ، وقصد الشرفة وجلس . بعد قليل أشعـل سيجارة . أقبل سعد، على غير توقع أيضا .

قال : ـ ما الذي يمنع الانسان من الموت اذا كان يعيش بشـلث الكرامة التي ينبغي ان يعيش بها الانسان ؟

صمت الاثنان .

قال لطف :ـ هل تقصد خيرية ؟

فخطب سعد : ـ أقصد كل هؤلاء التعساء المتمسكين بالمثل العليا.

صمت لطف فلم يجب بشيء . كان فضاء القاهرة مفرغرا بالضـوء الاغبر ، وحركة المدينة في بدء انتشائها بالليل انتشاء غامضا مرهبا.

ومر الليل . ومانت بطاقات السينما في جيب سعد ، فقد فشـل الثلاثة في حمل خيرية على الذهاب .

وكان أديب حزينا تماما . نام في سريره الى جانب سرير سعد.

وفي الصباح ولى الى الجامعة . على انه لم يستطع البقاء هناك. وعند الظهر آب الى الشقة . وغاص في الكنبة عندما وجد الغرف خالية، وجعل يقـــرأ .

لم يطل به الوقت اذ أتى سعد الدين يحمل تحية كثيفة .

سأله أديب : ـ أين حبيبتنا ، أيها المربي الكبير ؟

فأجاب : ـ أين قضيتنا ، قل . لست أدري ، أليست هنا ؟

ـ أهو لطف من خرج معها ؟

سأل سعد وهو يجلس ، بديمقراطية عجيبة :

ـ وما هي علاقتك بهما ؟ ألم تأخذها أنت الى القناطر ؟

ـ لا بد انه أخذها الى « جروبي » .

ـ انها هي التي تذهب مع واحد منا . عليها ان تقرر بنفسهـــا. يجب ان تنحل عقدة الاثم . مخلفات القرون . الجدار الاسود الذي يشل فعالياتنا ، قل لي أنت : هل تستطيع ان تتخذ قرارا ؟ انك تتكر.

ـ دعها بلا فلسفة ، محبة بالله . أية حريـة ، وأنـت تتسلط على وجدانها بتوجيهاتك .

ونهض يسير في الغرفة .

قال سعد : ـ انك لا تفهم . يجب ان تذوب عقدتها .

فتح الباب فجأة ودخل لطف . أغلق الباب ، وتقدم يجتاز البهـو الى غرفته . لكنه توقف ونظر الى النصبين الماثلين أمامه.

قال ـ ما هذه الحملقة الغريبة ؟

وهرع أديب الى الباب ففتحه وأطل منه . ثم أدخل رأسه ملتفتـا الى لطف .

قال : ـ اين هي؟
فتشبث كل بوقفته ، وراحوا يتبادلون النظر.
قال سعد : ـ هل خرجت تتنزه ؟
فاعترض لطف : ـ ما الذي ينزهها في هذا الوقت !؟
وجلس أديب على الكنبة مسترخيا كلية ، وهتف :
ـ انها تركتنا وذهبت .
دخل لطف الى المطبخ .
قال سعد بصفراوية : ـ كيف فعلت هذا !
وكان أديب قد ثنى اصبعه في فمه واطرق.
عاد لطف يمسح يديه بالمنشفة . قال :
ـ ما يزال الطعام ساخنا ، قوموا الى الغداء .
فنظر اليه الاثنان ببطء ...

في ليل اليوم التالي جلس لطف في الشرفة يدخن . كانت غوامة سيجارته تشع طويلا في الظلام ، ثم تنشر دخانا كثيفا . وتمر برهـــة فيعلو الاشعاع وينتشر الدخان من جديد . ويمر الناس من تحت الشرفة على امتداد الشارع العريض . كانت همهمة منهم تصل الى اذنيه مدغومة بهمهمات مدينة القاهرة . وعلى دائرة الافق انسكبت الاضواء المتــلألئة في ضباب العتمة كأنها تزيح الستار عن ضجيج شفاف .

نهض بطيئا ودلف الى البيت . وعجب من وهم صور له ان احـدا يضرب على باب الشقة . وبنوع من الرغبة ضعيف ولكنه لا يقاوم، فتـح الباب وسار الى مدخل البناية .

كانت خيرية نائمة اعياء . أيقظها بصفعتين ، وانهضها . وبطريقـة ما حملها على كتفيه مجرجرة القدمين ملوية الرأس . وادخلهـــا غرفته فأوكأها على السرير .

أحضر لها ماء ساخنا ، دلك يديها وساقيها ، احضر طعاما ، وسدها على السرير ، وهم بتركها . لكن يدها امسكت بياقته فلم تتركها . نظر في عينيها ، ونظرت في عينيه . وابتسم في سره ابتسامة وادعة وهم بسحب يدها . كانت ما تزال تنظر اليه تلك النظرة الصلبة الجامـدة. ولم تمنحه الفرصة ليفعل ذلك . أرغمته على ان يطأطيء ويقبلها ، وعلى انيضمها ، وعلى ان يجلس الى جانب خصرها . وطوقته كحبيبة ارادت ان تدلل رجلها ، تدلله باعتذار وعطاء وفي واستسلام ، فضمته اليهـا، مدت حول كتفيه ساعديها فارتفعت بين ذراعيه . وكأنما عجزت القبـلة، فانغمر وجهه بشعرها . واستمرا لحظات كأنهما تجمدا الى الابد.

غمغمت : ـ سأبقى دائما ، اذا رضيتم .

وقال : ـ يا خيرية ، يا خيرية . انك من عالمنا ، وكلنا نحبـــك.

كان الاحتفاء بها في اليوم التالي تظاهرة عصبية . قال سعد ان «عقدة الاثم» انتفضت في نفسها للمرة الاخيرة ثم طارت. وأيقن اديـب انه ما من سبب يمنعها بعد الان من اظهار الود له . وجعل الاثنـــــان يتنابزان بألقاب سورية عنيفة ويشنان حربا على الحياة .

وقال لطف : ـ ان خيرية بنت جحيمنا.

وكان صمته الفطري أشد توترا برجوعها من ثورة رفيقيه .

وهكذا اصطحبوها الى السينما يوما ، والى الكازينو يوما اخـر. وركبوا معها قاربا نيليا أزرق في يوم ثالث . وخلال الايام الثلاثة لـــم تنفرد بنفسها لحظة ، حتى في اوقات الطبخ.

قال سعد : ـ ان تصرفاتك ملكك الشخصي.

وصاح اديب بصوت مخلخل :

ـ اننا نحبك جميعا.

وكان لطف يفتح نوافذ غرفته لهواء الغروب . قال :

ـ اسمع انت زوجها الذي لايترك صلاة . لعله لا يعلم ان كـــل الدراجات والعجلات التي في العالم عاطبة .

ودخل البهو فاجتمع ورفيقيه حول خيرية ، وحاصروها بدبكـــة سورية حارة . وبعد قليل ذهب الاربعة الى السينمـا . وكان كل شـيء رائعـــا .

* * *

بعد ان خرج الثلاثة في اليوم التالي ، ومكثت خيرية بعض الزمـن ترقب الابنية الملاصقة وتمتص السكون الغامض الذي احتضنها ، جلست على الكنبة . واخذت شمس الضحى ترسل في قرارتها شعورا بانهمـاك القاهرة في صخب عالمها الرحيب. تأملت الجدران طويلا والنوافـــذ. ثم نهضت الى غرفتها . لم تدر ماذا تفعل هناك فعادت . كان البهـــو مقفلا ، وسكونه رصاصي الايحاء .

فجأة ، سمعت صياحصبية يتدافرون على سلم البناية المقابـــلة. تقدمت من النافذة وراقبتهم . كانوا يضحكون ويشتمون ، ثم يضحكون من جديد ويتدافرون على السلم .

واخيرا اختفوا ، ولم يعد يسمع سوى اصواتهم . وفي ثـــوان تلاشت الاصوات . عادت خيرية الى غرفتها ، تناولت صرتها ، وخرجت من الشقة . لم تنظر وراءها ، ولم تلتفت الى احد . سارت بسرية وهدوء وبطء . وكانت شاردة العينين. اجتازت « باب الحديد » ثم «الفجالة» وغاصت في مدينة القاهرة .

وصلت الى منزل دسوقي اخيرا ، ولطمت الباب بيدها . استرخت ترقب الشارع الخاوي كأنها زفير رخو . ضربت ثانية ، ولم تلتفت نحو الباب ، ثم جلست على العتبة . وضعت راحتيها تحت ذقنها واسترسلت تتأمل الشارع مقفلة الحاجبين .

ارتعدت عندما فتح الباب ، ونهضت بذعر عظيم . وراءها لمحـت رجلا شيخا شديد السمرة . واذ التفتت مأخوذة نحوه، سألها:

ـ يا ابنتي ، ماذا تريدين ؟ هنا لا يوجد شباب .

قالت له ببراءة : ـ هل تعرف ... انت تسكن .. لا مؤاخذة.

قال : ـ مع السلامة . ليكن الله في عونك .

ومكث يتأملها . كان لعابها قد زرب على شفتها . وجمدت بـــلا حراك ...

عندما أدركها الليل أخذت تبكي. وكان بكاؤها قسرا . تدحـرجت الدموع على خديها عنوة ، لم تشهق لها ولم تفتح فما . وتساقطت قدمها على الرصيف ، لم تجرؤ على الوقوف . وبعدئذ انفردت بالليل والشارع في مكان ناء من المدينة ، وقد ادركها التعب والجوع ولم تستطع انتفهم الكثير عندما توقفت سيارة صغيرة الى جانبها ، فأحست ان عليها ان تدخل . كان خيطا الدموع النحيلان يهويان على خديها وتمددت الـــى جانب شاب يضع خرقة نظيفة سوداء في فتحة ياقته.

في بيته ، تناولت عشاء وقسطامن الراحة . ونظر اليها مبتسما. رمى سترته بعفوية ، وخرقته وقميصه ببساطة .

قال : ـ أنت تعبانة ؟

تقدمت ، وأغلقت الباب وراءها . وهنالك بكت حتى تصـــلب صدرهــــا .

خرجت بعد ذلك ، وتقدمت بسرعة عمياء الى الغرفة ...

ـ ٥ ـ

قال سعد :

ـ غدا ، يوم أعود الى طرطوس وأستقر نهائيا ، سوف اذكر الـــى الابد هذه الخيرية . عالم ، وفطرية جامحة ، ووجدان مترجرج ... ومـا لست أدري ... انك لا تعرف السبب ، ولكنك تجد ان النفس شيء وكل ما حولها شيء اخر .

قال لطف :

ـ جاءتني اليوم رسالة من أبي يطلب مني فيها ان احصل عـــلى جواز سفر وأذهب فأقابله في البرازيل . انه ليس معقولا ان احصل على جواز سفر واذهب الى هناك ، ولكـن تصور فقط ، كـم ان هـذه الانتصابة التي هي جسمنا تحاول ان تمد جناحا حول العالم : البرازيل والقاهرة ومنشوريا .. وأب يمضي عمره في الطرف الثاني من العـالم، يحلم بابنه ولا يراه .

قال سعد الدين :

– يجب أن ندرس التقاء الاقاصي في هذا العالم . ههنا ظاهرة هي قبل كل شيء وجودية : ان اعماق النفس التي تكبلت بقوالب الماضي تمزق خيوط العنكبوت الثقيلة ، غير مرتبطة حتى الان بسوى عفوية طبائعها العارية . في طرطوس سيتوفر لدي الوقت ربما لكتابة مسرحية أو بحث عن هذا التخلع.

انبثق صوت اديب بنرفزة – وكان يتكيء الى باب الشرفة – :

– انكم مقرفون في الواقع ، وباردون ، غليظو القلوب . كل منكم يحاول ان يشعر برجولته فيحلل مآسي الاخرين ضمن معادلات نفسية ميتة .

بعد صمت قصير سأل لطف بمحبة وسخرية :

– أما زلت تعتقد أنها ستعود ؟

وأجاب أديب : – ما أزال أعتقد أنكم بليدون .

سأل سعد : هل تذهب معه الى البرازيل ؟

وكشر .

رد أديب : اذهب معه انت ، في البرازيل مخاض مماثل .

وتركهما .

قال لطف : – منذ عشر سنوات لم أره.

قال سعد : – وماذا تنوي أن تفعل ؟

قال لطف : – لست اجرؤ على التفكير . ان امثالنا لا يملكون في هذا المجتمع سوى الهوية المدنية ، ونحن عاجزون عن كل مسؤولية كأننا أبناء غير شرعيين لهذا العصر.

وبغتة أزت صيحة صاخبة من اديب ، وتبعها زعيق هستيري . وراح يعوي وينبض في البهو ويرفع رأسه عاليا فينزله ، ويده تنتصب عمودية في الجو .

تقدم لطف الله وسعد الدين فوجدا خيرية بالباب . كان وجهها وعيناها وفمها ووقوفها صامتين زائغين . لم تتكلم . واستمرت عيناها تنصلبان على زاوية منحرفة من ارض البهو. تنحى أديب جانبا ، ودخلت هي مطرقة الرأس ملجومة الخطى الى غرفتها ، واغلقت على نفسها الباب . وبقي الثلاثة اشبه بالتماثيل بعض الزمن ، ثم قرروا اقتحام الغرفة . وهناك وجدوها تبكي مكبة الوجه على الوسادة .

انسحبوا بهدوء ، كل تاركا فوق رأسي رفيقيه ضبابا كثيفا من الصمت . واسترسلوا في عباب النفس حتى ادركهم النعاس ...

وتلك كانت المرة الاخيرة التي ابصروا خيرية بها . في الصباح التالي غادرت الشقة ، ولم تكن تعرف الى اين . وهكذا استمر سعد الدين يحلم بمسرحيته ، ولطف بعلاقاته العائلية . وبقي اديب يذكر خيرية بحزن وثورة احيانا ، وبحنين خاسر احيانا اخرى.

أما هي فقد انطلقت الى الشارع ، حتى اذا أقبل الليل يفتح امام عينيها نفس المعبر الاسود ، ابتاعت تذكرة من كشك دار للسينما وجدته امام وجهها . ودخلت فجلست . كان الناس يتوافدون صامتين تقريبا ، هادئين تقريبا . ومعظمهم كأن يصطحب معه فردا اخر. وسرى الجو الدبق في اعصابها ، بستائره الحريرية وشاشته المستطيلة، وامتداده الانسيابي المهيب . واسترخت في مقعدها جيدا .

انتهى العرض فظلت على مقعدها . وراقبت الاجساد الكسولة في انتصابها وتحركها البطيء ، في الوقت الذي بدأ يتلاشى ضغط الفيلم عن اعصابها . تأملت الشكل تلو الاخر حتى فرغت الصالة . واستقرت عيناها على مدار الدار العريض العالي ، في تأمل طويل للستائر الوردية. ومضى زمن .

اقترب منها عامل السينما وقال برقة :

– سوف نكنس يا هانم. لو سمحت يا هانم والله.

فنظرت الى كتفيه العاليين بضراعة. ندت من فمها آهة حين وجدت نفسها اخيرا وجها لوجه امام المشكلة التي ابعدتها عمدا . ونفحت انفها رائحة كتل لحمها الثري اذ تنجيف كل ليل تحت تعرق الجلود الثخينة ، لتستلقي في النهاية بركانا أسود الجدار خامدا .

سألها العامل بيأس : – أأنت واحدة منهن ؟

فقالت مذعورة : – ممن يا بيك ؟

– بنات الليل .

فهتفت بعمق : – لا ، والله العظيم . ولكن لا بيت لي.

وقال العامل متفلسفا : – هذه مشكلة فعلا . ألم يكن لك بيت أبدا؟

فطفر الدمع من عينيها وأومأت أن نعم . اقترب العامل منها وقال:

– ان الله لن يتخلى عنك يا أخت .

فغمغمت : – لقد تخلى يا بيك ، تخلى من زمان.

اقترب أكثر وطلب اليها ان تقص عليه حكايتها . وظلت تبكي مطرقة مجهشة ، ثم همهمت :

– لست ادري يا سيدي . ماذا أقول لك ؟

عندما رفعت رأسها لمحت الدموع في عينيه . واطمأن قلبها .

نظر العامل حوله : كان رفقاؤه يكنسون الصالة . ونهض عن مقعده .

قال : – تعالي اسكني مع أختي. هناك لن يمسك احد . انا واختي نقيم في دار فيه غرفتان وفسحة ومطبخ. نامي معها في غرفتها، وانا في غرفتي. هناك لن يمسك احد ، وستعيشين شريفة.

وبعد برهة اضاف : – الله يتخلى عمن يتخلون عنه ، فلا تتركيه.

لم تجب بشيء . اكتفت بالحملقة الى وجهه .

خاطبها ثانية : أما كنت تقولين أن الله تخلى عنك ؟ ماذا تريدين أكثر من مكان يؤويك فلا تضطرين الى ارتكاب الحرام ؟

وساد صمت حرج.

قال : – ظننت أني سأهديك ، سأعلمك الصلاة لتري كم هو جميل أن يعيش الانسان تقيا . واستدار ليذهب .

تمتمت : – وهل يغفر لي الله ؟

فالتفت مبتسما :

– طبعا . يغفر الله لكل ذي توبة مخلصة .

وعلى الطريق قصت له حكايتها ، وهو يصغي بانتباه عميق. وسألته اخيرا :

– هل سأكون طيبة ؟

– حتما . توكلي فقط على الله .

فقالت لنفسها ان كل ما لاقته من ذل وما غرقت فيه من اثم نتيجة لعدم استعانتها بالله والتوبة اليه. وهجم الله فجاس في غضون نفسها، وعلقها في الفضاء ، ثم شع في الكون نورا ودعوة . وتندت زوايا عينيها.

التفتت الى رفيقها تقول : – متى اكون طيبة ؟

فأجاب بثقة : عندما ترضين الله باستمرار .

كانت أخته نائمة . أيقظها ودفع اليها بخيرية .

قالت : – من هذه يا عبد الجبار ؟

فأجاب بانشراح : – هذه أخت لك .

كانت خيرية تحملق بشرود وجبن . وفي ثوان لانت جوانب نفسها ببعض الاستقرار . ولم تلبث الطمأنينة ان سربلت أضلاعها عندما فرشت لها « اختها » فراشا ، فنامت غنية عن كثير من حركات نومها السابقات.

أيقظتها آمنة – وهذا كان اسم اختها – لصلاة الصبح . وبعد الوضوء والصلاة جعلها عبدالجبار تكرر هذا الدعاء :

« الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات طبائعنا ، ومما أتت ايدينا من الاثم . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له . وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له، واشهد ان محمدا عبده ورسوله » .

وقال لها انه يطهر النفس . ثم كرره لها في المساء مرات ، وقال :

– ان الابتهال يا خيرية يغسل النفس مثل الصابون.

فشعرت بفرح عميق ، وقالت :

– ما معنى من يهده الله فلا « مضلل له » والذي بعدها ؟

قال : – من يهده الله فلا « مضل » له . ومن يضلل الله فلا

هادي له . أي اذا أراد الله ان يعذب نفسا ، فلا احد بمستطيع انقاذها. وكذلك اذا انقذ الله نفسا فليس من يمكنه تضليلها .

ارتعشت خيرية قليلا .

وتابع عبد الجبار : — أما اذا خالفت الله وضللت فلن نخلص حياتك من العذاب والمذلة.

فهتفت مبهورة :

— ولكن اذا تبت فسوف يهديني الله !

قال عبد الجبار بارتياح : — هذا طبيعي.

وأعقب : — لقد عذبك من قبل لانك ضللت طريقه . أما الان فهو قد رحمك ، ونهض الى عمله في السينما .

لبثت خيرية في مكانها برهة . ثم تقدمت ، فابتسمت آمنة لها بحنان كبير . ودخلتا غرفتهما . جلست آمنة تعمل ببعض الملابس، فيما وقفت هي وراء كنبة واستندت عليها .

بعد دقائق أحست بالحر . وهرعت الى النافذة . لكنها توقفت بنفس السرعة عند مقبض المزلاج ، كمن تذكر شيئا أهم من عمله الحالي. عادت الى الديوان ببطء . وجلست ترقب باهتمام آمنة التي قعدت على السجادة ترفأ ثياب أخيها ، وقد تملصت بضع شعرات من نصيفها فسقطت على وجهها .

ابتسمت ، ووثبت فأمسكت بالثياب .

قالت : — أريد ان اعمل شيئا . أعطني الثياب لاشتغل.

وفوجئت بأن آمنة امتنعت بعناد هاديء رزين عن تسليمها الثياب. ولما لم تجد سببا لذلك أمعنت في طلبها . وعجبت في النهاية من اصرار آمنة . جلست الى جانبها ، كتفاها عاليان ويداها عميقتان في حجرها. صمتت ، تنهدت ، وراحت تراقبها .

أحست بالحر ثانية ، وهرشت بعض جسمها . نهضت الى المرآة الصغيرة المثبتة في الجدار . رفعت فستانها عن جسمها ورمته على المشجب الصغير . واهتز ثدياها داخل الصدارة ، فاضطربا خارج قميصتها الزهرية وعادا الى الداخل . تقدمت من المرآة فمشطت شعرها بمشط كسير ، ثم ربطته . وعادت فجلست الى جانب آمنة . كانت آمنة تتنفس ببطء ورتابة وبصوت مسموع ، وقد استنقعت عيناها في الثوب الذي تمسكه .

نهضت خيرية فلبست فستانها .

قالت آمنة : — أنت تطبخين جيدا .

فأجابتها : — تعلمت ذلك في بيت الباشا .

وأحست بالحرج لانها لا تتحدث لآمنة . وما لبثت ان استغرقها تذكرها للبيت الكبير ، فقامت تتجول على غير هدى في الغرفة. وامضت هنيهات كثيفة وهي تستعيد حياتها هناك وصورتها العارية في ظلام الغرفة وتجولها . واخذتها رعشة ثقيلة . هرعت الى جانب آمنة، التي كانت قد سألتها :

— لماذا رميت ثم لبست فستانك ؟

فلم تدر بماذا تجيب . وتسلل احساسها تلك اللحظة الى فمها ، فقالت :

— الدنيا برد ..

ثم استدركت : — قصدي .. حر .. الدنيا حر .. لكن .. أنا خائفة ، برد !

وفوجئت بالدمع ينبعث من عينيها عنوة وصاحت بيأس مفاجيء :

— ماذا أفعل ؟.

ارتفع رأس آمنة بسرعة ، وبسرعة مدت يديها وألقت بينهما بالرأس الباكي . وأجهشت خيرية ...

قال عبد الجبار بعد ان اصغى مليا في الصباح التالي :

— هل تعذبت كثيرا بسبب ماضيك ؟

فزقت بصوت دامع : — انه حكاية صعبة يا سيدي .

وفرش يديه امام وجهها قائلا :

— انما يجب ان تطمئني وتفرحي ، فروحها لم يقتصبها الشيطان. ابعديه عن نفسك وروحك . لقد احسنت بعدم فتح النافذة ، فالبيت محوط بالناس . ولكن حاذري ان ترفأي ثيابي فهي تذكرك . البسي تحت فستانك ثوبا طويلا فقد اوصانا الله بستر العورة . ولا تتركي رأسك حاسرا .

وبدا لها حينئذ شبيها بانتشار خفي يملأ ساحة الدار وتتزن على شفافيته مجاميع العالم ، كأنه قنديل يضيء في بركة ماء . اسرعت الى آمنة في الغرفة الاخرى ، وجلست على الديوان بغبطة لجماء. راقبتها وهي تدخل الخيط في سم الابرة . وانتبهت الى ثوبها فراقها. نهضت الى الدولاب ولبست واحدا .

نظرت الى آمنة فرأت أصابعها ترمح فوق القماش الابيض الطويل، ورأسها ينكفيء فوق نحرها وقد افلتت منه شعيرات اكثر من قبل.

سألتها بغتة :

— آمنة لم لم تتزوجي ؟

ورأت عينيها ترتفعان نحوها ، شبه خامدتين لولا لمعة قصية في محيط البؤبؤ .

هتفت آمنة : — الزواج قسمة ونصيب .

فتذكرت خيرية زواجها ، الذي تم بنفس المعنى .

سألت : —ماذا يعني ؟

ورأت على شفتي آمنة بسمة حانية عاقلة .

هتفت امنة من جديد : — عندما يظهر ابن الحلال .

وتذكرت خيرية دسوقي . صمتت برهة تفكر ، ثم سألت: وكيف يكون ؟

— لست أدري . مثل عبد الجبار .

فصاحت : — انهم كثيرون !

وعقبت آمنة بهدوء : — بالعكس . مثل عبد الجبار لا يوجد في القاهرة كلها .

أمام هذا الجواب سقط خيالها في الظلام . وشيئا فشيئا زاولها خمول وأسى ، واستلقى أمامها الزمن كسيارة شحن فارغة تسير ببدعة وبطء .

ونامت تلك الامسية شديدة الحرص على ذكر الله .

قبيل الضحى فتحت الباب لطارق غريب . تلقت منه سلتي خضار وحاجيات .

ـ قولي للشيخ عبد الجبار ان السمان ..

وهمت باغلاق الباب فاستوقفها التفات السمان المأخوذ اليها.

ـ مالك ؟

ـ أنت زوجة الشيخ ؟

فردت باستحياء : ـ لا انا اخته .

ـ اخته ؟ مئة فل ! قولي له ان الحاجات هذه بلا ثمن ، لا بل قولي له انها بنصف ثمن . كلا ، كلا ، قولي انها بثمن كامل ولكنني انتقيتها خصيصا ، الشيخ عبد الجبار هذا بلاء . السلام عليكم.

ـ مع السلامة !!

وادخلت السلتين الى البهو . تلثمت جيدا واشعرت عبد الجبار بوجودها . وفي برهة أطل من الباب.

قالت بخفوت : ـ هذه الحاجات من السمان . قال انها بلا ثمن ، او بنصف ثمن او بثمن ! لم افهم .

قطب عبد الجبار وقال : ـ ماذا ؟

فغمغمت : لست ادري . كان يريد ان يقدمها بلا ثمن ، ثم خاف منك.

وأصر هو : ـ ماذا قال؟

فردت بضجر : ـ لست ادري . قال شيئا وقال عكسه .

وأعقب كلامها صمت قصير . دخل عبد الجبار الغرفة . خرج . أشار لها ان تأتي وسار بهدوء الى غرفة آمنة .

تبعته وهي في بدء احساسها بغموض مهيب ، وجلست على الديوان. وسرعان ما تحول احساسها بالمهابة الى ارتباك ، عندما سمعت عبد الجبار يحدثها عن موضوع مختلف تماما وغير متوقع.

قال : ـ خيرية ، اريد ان أكلمك كلمتين . اتعرفين الحليب؟ الحليب الدسم الطري من ضرع الجاموسة ؟ انك مثل الحليب . انفيك كل ما تشتهي النفس وهذا هو سبب شقائك . هذا هو السبب في ان حياتك أضطربت وغرقت في الخطايا والاثم والشر ، ولبسها الشيطان. حدثك زوجك عن المثل العليا وعجلني الدراجة ، ولكن كان هو نفسه مطية الشيطان حين استغل جهلك فزوجك وهو لا يستطيع حمايتك. ثم غرقت في الاثم والرذيلة الى اذنيك . انك خاطئة الى درجة قصوى. وقد زاد مشكلتك حدة ان كل الناس الذين حولك خطاة ايضا وضالون. الشيطان يقفز الى كل نفس . وانت ضعيفة ولا تستطيعين مقاومة الاغراء ـ كل الناس ضعفاء . يجب ان تتجنبي التعرض له ، عيشي بعيدة، كوني محبوسة دونه ، اغلقي عينيك وقلبك واذنيك عنه.

وتأملها قليلا واردف : ـ عندما رآك السمان قفز الى نفسه الوسواس الخناس . انني اعرف تماما ماذا جال في خاطره . فهو مثل كل الناس في هذه المدينة لا يردعه وازع من دين ولا خوف من خالق . ان العالم الذي يحف بك مليء بالضمائر الملوثة . فاذا أردت توبة حقيقية ابتعدي عن غوايات النفس .

طيلة هذا الوقت كانت خيرية تحملق الى وجهه صامتة رتيبة الانفاس .

قال لها : ـ ما رأيك ؟

فانتفضت اذ وجدت ان عليها ان تصدر حكما.

قالت : ـ لا ادري ! انا تبت ، تركت الشيطان .

وانحدر رأسها نحو آمنة ، وشهقت فبكت .

نهض عبد الجبار تاركا الغرفة . قال :

ـ لا تنسي : انك تقهرين الشيطان ولكنك لا تميتينه .

وهتفت آمنة بصوتها الخفيض :

وكانت خيرية تبكي الان : صوتها ينحب وجذعها يهتز . وتهاوى جسمها عن الديوان كشاة ذبحت امام وثن ، فيما ملأ مفرشي الديوان خديها وبكت مفلتة الاعصاب .

بعد حين استدارت بين ذراعي آمنة . نهضتا، وتوضأتا ، فمثلتا بين يدي الخالق .

وسلت الصلاة من بلور نفسها خيطا قصديريا أزرق فشف وشعشع وتحذف . استرخت على البساط مغمورة بكآبة قريرة . وسرح العالم امام عينيها محجبا بزجاج كثيف .

في الايام التي تلت ، احبت خيرية ساحة الدار كثيرا . وقفت عند الشجيرات الصغيرات ما طال الوقت بها ، حتى اذا انتبهت اندفعت نحو الغرفة في سرعة ملحوظة . واذا تؤدي عملها ـ لم تكن تستغرق فيه طويلا ـ تعود الى النافذة المطلة على الساحة فتكنو هناك زمنا يتجاوز الساعتين او الثلاث ، وهي مقلوبة الشفة متنقلة العين على نفس المرئيات ، وتناديها آمنة فتقفز اليها ، وبعد لحظات تقف امامها. عندئذ تكون قد انتقلت من سكون النوم الى تهيج اليقظة.

الذي تغير كان شيئين عاديين . أصبح عبدالجبار يفضل ان تحضر آمنة طعامه ، واصبحت هي تنام كثيرا . استغرقها النوم كما تستغرق الالة حركة محركها ، فمنذ صلاة العشاء حتى صلاة الصبح لا تستيقظ ساعة واحدة . وعند الضحى تنام ساعتين او ثلاثا. وكذلك بعد الغداء. اما العصر فتقضيه وراء النافذة ، كأن ساحة الدار استحالت الى عالم مسكون .

قالت لها امنة مرة :

ـ الست تلاحظين شيئا وانت تسيرين ؟

فاجابت بمحبة :

ـ الاحظ أني اريد ان اقوم عنك بكل الاعمال .

وضحكت .

ابتسمت آمنة ، وألحت :

ـ ألا تلاحظين شيئا ثانيا ؟

فتطلعت حولها متسائلة، وقالت بخوف باسم :

ـ ماذا ؟

ـ انك لا تسيرين بل تركضين .

فصاحت : ـ صحيح ؟! كنت هكذا في بيت سيدتي.

نظرت اليها آمنة مطولا ، فتلاشت حيويتها ببطء ووقفت تبادلها النظر بخوف عابث .

قالت آمنة : ـ انك اذ تركضين تظهر عورتك. وهذا حرام كما تعلمين .

فسألت باضطراب : ـ ما هي العورة ؟

ـ هي كل شيء بعد الكاحلين هذين ، وبعد المعصمين هذين ، وهذه الدائرة من الوجه ، يجب الا تظهر.

حملقت اليها مستطيلة الوجه واسعة العينين.

قالت آمنة : ـ انك تركضين . صدرك يهتز . ثوبك يرتفع للاعلى. كل ... وطرفاك السفليان يظهران . اذا لم يرك احد ، فأنت ترين أعضاءك ، تتهيج نفسك ، يوسوس الشيطان ويخنس لك . اذا نظرت الى اعضائك اشتهت نفسك ، وهي أمارة بالسوء .

نظرت خيرية ببلاهة وألم ، وامتقع وجهها .

ـ ماذا يوسوس لي ؟

فاعلنت آمنة باختصار : ـ شيئا مما حدث من قبل . انك تقهرين الشيطان ولكنك لا تميتينه .

تذكرت حياتها الماضية بسرعة. واستقر ذهنها عند البيت الكبير. تذكرت تعريها في الليالي ، ورداء سيدتها ، والاندفاع الحار الذي اتسمت به حياتها . جفلت . أعلنت بخوف انها تتمسك بحياتها الجديدة، وشعرت بحاجة قصوى للراحة .

سحبت آمنة من عنقها سلسلة خبيثة فقبلت المستطيل الذهبي الذي

حملته ومدته لخيرية :
ـ القرآن .
وقبلته خيرية بحرص عظيم .
ثم اصبحت لاتغادر الدار ، لا الى بابه ولا الى ساحته . وتوزع يومها بين المطبخ وغرفتها ، عملا ونوما . فاذا سارت سارت بطيئة ، واذا تحدثت فبصوت خفيض . لم تعد تقابل عبد الجبار الا في اوقات الصلاة والاستماع للتلاوات . كان يأتي الى الصالون فلا يلتفت ، ويجلس فيقرأ القرآن ، واذ ينتهي يغادر الى غرفته بهدوء جميل. وتنتقل خيرية وراء آمنة الى الغرفة الاخرى مرضية الخاطر ساكنة النفس ، فتبسم لها اذا التقت أعينهما ، وتجهد في ان تسبقها الى ترتيب الغرفة . ويمر الصباح فتعلو الشمس مرة اخرى فوق سطح البيت الكتيم ، ثم تنتصب ، فتميل، وتنام قبل خيرية بقليل .

بعيد حديثها الاخير مع آمنه اصبحت تعشق النوم. انفتحت امامها رؤى، كان عبد الجبار يبثها في خيالها منذ دخلت الدار . وصار النوم وسيلة تخفف شوقها المشبوب لتلك الرؤى . انها ستصبح طيبة في النهاية ثم تحتل مركزها في الجنة . وحاولت ان تتصور ذلك المكان السحري فما عثرت على غير الرؤى . « هناك مكان لا يمكن تصوره ، ولكن قولي انه كل الروعة والسعة والسرور » ، قال لها عبد الجبار.

قالت لامنة مرة :
ـ أتعرفين ؟ الجنة ! الله ، سبحانه وتعالى ، ينزل حبلا مثل حبل الغسيل من السماء والارض ، ويأتي عزرائيل فيخلص الروح ويجعلها تمسك الحبل . الحبل هذا يعلو ، يعلو الى مكان عال ، عال ، وهناك تدخلين الجنة .
ابتسمت امنة دون ان ترفع عينيها .
قالت خيرية بتأمل عميق :
ـ تعرفين ؟ النوم أحسن شيء في الدنيا . يوما ما ستنامين النوم الذي يريحك الى الابد.
وجعلت تؤمئم بهدوء وغبطة ، وتتأمل جدران الغرفة الخضر، وخشب النوافذ الاخضر ، حتى شعشع النوم في اهدابها .
في اليوم التالي قالت لامنة :
ـ أنا كنت مجرمة ، مجرمة كبيرة . ولو لم يغفر لي الله لكنت، لكنت .. في حالة سوداء . لكن انا الان ـ أنا تبت ، انتهى.
وصمتت برهة ثم قالت :
ـ سوف يطلقني دسوقي قريبا . سوف ينتهي كل شيء .
أمام هذه الفكرة شردت في الصباح التالي عينا عبد الجبار قليلا ثم اشتد فمه وقست ملامح وجهه النحيلة . قال :
ـ قال لنا الله ان هناك شيطانا، بوسعه ان يغوي النفس . انعليك أن تصلي لله فتنقطع صلات الشيطان بنفسك . ودار الزمن . في هذه المدينة الملعونة ، من يصلي ؟ من يتقي « النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ؟ لقد ذهبت ريح الصلاة وبقي الشيطان يهب على النفس فيقذع وجدانها وضميرها . هذا الدسوقي ...
وبصورة طبيعية توجه الى خيرية بالحديث :
ـ هؤلاء المجرمون ! ليذكروا قول الله « ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين » بماذا يطمعون وقد أعد الله « جنة عرضها السماوات والارض » فيها الكوثر وكل ما تشتهي النفس . كيف تنزلق أقدامهم في وحل الشر ، كيف يمرغون وجوههم بقذر الخطيئة ؟ كيف يدنسون أوقات الصلاة بالشهوة والكفر ؟ كيف يستيقظون واجسادهم تعبق بالاثم ؟..

انطرحت خيرية على الارض . وهذا هو الذي أوقف عبد الجبار عن كلامه . نظر اليها مشدوها ، والتوى رأسه . وكانت قد بدأت تبكي بكاء أقرب الى العواء ، فاستوقفه صوتها الغريب . راح يحدق اليها متكورة عند قدميه ، كأنه لا يعرفها. ولم ينتبه الا حين تقدمت آمنة بهدوء عظيم وأمسكتها من ذراعيها . نظر الى المرأتين ، أولاهما تنبح موتورة ، والثانية تبكي بصمت وتتمتم ببعض الادعية . بعد دقائق استطاع حلق خيرية ان يخرج الصوت التالي :
ـ آه ـ اه ـ اه ـ اه ـ اه ..
انسحب عبد الجبار ، وبقيت آمنة تسند رفيقتها . طيلة ربع ساعة غمر المسكن هدوء شبيه بالموت ، لم يقطعه سوى الشهيق الذي رافق تنفس خيرية ، بعدئذ انفتح باب الغرفة ، وتقدمت خيرية الى الغرفة المقابلة.
استقبلها عبد الجبار بصمت .
قالت : ـ أريد ان اطلق يا سيدتي.
واحتزت صدرها شهقة شديدة .
قال برأفة : ـ اراك تتعجلين الطلاق.
فانبثقت بكليتها في جملة مباغتة :
ـ أريد ان يطلقني وتتزوجني أنت.
وأحستبأنها تريد ان تنطلق بأقصى سرعتها الى الفضاء ، وانيحاول بعد ان يراها .
وقالت بسرعة عظمى : ـ أنا خائفة .
انكمشت جلدة رأسه ، وبهت . تابعها وهي تنصرف باضطراب بين ، قال :
ـ خيرية ، تعالي .
فاقبلت اليه ، وأخذه الاضطراب .
تمتم : ـ قلت ان اتزوجك ؟
فتجمع توقها في جيشان باطني حار :
ـ أيوه . أنا أحبك ـ والله .
وكان خداه مصقولين ممسوحين . قال :
ـ و ، و ، ولكني .. كيف خطر لك ؟ هل كنت تفكرين في هذا من قبل ؟
واذ انتهى من جملته غمرت وجهه دهشة كان ينبغي ـ لولا انفعال الضيق ـ ان تظهر منذ البداية . وعاد اليه الضيق ثانية ، فزفر.
قال : ـ صلي ، يا خيرية . صلي بقلب مؤمن .
كانت هي مطرقة معقودة الاصابع.
قال : ـ صلي ، ولا تجعلي مطالب النفس سببا لايمانك.
وراعه تلك اللحظة تعلقها به . قذفت موجة جامحة من الخوف نفسه ، وأحس ان خيرية تريد ان تكونه بالذات.
قال : ـ لو تزوجتك ، ما الذي يكون لهذا الايمان الذي انقذك من فائدة .
سألته وهي على مشارف البكاء :
ـ ألم أصر طيبة بعد ؟
وقبل أن يجيبها أدرك حرج الجواب ، وأحس بالضيق .
ـ هذا شيء يقرره الله .
فصمتت برهة ، ورددت بيأس :
ـ اذا لم ترض أنت ، فكيف يرضى الله ؟
ومكثت الى جواره ريثما جمعت قواها لتسير . ابتعدت . لم تع شيئا من كلماته ، فقد ضاق صدرها برغبة لم تستطع تنفيذها ، هي ان ينتهي كل ما حولها . وصلت الى الحمام فأسندت رأسها الى القازان، وحاولت ان تدرك هذه الاقاصي المترامية التي تفصل عبد الجبار عنها وسائر الناس . وفشلت فلم تصل لغير الحزن. أحست آنئذ بالتعب وتراخت أعضاؤها ، ودلفت الى الغرفة فنامت منكبة الوجه زمنا طويلا.

ـ ٦ ـ

بعد أيام قليلة تزوجت خيرية رجلا ثانيا . في ضحى يوم جمعه ذهبت مع السمان ، الى مأذون زوجهما بحضور شاهدين من أصدقائه، على سنة الله ورسوله .
لم تقل لامنة لماذا اتخذت هذا القرار الذي أعادها الى وحشة

الحياة المفلتة ، حيث تتعطل جدوى الصلاة وخشية الله . ولم تقل لي أيضا . أعرضت عن ذلك عمدا . وتلك كانت الناحية الوحيدة التي لم استقصها مطلقا . كان التفكير فيها أجرح لمشاعرها من أن تتحمله.

سارت الى جانب السمان ، وكانت طيلة الوقت ترتجف . عندما وصلت الى بيته أوصدت الباب جيدا ، انصرفت الى المطبخ . رتبت البيت على نسق جديد . واذا أقبل الليل استلقت على سريره مثل تمثال من السفنج الحار .

وأقبل اليها بعضلات جسمه المتينة ، مبتسما خفيف الظل ، وقال:

ـ اعتبر نفسي محظوظا جدا، كيف حصلت عليك من ضريح المومياء. اعتبر نفسي ملكا .. ماذا ؟ بلا كلام ؟ طيب ! هاتي بوسة.

وقبلها بسوقية .

ـ كيف ؟ عجبتك ؟ طيب خذي هذه.

وقبلها ثانية وهو يحضنها .

قال : ـ اعرفي انك لذيذة ، لذيذة ، لذيذة . انت اجمل امرأة في القاهرة . جسمك أجمل جسم في العالم .. أممم..

بعيد شروق الشمس استيقظت . نهضت ففتحت باب النافذة الخشبي ، وتنفست بعمق . كانت قلة من المارة تسير والشارع هادىء يستعد لاستقبال الحياة . تنفست ثانية ، واستدارت نحو الغرف الجميلة الانيقة، تريد برغبة موجدة أن تعرفها وتتلمسها .

دق الباب دقا خفيفا ، نظرت اليه ، وبسرعة قررت ألا تفتحه. واذ دق ثانية ، تعللت بأنها لا ترتدي ثيابا كافية . انصرفت الى النافذة من جديد وأرسلت عينيها نحو الشارع المستيقظ . كانت سيارة اجرة تنطلق مسرعة في اتجاه النيل ، ورجل يشير بيده عاليا . الى يمين الشرفة ترتبت البنى في صف طويل ، وبدأ بعض النوافذ يفتح. في الشرفة المقابلة رأت بابا يفتح ، وصبية في مثل عمرها تخرج منه . فتحت الصبية ذراعيها لشعاع الشمس الذهبي ، وشع وجهها مخضلا بالنور .

تحرك زوجها في السرير فانكفأت اليه . كان ما يزال نائما. تقدمت تجوس في الغرف الاخرى . وتوقفت اذ سمعت الدق الخفيف على الباب . رفعت رأسها مسترخية الفم ، وتحرك قلبها بمزيد من النبض. تكرر الدق ، وبدا عصبيا . تقدمت باضطراب فتحت الباب قليلا .

هنالك انتصب هو ، عبد الجبار . علت قامته النحيلة وامتد كتفاه العريضان مثل اله قديم . كان يتميز جبروتا ، ونظر اليها جامد العينين متحفزا . أرسل عينيه من نافذتي عينيها كما يفعل خالق أعد العدة لكل شيء ، واستقرتا عميقا في دخيلتها .

قال : ـ ((ومن أظلم ممن ذكر بايات ربه ثم أعرض عنها انا من المجرمين منتقمون)) . فأطرقت.

وأتم هو : ـ هذا الذي تزوجته رجل غريب . فاذا رأى منك غير الوجه والكفين مع علمك بأن هذا حرام كنت فاسقة . واذا رأى غير الوجه والكفين مع انكارك للحرام كنت كافرة .

بدأ صدرها يضيق ويجيش ، وأمسكت بالباب جيدا.

قال : ـ تتزوجين اثنين في وقت واحد ؟ ألا تحسبين ان آثامك الماضية تكفي لزجك في جهنم ؟ أين التوبة التي تبتها ؟

سألت متقطعة الاصوات : ـ ماذا سيفعل بي ؟

فسأل بقرف : ـ من هو ؟

قالت : ـ الله !

فنبر : ـ يفعل بك ؟ انه سوف يودي بك في أعماق جهنم . سوف يشوي لحمك وتطعمين منه ، ويغلي دمك وتشربين منه . سوف تخلع عظامك وسوف تعلق كلاليب الحديد المحمى في سائر أعضائك . اذا كانت عقوبة الزنى رجما بالحجارة حتى الموت ، فماذا تظنين عقوبة تعدد الازواج ؟

وكان صوتها قد تعالى بالبكاء ، وجعرت :

ـ خذني معك يا سيدي، خذني معك.

ـ لقد فات الاوان . ان التوبة بعد الموت لعبة لا تجوز على الله.

وأخذت تنحب وتعول ، وهم عبد الجبار يتابع كلامه ، وصاح صوت:

ـ ما هذا ؟ ما الذي تفعله هنا يا سيدي الشيخ ؟

فالتفت اليه عبد الجبار برصانة .

قال : ـ هذه المرأة زوجة لرجلين أنت ثانيهما . زوجها مأذونان لرجلين مختلفين . انك الان شريك في الجريمة .

قال السمان بهدوء : ـ يا أخي اذهب للشرطة وبلغ عنها . أنا سعيد تماما بجريمتي. تزوجت عشرا ، ألفا : أقول لك اني ..

صاحت خيرية معولة : ـ طلقني . أريد أن أطلق .

وصاح زوجها : ـ مجنونة !

قال عبد الجبار : ـ طلقها خير لك . ستنال عقابا من الله انت الاخر .

قال الزوج : ـ اتركها يا سيدي محبة بالله . اننا سعداء في هذه الجهنم .

تلوت خيرية امام زوجها دون ان تجرؤ على لمسه ، وتوسلت:

ـ طلقني .

وعاين احجامها فأمسك ذراعيها ، فتراجعت مذعورة كمن مسها لهب .

قال : ـ يا شيخة حرام عليك . نحن في اليوم الاول من شهر العسل .

قال عبد الجبار : ـ أي عسل وأنتم تعصون شرع الله.

قال الزوج : ـ يا بيك ، ان ما تقوله صحيح. لكنني راض ! أنا مجرم !

قال عبد الجبار : ـ انك تركب رأسك .

وقفت خيرية تنظر الى الرجلين . كانت عينا عبد الجبار ترتفعان بثبات واصرار وسيطرة ، وفمه ينطبق على تعبير قاس . ووقف الزوج وقفة منفعلة جائشة ، ووجهه يتحرك باعتراض شرس ، خائفا في نفس الحين من ان يقول شيئا .

وملأها رعب كبير حين استدار عبد الجبار على عقبيه وانصرف .

فالت : ـ يجب ان تطلقني.

فأغلق باب الدار بعصبية وتقدم من المغسلة .

قال : ـ طلاق لا يوجد .

ـ يجب ان تطلقني .

ـ قلت لك طلاق لا يوجد . أحببتك منذ وقت طويل ، ولا يوجد طلاق . وكان صوته مختنقا.

ـ ٧ ـ

قالت انها متعبة ، وتريد ان تنزل السجن لتعاقب ، وان على المحكمة أن تحكم عليها بأقصى العقوبة . قالت انها بغي حقيقية . خاصة وانها تستطيب أي رجل .

قلت لها بحركة مسرحية : ـ اننا مع الاسف لا نستطيع ذلك.

فردت : ـ كيف ! ماذا تفعلون هنا ؟

وكانت حكايتها قد نشرت بي رغبة للتفلسف ، فقلت :

ـ انني أبحث عن مجرم حقيقي في هذا العالم . وأنت لست مجرمة .

طبعت على مطابع :

((دار الغد))

تلفون : ٢٢٢٩٢١

فهتفت : ـ كلا ، يا بيك ، أنا مجرمة . لا تضحك علي ، والنبي.
قلت : ـ أقول لك انك لست مجرمة ! القانون لا يعتبر تعدد الازواج هذا جريمة
ـ القانون يخالف الله !! أهو مجرم أيضا .
ـ حكاية غريبة ! جميع الناس يتبعون القانون ! كل العالم!
ـ لا يا سيدي ، أنا مجرمة .
فنبرت : ـ يا شيخة كفاك هراء . اذهبي أنى شئت.
وتشاغلت بتأمل جسمها الجميل المرتجف . نظرت اليها عفوا فرأيتها تبكي.
فمغمت : ـ لا تضحك علي يا بيك ، أنا مسكينة .
قلت بجد : ـ انما انت مجنونة ! أنا ممثل القانون ، اقول لك اذهبي
فاجهشت : ـ لا يا بيك ، أنا مجرمة . أريد السجن.
قلت : ـ أنت مجنونة ، وسأذبحك بالسكين . هيا معي الى بيتي. سأحضر زوجك اليك ، انه زوجك اخيرا . تفاهما معا .
واحسست انها لا تصغي الي.
قالت : ـ لا يا بيك.
عندما سحبتها من يدها .
ـ يجب أن يعاقبني القانون.
قلت : ـ انه لا يعاقب . انه دراجة بعجلة واحدة.
وسحبتها خارج الغرفة . ومن هناك حتى البيت كان يزداد وجومها وشحوبها . لم تنظر عيناها الى شيء معين، وكانتا شديدتي الشرود.
اجلستها وقلت :
عندما وصلت الى الباب ، صرخت هي صرخة نائية وسقطت.
وفاجاني اغماؤها فرعت اليها . رششت بعض الماء على وجهها فتململ.
طمأنت نفسي بانتهاء الاغماء . اقفلت عليها بالمفتاح ، وانطلقت الى السيارة . كان علي الاتجاه الى الشارع الذي تقع فيه بقالية السمان . وهكذا اندفعت بالسيارة ، وكان القيظ شديدا .
لكن شيئا ولج في ذهني . وقفت بحذاء الرصيف فجأة ، ورحت أتأمل . برمت المقود وعدت. وطيلة الطريق كان خوفي يتزايد . تذكرت بطريقة خاطفة شيئا من حياة خيرية : لقد قبلت بسرعة ان تنسحب امام زوجة دسوقي ، وقبلت بسرعة ان تنسحب امام اختها من البيت الكبير، وقبلت بسرعه انتنسحب الى عبد الجبار، ثم من بيت عبدالجبار، ثم من بيت زوجها الثاني. قبلت كل انسحاب، مطاردة بشعورها المدمر بالاثم.
فتحت الباب ، وهناك رأيت بعيني ما رأيته بتصوري. كانت أرض وجدران البهو وغرفة الجلوس ملطخين بالدم. كانما نشبت هناكمعركة.
وكانت خيرية مرماة عند زاوية الغرفة وحول يدها دائرة منالدم.
تقدمت مفرقا جزعا . قلبت جسمها المنكور وامسكت يدها. وتطلعت عيناها بنظرة مخثورة مرهبة .
غمغمت : ـ الموت ـ صعب ـ يا بيك .
ربطت الشريان المقطوع . ولكن كان فات الاوان ، فقد شدت على يدي في مثل وداع وغمغمت ثانية :
ـ الموت ـ صعب ـ يا بيك.
وأضافت بعد قليل :
ـ لقد تعبت في حياتي.
وتشبثت بي جيدا وهمهمت :
ـ انني ـ خاطئة ـ ليغفر ـ لي الله ..
وتلاشت الحروف الاخيرة على شفتيها الزرقاوين ، ثم همدت .
نظرت الى جسمها الجميل المسجى على الارض ، والى وجهها الذي خلا الان من تعابير الحياة . كانت دمعتان قد سقطتا على خدي.
وبعد ذاك نهضت الى المخفر أتابع بحثي عن المجرم الحقيقي فيهذا العالم .

دمشق — هاني الراهب

«تمت اللعبة» مخطط دراسة في مشكلة الموت

بقلم مجاهد عبد المنعم مجاهد

أتراها جفت ينابيع الحياة من حولنا حتى نوجه انظارنا الى الموت؟ وهل بلغ بانسان القرن العشرين مقدار يأسه من الحياة انه يرحب بالموت ويقبل على دراسته بمثل ذلك الشغف الذي أبداه الشاعر الذي عاش في مصر زمن الفراعنة وهو يفتح الصدر للموت هاتفا مرحبا: « يتبدى الموت امامي اليوم كرائحة المر ، وكالجلوس في ظل شراع قارب في يوم نسيمه بليل . يتبدى الموت امامي هذا اليوم كرائحة ازهار اللوتس ... يتبدى الموت امامي هذا اليوم ... كعودة انسان الى بيته من سفينة الحرب . يتبدى الموت لي هذا اليوم مثل لمعان السماء بعد العاصفة » (١) ؟؟ وحتى لو كنا غير يائسين فهل الموت مشكلة مشروعة حتى نوجه اليها الانظار ؟ وهل نعتبر «الموت واقعة محضة مثل الميلاد» (٢) كما فعل سارتر فنغض الطرف عنها ما دامت غير مبررة ومفروضة على الوجود الانساني ؟ وهل يمكن ان نطمع ان ننفذ الى تجربة الموت التي قال عنها فيلسوف يوناني قديم بأن الحديث عن تجربة الموت باطل، لان تناول التجربة من الخارج ان هو الا تناول لتجربة الاحتضار لا الموت عند الاخرين ، واذا جهر بها الانسان فلن يكون موجودا حتى يقص ما عاناه ؟ وهل نكتفي من القضية بمثل ما ذكر مونتني : « ميت أو حي، هذا لا يعنيك ، فستكون حيا لانك توجد ، وميتا لانك لم تعد توجد » (٣)؟ وهل نحن نطمع ان نجلو سر الموت ، ام نحوم حوله دون ان ننفذ اليه كما ينادي بعض الفلاسفة الوجوديين . لانهم يرون ان جلاء سر الموت سيؤدي الى موت السر ؟ او لا يكون من الاوفق إن نبعد عن هذا «المضيف المجهول» كما يسميه يا سبرز الفيلسوف الوجودي الالماني حتى نحتفظ له بكل ما فيه من شعر وأسطورة ؟

لكننا اذا تأملنا قول الشاعر الفارسي بأن الموت عدل ، وهو يحيق بالجميع .. وأن ليس بعد الحياة شيء .. ثم تأملنا قول الشاعر التركي الذي رأى ان الموت لكي يكون عدلا ويصيب الجميع يجب ان تكون الحياة عادلة ـ لو تأملنا نحن هذين القولين لتبينا من خلال هذا الكلام عن الموت كلاما عن الحياة .. وعلى هذا فربما قادتنا قضية الموت الى نقيضها .. فنكون بهذا انما نحن ندرس قضية الحياة من حيث أردناها قضية الموت .. ونواجه ـ دون دفن الرأس في الرمال ـ هذا الطلسم لكي نفك أحجبته ورموزه ، ولا نفعل ما كان يفعله الرومان الذين « بدل ان يقولوا : هو ميت ، يقولون : هو لم يعد ، لقد عاش » (٤) ... فنواجه الموت باعتباره موتا لا باعتباره فقدان الحياة .. ولا نعود نظر الى الموت بيننا وبين انفسنا في خفية تماما كما كان يفعل السكان الاصليون لمنطقة فكتوريا حيث انهم « نادرا ما كان يلفظ اسم الميت، واذا ذكر فلا يذكر باسمه ، بل يشار اليه بصوت هامس على انه المفقود، أو الصديق المسكين الذي لم يعد يرى » (٥) ..

وقضية الموت لم يوجه اليها الفلاسفة انظارهم منذ القديم ... حقيقة قد تعرض لها افلاطون وبعض الفلاسفة اليونانيين ، لكنه التعرض الهامشي العرضي .. وظلت المشكلة بعيدة من ان تطرق .. لم يفص بالحديث عنها الا فلاسفة محدثون مثل شوبنهور ونيتشه .. ونجدها متضخمة في كتابات معظم الوجوديين في الفلسفة المعاصرة ..

غير اننا نحب ان نجلو في البدء خطأ يقع فيه الكثيرون ، وهو ان مشكلة الموت لم تشغل الرجل العادي لانه مهموم بأرضياته ودنيوياته ، وانه لم ترتفع لديه قوة الشخصية لدرجة ان يجعل الموت مشكلة تتطلب الحل .. وهذا هو مفهوم الذين يعزلون الفلسفة عن الناس ، ويعتقدون انها بمنأى عنهم ، وان الفلسفة ان هي الا نتاج اناس اكاديميين .. يذكر عبد الرحمن بدوي في كتابه (الموت والعبقرية) : « اللحظة التي يبدأ فيها الموت بأن يكون مشكلة بالنسبة الى انسان ما ، هي اللحظة التي تؤذن بأن هذا الانسان قد بلغ درجة قوية من الشعور بالشخصية » (٦).. وهو يذكر هذا على اساس ان مشكلة الموت لم تشغل الرجل العادي لانها وقفت عند حدود الاشكال ، لكن الشعور بالمشكلة التي تطلب حلا أمر اخر لا يخص الرجل العادي .. لكن لو كان هذا صحيحا فماذا هو قائل عن هذا الرصيد الضخم الذي خلفته الشعوب القديمة عن الموت في الصين ومصر وامريكا والمكسيك واستراليا وروسيا ؟ أليست عاداتهم ازاء الموت ان هي الا نتيجة افكار نظرية ـ مهما كانت سذاجة هذه الافكار ـ من قبلهم وقبل ابائهم ؟ ان هناك آلاف الحكايات عن الموت نجدها في كتاب « الغصن الذهبي » لسير جورج فريزر من خلالها نستطيع ان نتصور فهم الناس للموت وبالتالي للحياة .. والا فماذا وراء بكاء ايزيس على حبيبها اوزوريس الا بأن يرتد للحياة فترتد الحياة بعودته ويفيض النيل!! وفي كالدنيا Caledonia الجديدة قوم يطلق عليهم اسم صناع المطر ، هؤلاء يأخذون عظم ميت الى كهف ويربطونها ويجعلون الهيكل قريبا من ورق الشجر فيصبون الماء على الهيكل العظمي ومنه الى الاوراق . وهم يعتقدون ان المتوفي يأخذ الماء ويحوله الى مطر ويصبه رذاذا من جديد (٧) فهنا نتبين مقدار الصلة بين الموت والحياة ، وان عادات الناس المتصلة بالموت، ان هي الا عادات متصلة بحياتهم هم الاحياء.

ومشكلة الموت يمكن ان تدرس دراسة موضوعية ، أو دراسة ذاتية . اما الدراسة الموضوعية فهي التي تنظر الى الواقع الخارجي اولا لتتبين فيه حلا لاية مشكلة بعيدا عن الذات .. واما الذاتية فهي ان تنطلق من احاسيس النفس وتأملاتها .. وسوف نبدأ فنتناول الذين درسوا الموت دراسة ذاتية ، لان الدراسة الموضوعية في نطاق الفلسفة لهذه القضية لم توضع بعد ..

وقبل ان ننظر في مفهوم الموت عند فلاسفة مثل نيتشه وشوبنهور والوجوديين وعند فرويد ، سوف ننظر اولا في تلك المجموعة الضخمة من اساطير الموت وعادات الشعوب البدائية لنتبين المواقف والنظريات الفلسفية المختفية وراءها .. وهنا نلاحظ ان الشعر سبق الفلسفة في تناول هذه القضية لان الشعر أكثر التصاقا بالواقع من الفلسفة التي فيها نوع ما من الانفصال ..

(١) Budge, The literature of Ancient Egyptians p. 234

(٢) Blackham : Six Existentialist Thinkers p. 136

(٣) Montaigne, Essays p. 77

(٤) Ibid : p. 67

(٥) Frazer : Golden Bough p. 293

(٦) عبد الرحمن بدوي : الموت والعبقرية ص ٥ .

(٧) Frazer : Golden Bough p. 82

بحكم المرحلة المتأخرة التي كان يعيش فيها الانسان البدائي حاول ان يفسر المشاكل التي تعترضه وتحوطه .. وكان اساس تفسيره قائمـا على السحر .. ولا يجب ان ننظر الى السحر على انه شيء خـرافي بالنسبة لهذه الشعوب .. فقد كان السحر هو وسيلتهم في المعرفـة وتفسير الكون ، كما ان القانون العلمي هو وسيلتنا نحن اليوم .. ولـم يكن تفسيرهم منحصرا في مجرد التفسير ، فقد كانوا يحاولون انيصلوا الى قانون الاشياء ، وان كان هذا القانون مرتبطا بالسحر بحكم مرحلتهم التاريخية المتأخرة ..

لقد اعتقد القدماء ان للانسان روحا ، وان هذه الروح هي مبـدأ الحيوية .. وبخروجها من جسم الانسان يتسبب الموت .. كما آمنـوا بأن للاشياء أرواحا ، وان هذه الارواح احيانا ما تترك الاشياء المتلبسـة بها فيصيبها الموت .. وان هناك الهة تتحكم في هذا .. وبهذا ارجعوا الموت الى مبدأ خارج الكون .. هناك شيء خارج نطاقهم يفجأهم بصاعقته هذه فيحل الموت على الفرد .. فماذا يجب ان يفعلوا ليحتفظوا بحياتهم؟ من جهة ان يقدموا قرابين للالهة حتى ترضى عنهم فتحفظهم وتحفـظ نباتهم .. ومن جهة اخرى ان يقيموا احتفالا لاله الموت ليبعدوه خـارج قراهم ..

ولقد كانوا في الحقيقة أبعـد نظرا في بحث المـوت عن كثيـر من الفلاسفة المحدثين .. فلم ينظروا الى موت الافراد فحسب ، بل نظروا أيضا في ذلك الموت الذي يتهدد نباتهم وحيواناتهم وجماداتهم .. ومـن هنا تتصاعد الصلوات في بابل تدعو تموز ان يعود لتعود للارض الحياة بعودة المطر الذي يحمله معه .. وينهض اوزوريس من تابوته كل عـام فيتدفق النيل خيرا ..

أما احتفالهم بطرد الموت ، فهم يقومون باحتفال يتمثلون فيه الموت على شكل شخص غالبا ، فيصنعون له تمثالا يشيعونه حتى خارج قراهم بعد ان يحرقوه ، معتقدين انهم بهذا انما يبعدون الموت عنهم طيلة العام « ففي مقاطعات بوهيميا يحملون الموت الى طرف القرية وهم يغنـون:

نحن نحمل الموت خارج القرية ،
ونحمل السنة الجديدة الى القرية .
أيها الربيع العزيز ، نحن نرحب بك ،
أيها العشب الاخضر ، نحن نرحب بك » (٨).

ويستطردون :

« لقد استبعدنا الموت
واستحضرنا الحياة ثانية
لقد اقتلع الموت أماكنه من القرية
لهذا فلتغنوا الاغنيات الفرحة » (٩).

وليست عملية تشييع الموت مشخصا على شكل تمثال الا عمليـة من اجل الحياة .. ليس من اجل الابقاء على روح الانسان فحسب ، وليس من اجل عودة الخضرة فحسب ، بل لابعاد كل انواع الشرور .. « فليس الموت الها يموت فحسب من اجل الخضرة ، بل هو شخـص يحمل الخطايا حيث توضع على عاتقه كل الشرور التي تؤثر في الناس طيلة العام » (١٠) .

ويزداد اقتناعهم بهذه العملية ان الافراد وهم راجعون بعد دفـن اله الموت يفرون ، واذا سقط احدهم ارضا ، فلا بد انه سيموت خلال هذا العام .. وان من يخرج تمثال الموت من داره لن يموت أحد من اهله طيلة هذا العام .

وليست كل هذه الاشياء عبثا .. فالخضرة حقا تتم ، والشـرور لا تصيب المشيعين لاله الموت .. ولكن هذا لا يحدث بفعل قوة خـارج الطبيعة ، لان الناس وهم يقومون بتلك الطقوس ، تؤثر هذه فينفسياتهم، فيقبلون على عملهم اكثر نشاطا واكثر اقتناعا بأن هناك قوى اخـرى تؤازرهم ...

ولان للميت روحا فهي تحب التعلق بالارض .. ومن ثم تظل هـذه الارواح تتجول .. و « في جزر آرو لا ينام سكان البيت الليل بعد أن حل فيه الموت ، لان روح الراحل يفترض انها لا تزال في المنزل ويخشون ان يلاقوها في الحلم » (١١) .. وعند اليونان والهنود يخشى النـاس من ارواح الماء ولا يحبون ان يطلوا في الماء لئلا تجذب هذه الارواح روحهم « وهذا هو أصل القصة القديمة عن نرجس الجميل الذي ذبـل ومات لما ابصروا انعكاسه في الماء » (١٢) ..

لقدحاول القدماء ان يواجهوا الموت .. فلانهم واجهوه مواجهـة خاطئة جاءت كل حلولهم حلولا غير موضوعية .. فتركوا للقوى المجهولة ـ أرواح الموتى ـ ان تسيطر عليهم .. وكل ما فعلوه انما هو عـادات يقومون بها في مواجهة ارواح الموتى لكي يحفظوا حياتهم هم .. ومن ثـم استسلموا في اخر الامر الى ان الموت هو ذلك الشيء الرهيب والذي هو أشد من ابي الهول الفازا وهو لا مفر منه ..

الشيء الوحيد الذي يستطيعون ان يفعلوه هو ان يتجنبوا الموتى وما يتعلق بهم .. فبين القبائل الهندية في الشمال الغربي لامريكا فـان الاقارب القريبين من الراحل غالبا ما يغيرون أسماءهم « تحت تـأثير أن ارواحهم سوف تنجذب ثانية للارض . اذا سمعوا اسماءهم الشائعة تتكرر » (١٣) .. واذا تصادف ان اسم احد المتوفين يكون فـي نفس الوقت اسما لحيوان او نبات او جماد فهم يسمون الاشياء بأسمـاء جديدة لئلا يجذب الاسم القديم روح الميت .. « فرجل اسمه كـارلا Karla واسمه يعني النار ، وعندما مات كارلا اقترح اسم جديد لمعنى النار » (١٤) .. وكما لاحظ سير فريزر فان « هذه العادة الغريبة لا تضيف عنصر عدم ثبات للغن فحسب ، بل هي تقضي على استمرارية الحياة السياسية وتجعل تسجيل حوادث الماضي .. غامضة ان لم تكـن مستحيلة » (١٥) .

واذا كان القدماء يتحاشون الموتى بأية طريقة من اجل المحافظة على حياتهم ، فهم من جهة أخرى اهتموا بالموتى لا من اجل الموتى ولكـن من اجلهم .. فكانوا يزودون الميت بكل ما يتطلبه في قبره على اساس عودة الروح او الكا كما يقول الفراعنة .. حتى اذا جاء دورهم زودوا هم الاخرون بهذا ..

وكانت النتيجة ايمان بالبعث . وكان ان رتبوا قضية اخلاقية بـأن للخير جزاء وللشر عقابا في الاخرة حيث يحاكم قلب الميت في ميـزان العدل كما نتبين بوضوح في اسطورة اوزوريس ..

ولقد اهتم القدماء من جهة اخرى بالموتى ، فكانوا يقدسون أماكن الموتى ، فبين سكان المارفيس Maraves « أرض الدفن تعتبر دائما على انها مكان مقدس حيث لا يمكن ان تقطع شجرة ولا ان يقتل وحش، لان كل شيء هناك يفترض انه قد استأجرته ارواح الموتى » (١٦) ..وكان الاحياء يستغلون اجزاء الموتى للضرر بالاخرين من اجل مصلحتهم، « ففي جافا نجد ان اللص يتناول التراب من القبر وينثره حول البيت الـذي قصد ان يسرقه ، وهذا يجعل السكان يغرقون في النوم » (١٧) ..

وهكذا نتبين ان القدامى في الواقع لم يوجهوا انظارهم حقـا في مشكلة الموت ، وانما نظروا في قضية تأثير الموت والموتى على الاحيـاء، ولجأوا الى مواقف من الموت هي مواقف شخصية وافتراضية ، تتوافـق مع مرحلتهم التاريخية كي يواجهوا حياتهم ضد الموت .. وكان حلمهم

(٨) Ibid : p. 360
(٩) Ibid : p. 360
(١٠) Ibid : p. 361

(١١) Ibid : p. 211
(١٢) Ibid : p. 223
(١٣) Ibid : p. 295
(١٤) Ibid : p. 296
(١٥) Ibid : p. 297
(١٦) Ibid : p. 133
(١٧) Ibid : p. 34

الذاتي هذا نتيجة لافتراضهم الحل خارج الكون .. فهل لو جعلنا سبب الموت داخل الكون فهل يمكن ان نصل الى حل ؟

لقد حاول فيلسوف مثل شوبنهور ان يجعل الموت داخل الكون، وانه متعلق بالارادة التي هي جوهر الحياة ، والتي هي جوهر الشيء في ذاته thing - in - itself المجهول الذي تركه « كانت »والذي جعل منه شوبنهور ارادة الحياة .. لكن الوجود كان عند شوبنهور ـ بحكم تشاؤمه ـ هو واللاوجود سواء .. فالحياة عنده ليست جديرة بالحب وان يستمر المرء فيها .. هذه الحياة التي ليست جديدة بأي حي هي حياة الفرد .. انما الاساس عنده والمهم انما ارادة الحياة الكلية ... وعلى هذا فعنده ان « الموت .. لا يلحق الارادة ، وانما يمس ظواهرها » (١٨) هو « لا يصيب ارادة الحياة ، وانما يتعلق بمظاهرها العرضية الزائلة كي يجددها باستمرار » (١٩)..

لكن ، هل هذا الحل يرضينا ؟ اننا لا نقبل ان تكون حياتنا عرضية، وان يكون موتنا تضحية من اجل ارادة الحياة المستمرة بمفهوم شوبنهور المتعالي .. فعندنا احساس بأننا جوهريون في هذا الوجود .. ونحن نرفض حله هذا ـ وان كان في الحقيقة اخفاقا منه في الوصول الى حل ـ تماما كما نرفض حل فيلسوف من اصل فارسي كابن سينا ، الذيذكر بأن الموت امر طبيعي والا لضاقت الارض بالبشر .. وهذه الصيحة هي نفس صيحة لوكرتيس :

« نحن نعيش كموتى عن طريق الاخذ والعطاء الابديين
وكالمتسابقين نسلم مصباح الحياة
الواحد منا للاخر » (٢٠).

فلو كان الامر كما ذكر ابن سينا فتكون القضية اذن قضية ايجاد اماكن للمولودين الجدد ، لا قضية لزومية الموت للاحياء ..

ولو نحن انتقلنا الى فيلسوف اخر هو نيتشة ، لرأينا هنا امتزاج الفلسفة بالشعر مع ارادة القوة واعلاء شأن الفردية .. ولم يفعل نيتشه شيئا لحل قضية الموت الا انه قسم الموت نوعين : النوع الطبيعي الذي « يكون للجسم شبيها بحارس السجن الحزين ، الغبي المريض غالبا الذي يحدد النقطة التي لا بد لسجينه العزيز ان يموت فيها . انالموت الطبيعي انتحار الطبيعة ، أعني افناء الكائنات العاقلة بواسطة غير العاقلة » (٢١) .. وهذا الموت « انما ينسل بالقرب منك باللص ومع هذا يأتي كسيد » (٢٢) ..

وقد دعا نيتشه على لسان نبيه زرادشت الى الموت الاخر ، الموت المراد الذي تكون فيه انت سيدا ، والذي تريده مختارا حيث تقضي على ذلك بنفسك وانت تعيش على حافة الخطر غير عابيء بما يجيء بعد الموت » فما بعد الموت لا يعنينا بعد » (٢٣) .. فمن هو ذلك المخلوق الذي سيرضى بالموت طائعا مختارا ؟ هو ذلك الذي « عنده هدف ... فيرغب الموت في الوقت المناسب » (٢٤) .. وعندما يحين هذا الموت سترى انه « في موتك ستضيء روحك وفضيلتك كالتوهج الذي يعقب الغروب حول الارض » (٢٥)..

ان فلسفة نيتشه حول الموت مقرونة بدعوة لا بتفسير .. وذلك لاحساسه بهذه المشكلة باطنيا ولانها كانت تتمشى مع منطق تفكيره . في العلاء بشأن القوة .. وكانت النتيجة ان اشاح عن الموت وغض عنه الطرف ..

ولقد حاول فرويد في نطاق علم النفس ان يفسر الموت على اساس وجود غريزة في النفس هي غريزة الموت .. فهو في أخريات أيامه انتهى الى وجود غريزتين تعملان عكس بعضهما بناء وهدما هما غريزة الحب Eros Instinct وغريزة الموت Death Instinct فيقول عن الاخيرة « يمكننا ان نفترض ان الهدف النهائي لغريزة الهدم هو اعادة الكائنات الحية الى حالة غير عضوية . ولهذا فنحن نسميها ايضا غريزة الموت » (٢٦) ..

لكن هذا الفهم من فرويد يفترض انه ليس في الامكان مواجهة الموت ، لانه اعتبره غريزة موروثة متوارثة .. هذا من جهة ، ومن جهة اخرى تقوم في وجه هذهالنظرية مجموعة من الاعتراضات : فلماذا يحدث في لحظة معينة أن تتغلب غريزة الموت فتقضي على الشخص ؟ ثم ما دخل ان يدهس طفل بغريزة للموت فينا موروثة ؟ ثم هل يمكن ان تكون لدى المرء مثل تلك الفريزة وهو الذي يفعل المستحيل لكي يطيل أمد حياته؟

هذا فشل اخر للنظر عن وجود حل داخل نطاق الكون .. والسبب راجع الى انحصار البحث في داخل الذات والانطلاق من التأمل لا من استقراء الواقع ..

ولم يبق امامنا الا ان ندرس الوجوديين باعتبارهم اشد الفلاسفة بحثا لهذه القضية ، ولنرى اخر مظهر من مظاهر الاتجاهات الذاتية في البحث .. لنتأدى بعد عرضها ونقدها الى كيفية طرح القضية وهل يمكن الوصول الى حل ..

على أي اساس حل الوجوديون مشكلة الموت ؟ علينا ان نتذكر ان « الوجودية هي محاولة للتفلسف من وجهة نظر الممثل بدلا من وجهة نظر المتفرج كما هو المعتاد » (٢٧) .. بمعنى اخر . ان منطلق الوجودية انما هو الذات المتوحدة الفالقة ابوابها على نفسها .. ومن ثم لا بد وانهم نقلوا مشكلة الموت من مجرد كونها قضية عامة وحصروها لا في نطاق الكون ، ولكن في نظام الكون الاصغر Microcosm الذي هو الانسان ..

والوجوديون في حديثهم عن الموت يلجأون الى الطابع العاطفي وهو شيء مخالف في البرهنة عندهم لقضاياهم عن الطريقة التي قعد بها عبد الرحمن بدوي المشكلة .. فهو يقول : « اذا كانت الشخصية تقتضي الحرية ، والموت يقتضي الشخصية ، فان الموت يقتضي الحرية » (٢٨) .. فالوجوديون أعداء هذه الطريقة المنطقية الارسطية الشكلية في البرهان ..

وهم في نظرتهم الى الموت انما يحاولون ان يعبروا عما عبر عنه قديما سنكا حين قال :

« الساعة التي تمنحنا الحياة تمنحنا موتنا » (٢٩).

وهو ما ذكره مونتني : « اليوم الاول لمولدك يبدأ بك على الطريقالى الموت كما يبدأ بك الى الحياة (٣٠) .

فالموت عندهم بصفة عامة داخل في النسيجالوجودي للفرد.. وانه باطن في هذا الوجود منذ لحظة الميلاد .. لم يشذ عن هذا الا سارتر..

ورغم اتفاق معظم الوجوديين حول هذه القضية ، الا ان بينهم خلافات بسبب المنطق الذاتي لفلسفاتهم .. لقد قدس فيلسوف وجودي مثل كيركجورد الموت في نظره أن الموجود الحقيقي « لا بد من ان يحيا صامتا كالقبر هادئا كالموت » (٣١) .. وهذا كلام انسان أشاح الطرفعن الحياة وظل ممزقا في اعماقه .. وهذا على عكس هيدجر الذي يدعو الى ان يسيطر الواحد على وجوده ما دام هو مخلوقا فانيا ..

ولما كانت الوجودية منقسمة الى وجودية ملحدة ووجودية مؤمنة، فسوف نتناول فيلسوفين في كل منهما حول القضية لنتبين اوجه الشبه

(١٨) عبد الرحمن بدوي : شوبنهور ص ١٨٩ .
(١٩) المصدر السابق : ص ١٩١ .
(٢٠) Ch. Montaigne : Essays p. 75
(٢١) عبد الرحمن بدوي : نيتشة ص ٢٣٢ .
(٢٢) Nietzsche : Thus Spake Zarathustra p. 75
(٢٣) عبد الرحمن بدوي ، نيتشه ص ٢٣٠ .
(٢٤) Nietzsche : Thus Spake Zarathustra p. 75
(٢٥) Ibid : p. 77

(٢٦) فرويد : معالم التحليل النفسي ص ٤٦ .
(٢٧) آلن : وجودية من الداخل ص ٣٤ .
(٢٨) عبد الرحمن بدوي : الموت والعبقرية ص ٧ .
(٢٩) Ch. Montaigne : p. 75
(٣٠) Ibid : p. 75
(٣١) زكريا ابراهيم: الفلسفةالوجوديةص٣٦

والاختلاف لنخرج بموقف للوجودية من الموت .. وسنتناول سارتر وهيدجر في الجانب الالحادي ، ومارسل وياسبرز في الجانب المؤمن..

فأما ياسبرز فهو يرى ان موتي يقذفني الى اعمق اعماق الذاتية، لان الموت هنا انما هو موتي أنا .. وعلى هذا يرى أن موتي « يضع موضع التساؤل المعنى الذي به اكون اكثر من ظاهرة مظهري الموضوعي » (٣٢).. وهذا الموت يقتلعني من جذوري وهو يبين حقيقية وجودي .. والموت ليس هو القضاء على امكانياتي .. بل انما هو يختبر وجودي الحقيقي الشرعي authentic .. ما هي علاقتي بالاخرين ، باعتباري مخلوقا فانيا ، وباعتبارهم مخلوقات فانية ؟ وتتكشف الاجابة في علاقة الحب .. فأحبائي الذين يموتون لا يموتون حقا بالنسبة لي .. وانما أنا ساتخذ بازاءهم وجهة نظر .. ومن ثم سيكون « الموت اختبارا وغربالا: هل يدوم ما هو جوهري ؟ » (٣٣) .. ولن نتوقع من ياسبرز اجابة موضوعية « فليس هناك اختبار موضوعي ، فالاجابة تقوم داخلي »

(٣٤) .. لكن عند ياسبرز نجد ان كل فرد عبارة عن ذات متقوقعة على نفسها .. فهل يمكن ان ينفذ الحب حقيقة بين هذه الذوات المنفصلة ؟ وهل بالتالي يستحيل الموت الى حضور ؟ يذكر ياسبرز : « انني في الحب انما ارتبط انا ذاتي بشخص يظل كما هو في ذاته .. ومعنى هذا ان الحب ليس بمثابة ضياء هاد يعكسه قلبا له يشع كل منهما من خلال الاخر ، وانما هو ضرب من الاستفهام المتبادل الذي لا يخلو من صراع حاد » (٣٥) .. بمعنى اخر سيكون من جانب الذات محاولة للاتصال العميق لتنتصر على هذا الانفصال العميق ..

لكن الذي عند ياسبرز أدهى من الموت انما هو « فقدان النفس الذي يأتي من الارتباط بمنظمة اجتماعية او السقوط في كونك هناك there ومن ثم يموت المرء من دون ان يعيش » (٣٦) وبهذا حاول ياسبرز ان يقطع كل وثائق للفرد وارتباطات بالعالم الخارجي ليبقى على الذات في توحدها ..

وعند ياسبرز ان المرء ما دام انسانا يموت ، فلن يكون الموت ضد وجوده، وانما سيصبح « ليس مجرد حد ، بل هو مفتاح وبرهان » (٣٧).

أما جبريل مارسل الوجه المسيحي الوجودي الاخر ، فهناك تقارب في افكاره من ياسبرز .. فهو يذكر ان « الموت لا يصبح مشكلة الا حينما يرتبط بمشكلة الحب ، أعني حينما نكون بصدد موت الحبيب » (٣٨)..

والذي دفع مارسل الى دراسة الحب هو انه كان مشتركا في الحرب ، وكان يرسل خبر وفاة الجنود لذويهم لانه كان غير لائق للخدمة العسكرية .. فأطلعه هذا على الحب والاخلاص والوفاء .. فربط الموت بالحب .. وحاول ان يقضي على ذلك الانفصال الذي أبقاه ياسبرز في علاقة الحب .. ففي الحب يرى مارسل انه « الشخص الثاني يصبح أملي في الخلود لانه لا يفنى ، لان له جدارة فريدة ، بل ان موته ليس موتا ولكنه حضور ، ومن ثم ينقلني الموت الى الخلود » (٣٩)..

وعلى هذا يذكر مارسل ان « غياب الموت قد يبدو غيابا نهائيا حاسما ، ولكن الوفاء يتحدى كل غياب ، اذ هو يشعر بان المحبوب لا يمكن ان يموت لان حضوره ينتصر على كل ضرب من ضروب الغياب» (٤٠) .. لان منطق الحبيب كما يذكر مارسل في كتابه « سر الوجود » دائما هو : « مهما قد تدخلت الاحوال فيما ارى امامي ، فستظل انت وانا دائما كواحد . ان الحادثة التي تحدث والتي تمت الى ما هو عرضي لا يمكن ان تلغي وعد الخلود المتضمن في حبنا ، في تعهدنا العلاقي » (٤١).

فهل ربط الموت بالحب – كما فعل ياسبرز ومارسل – حل لمشكلة الموت ؟ اننا لم نتبين الا الموقف العاطفي الذي يتخذه الشخص في لحظة فقدان الحبيب .. لكن ظل الموت لغزا دون حل .. ودون ان يسيطر عليه .. لماذا ؟ لان واحدا مثل مارسل ينظر الى الموت لا على انه مشكلة بل على انه سر Mystry .. فهو قد فرق في الدراسة بين المشكلة والسر .. فالمشكلة تظل تقسمها وتبوبها وتنظر اليها من الخارج ثم تصل الى حل يصبح جاهزا لك وللاخرين .. بينما السر انما نتناوله من الداخل .. ونحن لا يمكن ان نصل فيه الى حل لانه يصبح جزءا من وجودنا .. « فليست كل مشكلة سهلة فهناك من المشاكل ما لا نستطيع ان نفصله عن انفسنا .. اننا متضمنون فيها ، انها جزء من حياتنا ، ولان نجزئها لهو ان نقضي عليها ، واننا لا نحل شيئا بهذا .. اننا الان في مجال السر الذي يقوم وراء المشكلات ، وانا استطيع ان ادرس السر واشرحه وهو سوف يصحبني حتى انتهاء حياتي .. ولكن مواجهتي له ليست عبثا ، لاني وانا اواجه السر بالامل والشجاعة – اجد اني أنمو الى ذات خصب . ان السر ينبع من تجربتنا ، ونحن مضطرون ان ننظر فيه عن طريق الفعل action لا بالتأمل ، ولان ننقل السر الى صعيد المشكلة لهو ان نزيفه » (٤٢).

وهذه المحاولة من جانب مارسل في التفرقة بين المشكلة والسر ، انما هي من اجل الطمس الموضوعي للمشكلة والوصول بها الى حلول ذاتية ومعاداة للعلم القائم على الموضوعية ..

هذا من ناحية الوجودية المؤمنة .. اما من جانب الوجودية الملحدة فنجد اولا حل هيدجر ثم حل سارتر ثم التطبيق الادبي لمفهوم سارتر عند سيمون دي بوفوار ..

(٣٢) Blackham : Six Existentialist Thinkers p. 53.
(٣٣) Ibid : p. 53
(٣٤) Ibid : p. 53
(٣٥) زكريا ابراهيم : الفلسفة الوجودية ص ٧٣ .
(٣٦) Blackham : Six Existentialist Thinkers p. 53.
(٣٧) Ibid : p. 53
(٣٨) زكريا ابراهيم : الفلسفة الوجودية ص ٥٧ .
(٣٩) آلن : وجودية من الداخل ص ٧٢
(٤٠) زكريا ابراهيم : الفلسفة الوجودية ص ٥٧

(٤١) عن آلن .. وجودية من الداخل ص ٧٢
(٤٢) المصدر السابق ص ٧١ .

فأما هيدجر فهو يعتبر الوجود الانساني الموت باطن فيه .. بل ان هذا الوجود لهو وجود نحو الموت being - towards - death .. وكما لاحظ سارتر على هيدجر فانه وحد بين الموت والنهاية .. لكن النهاية عند هيدجر « لا تعني بالضرورة التحقق fulfilment لكها ايضا لا تعني مجرد الانقطاع Ceasing كما الشأن مع المطر أو الاكتمال Completion بالنسبة لعمل ما او التلاشي vanishing » (٤٣) .

فالموت عند هيدجر لا يجيء في لحظة النهاية ، بل هو كامن في الوجود البشري منذ البداية ، وما نسيج المرء الا نسيج نحو الموت، وعلى هذا « فليس الموت هو الفأس التي تقطع الشجرة ، انه الثمرة التي تنمو اليها » (٤٤) .

لقد ذكر هيدجر أن الآنية Dasein او الوجود الانساني المتحقق بالفعل قائم جوهره على الحرية وعلى الاختيار ، وان الاساس فيه هو التحققات المستقبلية ، أي ان الانية جوهرها هذا التأجيل او « الليس بعد » ، ومن « بين العناصر الجوهرية في الوجود يوجد عنصر الامكانية المطلقة للاقناع المطلق ، او الامكانية المطلقة للاامكانية المطلقة . وهذا هو الموت » (٤٥) .. وبالموت تنغلق مشارع الانية .. ومن ثم لما كان وجودي وجودا فانيا ، فيجب ان اسيطر على هذا الوجود قبل ان يحل هذا المصير .. وهذا الموت شخصي للغاية ولا يمكن ان يحل محله irreplaceable وهو « يكشف عن نفسه انه الامكانية القصوى غير النسبية أي الامكانية المطلقة التي لا تقهر » (٤٦) .

والانسان قلق من هذا الموت ، لاني أخشى على وجودي ان ينزلق الى هوة العدم ، وهذا القلق angoisse ليس هو القلق من اجل سبب معين جزئي ، بل ان هذا القلق مبعثه كوني ملقى هناك في العالم.. اذن « فالقلق هنا هو قلق على هذا الوجود – في – العالم being - in - the world » (٤٧).

خلاصة رأي هيدجر ان الموت هو الامكانيةالباطنية immdnent للانية ، وهو الامكانية غير النسبية لها ، وهو امكانية الآنية التي لا تقهر، وهو الامكانية اليقينية للانية ، هو الامكانية التي لا تتحدد بالنسبة لزمان وقوعها (٤٨) .

فاذا تقبلت الموت هكذا لاصبح « الموت هو ... مفتاح المعيشة الحقيقية الشرعية authentic هو الامكانية التي تحدث والحاضرة دواما التي تربط وجودي وتدعمه » (٤٩) .. وهو أعلى امكانية للذات وان تكن امكانية تدميرية .. وهذا هو ما ننبه اليه في كتاب « الفلسفة الوجودية » : « اذا كان البعض قد ظن ان الموت عند هيدجر هو استمالة كل امكانية ، فان من واجبنا ان نصحح هذه الصيغة فنقول : « انالموت عنده هو امكانية الاستحالة » (٥٠) .

لكن عبثا نحاول ان نقف في صف هيدجر ونقبل ان يكون الموت شيئا لازما يكون صميمي .. فطول مراحل التاريخ والانسان يصرخ ضد هذا الموت الذي يتهدده ويقاومه .. فبث الخلود في ابطال اساطيره .. وصنع الاحجية والتعويذات .. واستخدام الاعشاب واختراع الطب لكي يطيل من اجل حياته ان لم يكن على الموت اصلا .. وما محاولة هيدجر هذه لجعل الموت باطنا في الوجود الا محاولة لتبرع الموت وتقبله ، وتكون فلسفته ليست فلسفة وجود بل فلسفة موات فقد نادى بأن نعيش في ظل الموت .. وكانت تبريرا لان تعلو هذه الذات وتحقق وجودها على حساب الاخرين وتجعلهم ادوات ووسائل من اجلها وكان ان وجد فيها هتلر تبريرا لنازيته واملاء عظمته ..

اما سارتر ، فهو بالرغم من انه وجودي كأستاذه هيدجر ، الا انه يجعل الموت خارج النطاق الانساني .. فالموت هو ذلك الشيء اللاانساني non - huma n ذلك الجدار الذي يأتي فيضع للانسان حدا ..وهو على عكس هيدجر يفرق بين التناهي finitude وبين الموت..فيرى ان الوجود الانساني وجود متناه ، بمعنى ان الانسان عندما يختار امكانية من بين عدة امكانيات فانما ينحر سائر الامكانيات ، ومن ثم فهو محدود في اختياره .. قد يستطيع ان يحقق ما لم يختره بعد ذلك، لكنه لا يستطيع ان يحقق عدة ممكنات في نفس الوقت .. وهذا هو معنى التناهي ، والانسان عند سارتر يكون متناهيا حتى لو كان خالدا ..

فاذا كان هيدجر يعتبر الموت هو اقصى امكانياتي ، فان سارتر يعتبر الموت « ليس هو امكانياتي بعدم تحقيق حضور في العالم ، بل هو بالاحرى تعديم nihilation ممكن دائما لمكناتي والذي هو خارج امكانياتي » (٥١) ، وليس الموت « اطلاقا هو ما يمنح الحياة معانيها ، بل على العكس هو اساسا يمحو كل معنى من الحياة » (٥٢).

وسارتر يفرق بين توقع الموت وانتظاره .. فهو يرى ان الموت لا يمكن انتظاره كما انتظر صديقا ، لان انتظار الصديق يقوم على اساس سلسلة من الاحداث تفضي الى مجيئه .. لكن الموت لا يحدث هكذا وانما هو قد يأتي فجأة وان « انتظار الموت هو تحطيم للذات لانه سيكون نفي كل انتظار » (٥٣) .

الا ان سارتر يعتبر تقديم امكانية الذات من قبل الموت هو الجانب السلبي ، اما الجانب الايجابي فهو ان الموت يجعلني موضوعا للاخرين بعد ان كنت ذاتا في نظري .. وهم يصدرون علي احكامهم دون ان استطيع لهذا دفعا .. « فالموت ليس هو فحسب التقديم الممكن دواما لمكناتي ، التقديم القائم خارج امكانياتي . وليس هو فحسب المشروع project الذي يدمر كل المشاريع والذي يدمر نفسه ، بانه ايضا انتصار وجهة نظر الاخر Other تجاه وجهة نظري تجاه نفسي » (٥٤) .. فعلى اساس ان الموت عند سارتر « يمثل تجريدا من الملكية dépossession والاخرون هم الذين يجردون الميت من ملكية وجوده » (٥٥) . يقوم مفهوم سارتر .. لكن هذا المفهوم لو دققنا فيه لوجدناه مليئا بالتناقض.. فهو منطق ميت لكنه حي في موته ، يسمع ما يقوله الاخرون عنه ، بينما المفروض انه لا يعي شيئا .. ومن هنا ينتفي قوله بأن « الصفة الفريدة لحياة ميتة هي انها حياة يجعل الاخر من نفسه حارسا عليها » (٥٦).

وبالموت تنهدم عند سارتر كل المشاريع التي كانت تقوم بها الذات .. ليس الموت هو الذي يمنح الحياة معنى .. لكن الموت يقوم كعقبة في اعطاء حياتي ما اريده من معنى و « الحياة الميتة لم تعد تتغير، وهي مع هذا قد تمت تماما . وهذا يعني أنه بالنسبة لها تكون اللعبة قد تمت the Chips are down » (٥٧) .

ولقد طبق سارتر هذا المفهوم من ان الموت هو ان تكون تحت رحمة الاخر كما في مسرحية « جلسة سرية » (٥٨) فهو يجمع ثلاثة من الموتى في حجرة فيكتشف جارسان بطل المسرحية في النهاية ان الجحيم هو

---

(٤٣) Heidegger : Existence & Being p. 69

(٤٤) آلن : وجودية من الداخل ص ٣٦ .

(٤٥) عبد الرحمن بدوي : الموت والعبقرية ص ١٥ .

(٤٦) Heidegger : Existence & Being p. 71

(٤٧) Ibid : p. 71 - 72.

(٤٨) Ibid : p. 76 - 78.

(٤٩) Blakham : Six Existentialist Thinkers p. 96

(٥٠) زكريا ابراهيم : الفلسفة الوجودية ص ٩٩ .

(٥١) Sartre : Being & Nothingness p. 537

(٥٢) Ibid : p. 539

(٥٣) Ibid : p. 540

(٥٤) Ibid : p. 540

(٥٥) نهاد التكرلي : سيمون دي بوفوار ومشكلة الموت ص ٣٧.

(٥٦) Sartre : Being & Nothingness p. 541

(٥٧) Ibid : p. 543

(٥٨) تتجسد في هذه المسرحية أهم المشاكل التي تناولها سارتر في فلسفته كمشاكل الحرية والقيم والاخر والعدم والموت ... لكننا لا نناقش فيها الا المشكلة الاخيرة ..

الاخرون .. يقول مخاطبا استيل التي تحبه وأينز التي تكشف جبن شخصيته : « أنتما تتذكران ما قيل لنا عن غرف التعذيب وعن النار وعن المواد الملتهبة والتراب المشتعل ! انها قصص الزوجات العجائز ! ليس هناك من حاجة الى محركات النار المشتعلة . الجحيم هو الاخرون» (٥٩)

وهذا هو عين ما ذكره سارتر في كتابه « الكينونة والعدم » : «ان وجود الموت ذاته يستبعدنا عن حياتنا ويجعلنا تحت رحمة الاخر . ان تكون ميتا لهو ان تكون فريسة للحي وهذا يعني ان من يحاول ان يستحوذ على معنى موته المقبل لا بد وسيكتشف نفسه على انه الفريسة المستقبلة للاخرين » (٦٠)

ان ما كان يرعب جارسان هو انه خلف في دنياه اناسا يعتقدون انه جبان فر من القتال .. بينما هو عكس ذلك .. هو ميت الان لكنه يراهم: « وهم مرعبون ، من انهم هناك منزلقون في كراسيهم ، يمتصون سجائرهم .. انهم يبدون متكدرين وهم يفكرون : جارسان جبان .. طيلة ستة شهور سوف يقولون .. جبان كهذا الخنزير جارسان » (٦١).

فسارتر ينظر الى الموت على انه لا « يمت الى النسيج الانطولوجي ontological structure للشيء ذاته . وطالما هو انتصار الاخر علي، فهو يشير الى واقعة وجود الاخر » (٦٢) .. لقد أرعب جارسان ان الذين نعتوه بانه جبان « انهم سيموتون ، لكن سيأتي بعدهم الاخرون ويحملون الاسطورة . لقد تركت قدري بين ايديهم » (٦٣).

بل يبلغ الامر بجارسان انه عندما فتح باب الجحيم لينقذ نفسه هو واستيل من أنيز التي تعرف انه جبان لا يخرج لانه يريد ان يقنعها، لا يريد ان يترك مخلوقا لم يفهم وجوده ، ويصرخ في وجه استيل : «كلا، دعيني : انها يوننا . لا استطيع ان احبك وهي تراقبني » (٦٤).

وهناك قضية اخرى في الموت تناولها سارتر في روايته السينمائية « تمت اللعبة » (٦٥) فبالموت تنغلق مشاريع المرء ويرسم خط فاصل يستطيع ان يلخص الحياة الانسانية . فانيز في مسرحية «جلسة سرية» تذكر : « المرء دائما يموت اما في الحال ـ واما متأخرا جدا. لكن حياة المرء تكون كاملة في هذه اللحظة وقد رسم خط تحتها ، رسم بعناية ، خط مستعد لتلخيص الحياة » (٦٦) .. لكن الموت لا شأن له بتناهي الحياة ، وانما هو مجرد جدار وعقبة .. وسارتر في رواية « تمت اللعبة » يتناول امرأة ماتت ، ومنظم عمال يدبر ثورة لكنه يموت قبل تنفيذ الثورة بيوم .. ولما ماتا يلتقيان في العالم الاخر ، ويحبان بعضا.. وهما يمنحان اذنا بالرجوع الى الارض ، فان دام حبهما لمدة اربع وعشرين ساعة فسوف يكتب لهما الخلود .. لكنهما عندما يهبطان يتشبث كل منهما بحياته الاولى .. خاصة وان كلا منهما وهو ميت يعرف ما يدبر لاحبائه في الحياة .. فيعرف المنظم ان البوليس قد كشف امر منظمته وهو سوف يذبح رفاقه ساعة يقومون بالثورة ، وهي تكتشف ما يدبره

(٥٩) سارتر : جلسة سرية ص ١٠٠ .

(٦٠) Sartre : Being & Nothingness p. 543

(٦١) سارتر ، جلسة سرية ص ٨٨ .

(٦٢) Sartre : Being & Nothingness p. 545

(٦٣) سارتر : جلسة سرية ص ٨٩.

(٦٤) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(٦٥) مما لا شك فيه ان بذور الرواية كانت كامنة منذ سنوات ١٩٤٠ عندما كان سارتر يعد كتابه « الكينونة والعدم » ، بل ان العنوان نفسه متضمن في الكتاب وقد أوردنا النص في فقرة سابقة من هذا المقال . هذا وقد صدرت ترجمت الرواية لي عن دار الاداب في سلسلة « المسرحيات العالمية » ..

(٦٦) سارتر : جلسة سرية ص ٩٧

زوجها لاختها .. فقد قتلها بالسم لكي يتزوج أختها الغنية .. وهكذا عندما يعودان الى الارض ينشغلان بأمورهما ، ومن ثم يفشلان في حبهما ويعودان كما كانا ميتين .. فهما لم يستطيعا الا ان يكونا متناهيين.. بمعنى كان عليهما ان يختارا بين الحب وبين مشاغلهما الاخرى.. فضحيا الحب من اجل احبائهما .. وبهذا لا يكون « الموت عقبة بالنسبة لمشاريعي، انه مصير فحسب لهذه المشاريع ليس الا » (٦٧) .

وهذه التفرقة بين التناهي والموت هي عين ما اخذته سيمون دي بوفوار في روايتها « كل البشر فانون » فاخذت قول سارتر : « الموت ليس هو اساس تناهي الوجود » (٦٨).. فافترضت وجود شخص منح اكسير الخلود ، فظن انه بهذا يستطيع ان يفعل المستحيل . لكن كان يعيش وسط اناس متناهين وتناهيهم يتطابق مع كونهم بشر يموتون .. بينما هو متناه من جهة لانه لا يستطيع الا تنفيذ اختيار واحد في اللحظة الواحدة ، بينما هو خالد من جهة خرى وعلى هذا « فالخالد يشبه الميت في انه يولد عدة مرات ويجعل نفسه واحدا . وحتى لو كان المرء لامتناهيا أي بدون حدود ، فان حياة المرء مع هذا ستكون متناهية في خالص وجودها .. والموت لا شأن له بهذا » (٦٩).

خلاصة القول ان الموت بالمفهوم السارتري « ليس الا مظهرا معينا للتحقق الواقعي facticity وان تكون موجودا للاخرين being for others أي ليس الا الشيء المعطى given عبث ان ولدنا . وعبث كوننا نموت » (٧٠) .

(٦٧) Sartre : Being & Nothingness p. 547

(٦٨) Ibid : p. 547

(٦٩) Ibid : p. 547

(٧٠) Ibid : p. 547

ان هناك تناقضا صارخا في أقوال سارتر ، فهـو نحى وجـود اله خارج الكون ، لكننا نراه يفسر الموت ويرده الى شيء خارج الكـــون . ولقد خالف هيدجر وهتف : « لست حرا في أنني أموت ، بل أنا ميـت حر » .. وفي تناقض مثل هذا داخل الفرد ونفسه ، وبين الفرد واصحابه من نفس الاتجاه ، يكمن التناقض الذي يشع في أي فلسفة ..

واذا كان الماركسيون يذهبون الى اننا يجب ان نحول الشيء في ذاته المجهول الى شيء لنا معلوم ، أي ان نحول الموت لصالحنا فيظل من اجل الحياة عن طريق العلم وسيطرة الانسان على الواقع، فلن ينفي هذا اطلاقا ان الموت سيظل هو اللغز الذي يؤرقنا والذي يكشف من داخـله عن عرضية contingency الوجود .. بل اذا طمعنا في ان يـأتي اليوم الذي يسيطر فيه العلم ويضمن للانسان الخلود ، فستظل تؤرقنـا أشباح الموتى الذين قضوا منذ الاف السنين حتى ولو لم نعرفهم بأنفسهم .. ويكفي ان تبدأ بفرد واحد مات حتى تمشي على خيط اللاتناهي الذي لا يفضي الى مستقر والذي سيذكرنا ثانية بأن الموت سر ولن نتمكن مطلقا من القضاء على موت السر !!

القاهرة — **مجاهد عبدالمنعم مجاهد**

المراجع

١ ـ آلن (ا.ل) : وجودية من الداخل (تلخيص وتحليل : مجاهـــد عبد المنعم مجاهد) . مجلة الاداب ـ نوفمبر ١٩٥٦.

٢ ـ زكريا ابراهيم : الفلسفة الوجودية .
دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ .

٣ ـ سارتر (جان بول) : تمت اللعبة (ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد) . دار الاداب ـ بيروت ـ ١٩٦٢ .

٤ ـ سارتر (جان بول) : جلسة سرية (ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد) . دار النشر المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ .

٥ ـ عبد الرحمن بدوي : شوبنهور .
النهضة المصرية ـ القاهـرة ـ ١٩٤٥ .

٦ ـ عبد الرحمن بدوي : الموت والعبقرية .
النهضة المصرية ـ القاهـرة ـ ١٩٤٥ .

٧ ـ عبد الرحمن بدوي : نيتشه .
النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ .

٨ ـ فرويد : معالم التحليل النفسي (ترجمة محمد عثمان نجاتي)
النهضة المصرية ـ القاهرة

٩ ـ نهاد التكرلي : سيمون دي بوفوار ومشكلة الموت .
مجلة الاديب ـ بيروت ـ يوليو ١٩٥٣ .

10 - Blackham : Six Existentialist Thinkers
Routledge, Kegan Paul. London. 1951.

11 - Budge : The literature of Ancient Egyptians.
Dent, Sons London. 1914.

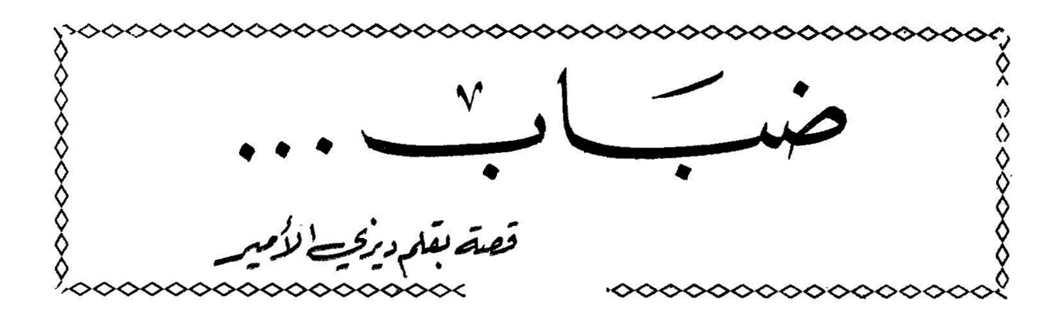
12 - Frazer, G. : The Golden Bough
Macmillan Com. New York. 1955.

13 - Heidegger, M. : Existence, & Being
Vision - London - 1948.

14 - Montaigne : Essays
Modern Library - New York. 1946.

15 - Nietzche, F. : Thus Spake Zarathustra
Modern Library - New York 1954.

16 - Sartre, Y.P. Being & Nothingness.
Methuen - London 1957.



لفت المنديل الصوفي حول رأسها وربطته باحكام ليستطيع مقاومة الهواء واسرعت في المشي تريد الوصول الى بيت صديقتها وعلى الاصح الى غرفتها .

كانت الشمس قد غابت منذ ساعات . فهي ، اذا بزغت ، تغيب مبكرة جدا في هذا البلد الغريب ، مع ان الساعة لم تكن قد تعدت السادسة مساء بكثير .

واحست الهواء يقرص وجهها فسحبت غطاء الرأس فوق جبينها وقرب وجنتيها وغطت به معظم وجهها . كان البرد لا يزال شديدا وموجة ضباب بدأت تتكاثف . وشعرت بوحشة . ليتها تصل سريعا لتنسى البرد والظلام والوحشة .

كان الشارع مزدحما بالمارة وقالت في نفسها : انهم متعودون على البرد وعلى الظلام المبكر . وهي .. ستتعود . يجب ان تنسى او تتناسى البرد والظلام والشعور بالوحشة . فعليها ان تمضي سنوات في هذا البلد قبل ان تعود الى الشمس والدفء والاهل والطمأنينة ...

نعم .. الشمس والدفء والاهل .. ولكن أتراها كانت طمأنينة ما أحسته ؟ لو كانت كذلك لما هربت منها وجاءت الى حيث تتحمل البرد والظلام والوحشة . لقد جاءت تبحث ايضا عن الطمأنينة ولكن أتجدها ؟

لو كان الفرد يستطيع ان يسافر ويترك خلفه كل شيء .. لو يترك وراءه نفسه . وما فائدة ان يسافر اذا حمل نفسه معه ؟ ما فائدة ان يهرب وما يخيفه ويفزعه معه ؟

وجاءت موجة هواء أطاحت بمنديل رأسها فرفعت رأسها تعيد احكام تغطيته ورأت موجة الضباب قد تكاثفت كثيرا ، وزادها هذا شعورا بالضياع .. وسمعت سعال المارين .. اذن ستعود موجة الضباب الشديد وستعود اخبار ضحاياه تحتل أعمدة الصفحة الاولى من الصحف .

في الاسبوع الماضي كان ضحايا الثلج هم ابطال الساعة ، وقبلها الجليد وقبلها المطر .. وهكذا لكل مناخ ضحاياه .. وبلادها ... بلاد الشمس والدفء ، أليس لها ضحايا ؟؟ الناس هناك يعيشون مع أهلهم وفي بيوتهم المدفأة بالشمس والحنان وهم يموتون في اليوم مرات ضحايا للشمس وضحايا للحنان وضحايا للاهل .

كان البرد يجمد اطراف أصابع يديها وقدميها فوضعت يديها في جيبي معطفها تبحث عن الدفء وتمنت لو تجد مكانا دافئا تحشر فيه قدميها حين سمعت صوتا يقول بانكليزية ركيكة : أتحبين مشاهدة فيلم سينمائي ؟

ولم تدر كيف خرجت منها كلمة لا .. قالتها بكل ما تستطيع ان تحمل الكلمة من غضب وكبرياء واعتذار وقسوة . قالتها وهي تحس موجة غضب تصفعها واستمرت تمشي دون ان تدير وجهها لترى السائل .

فعاد الصوت يسأل بمذلة : ولم لا ؟ أدارت وجهها لترى رجلا ضئيلا أسمر يبتسم لها في استعطاف أبله ، ولم تكلف نفسها هذه المرة جوابا واسرعت تمشي تكاد تركض والغضب قد تمالك جوانب نفسها . من هذا الغبي الذي يظن ان دعوة من عابر طريق ستلقى رضى عندها ؟ كيف خيل له انها قد تلبي دعوته ؟ واحست بكرامتها وكبريائها يدفعانها الى العودة والتفتيش عنه في هذا الظلام والضباب والبرد .. تعود لتفهمه من هي ومن أي بيت جاءت ومن في بلادها ممن يتمنون لو ردت لهم تحيتهم .. وتمنت لو تراه الان وتسمع دعوته لتلقي عليه محاضرة عن بلادها والفتيات هناك وتربيتهن المحافظة ومكانتهن في المجتمع . أيظن ذاك الابله انها ستركض اليه تشكره وترحب بدعوته دون تردد ؟ ليته يعود يعرض دعوته ثانية . ان كلمة ((لا)) مع كل ما حملتها من كبرياء وغضب واحتقار لم تكن كافية .

ولكن هل يوحي شكلها بانها من الفتيات الرخيصات بحيث تقبل أية دعوة من أي عابر سبيل ؟

وتذكرت انها تغطي معظم وجهها ، فالغريب اذن لم يدعها اذ أوحى له شكلها بالابتذال ولكنه اراد دعوة اية فتاة ما دامت ستخفف عنه وحشته . وزادها هذا حنقا . اذن فقد تساوت مع بقية الفتيات ولم تعد لها اهمية خاصة كالتي كانت تجدها في بلادها !! صدق من قال الغربة تضيع الاصل .. الغربة تضيع الاصل .. لو حاولت ان تترجم هذا القول لاهل هذه البلاد ، ماذا سيفهمون منه ؟ ولو حاولت شرحه للغريب الذي دعاها ؟؟ الغريب !! الغريب ! انه أيضا غريب .. غريب مثلها .. وقد ضيع أصله كذلك حين تغرب هنا .

وعادت صورة الشخص الاسمر النحيل بصوته المنسحق . لقد كان ضعيفا وهزيلا ومحزونا وكان في صوته نبرة توسل مؤلمة وخاصة حين عاد يسأل ولم لا ؟

أتراه قصد استرخاصها حين دعاها أم انه ضحية أخرى من ضحايا الوحشة ؟ قد يكون فكر طويلا قبل ان يعرض هذه الدعوة وقد مرت به فتيات كثيرات حاول ان يعرض عليهن دعوته ولكن شجاعته خانته . وكان من نصيبها هي ان واتته الشجاعة . لمَ تغضب عليه هذا الغضب كله ؟ أما كفاه اللهجة القاسية التي لفظت بها كلمة لا ؟

وتصورته امامها يمد يده بطلب معونة . لو طلب منها مساعدة مادية ، اما كانت تقدمها بكل رحابة صدر ؟

وهو الان يحتاج رفقة فطلب صحبتها . لعله لم يكلم أحدا منذ أيام .. قد يكون آتيا من بيت مرتب وعائلة محافظة كعائلتها ولكنه انسان يشعر بالوحدة تماما مثلما تحس هي . لقد تركت غرفتها الدافئة واسرعت في هذا البرد والضباب والظلام ساعية الى صديقتها تريد ان تزيل بالحديث اليها الخوف من الوحشة ..

وهو ، أليس انسانا من لحم ودم ؟؟

ربما كان مرفها مدللا في بيته . وتذكرت اخاها حين كان مسافرا وهلع امها عليه كلما فكرت انه بعيد عن الاهل والوطن والاحباب . كانت أمها ترسل لاخيها معمولات بيتية وشرقية وتلح عليه ان يختلط بالناس وان يهدي اليهم ما ترسل له علهم يخففون عنه بعض شعور الوحشة . وكانت امها ترسل خطابات شكر لكل الناس الذين يدعون ابنها لزيارتهم . وكانت تقول لها ولاخواتها : أنتن لا تعرفن معنى ان يستقبل الغريب بيت دافيء آهل بالناس .

وهي الان تعرف ما معنى الوحدة ، وما معنى الغربة والبرد . ما كان ضرها لو رفضت دعوة الشخص الغريب الاسمر الهزيل بصوت ليس فيه كل تلك القسوة ؟ ماذا لو أتبعت كلمة لا بكلمة شكرا دون ان تحملها معنى الامتنان كما يستعملها الناس هنا ؟؟ او حين يريدون التعبير بها عن شتيمة مؤدبة ؟

وتخيلته في بيته بين أهله وأمه تحيطه بكل حنان ورعاية وتخشى ان تختطفه الفتيات منها .

ربما كان مترفعا متكبرا في بلاده ولكن الغربة أذلته والوحدة أنزلته

عن كبريائه فجاء يستعطف المارين ويستجديهم كلاما ! وهي .. لم تحس أي شيء من هذا ، كان كل ما احسته الاهانة .. اهانة ان يتطاول هذا الغريب الابكن على عرض دعوته .

انه سيء الحظ هذا اليوم . فهنا عشرات من الفتيات يرحبن بأي دعوة من اي عابر سبيل ولو كان قد عرض دعوته على واحدة منهن لكان الان يجد اصفاء او يكون متأبطا ذراعا دافئة او قد يكون في بيت. ورفعت رأسها تفتش عنه بين المارين فلم تر أحدا وسمعت اصواتا فقط. كان الضباب يتضاغط بشدة ، وميزت في الاصوات أصوات نساء ورجال. اذن فقد وجد البعض رفيقات ووجد بعضهن رفقاء . والغريب الاسمر النحيل ذو الصوت المنسحق هل وجد فتاة تصاحبه ؟ وتمنت لو تراه بصحبة فتاة اذن لاحست براحة واطمئنان عليه.

وعبرها رجال يسيرون وحيدين وكذلك فتيات يسرن فرادى. الوحدة مرض هذا البلد . هناك وحيدون كثيرون غير الغريب الاسمر ذي الصوت المستعطف ...

وخفف التفكير في العدد الكثير من الوحيدين شعورها بالذنب.

وسارت تخترق سيطرة الضباب وحين حاولت ان تستبين معالم الطريق اكتشفت انها ضائعة لا تدري كيف تصل الى صديقتها . وقفت حائرة تحدق في الضباب فلم تر أحدا ، وأصاخت سمعها فلم تسمع صوتا . الطريق خال وقد لا تجد بسهولة من يرشدها . ولم تدر أين هي فهي لا تستطيع حتى ان تعود الى بيتها . وبدأ قلبها يخفق بشدة. وأحست بالاختناق وتمنت لو تسمع صوت سعال او صوت اقدام او لو تسمع صوت دعوة من عابر طريق . طالما جاءت تزور صديقتها وكانت تظن ان قدميها تقودانها دون حاجة الى التفكير في تفرعات الشوارع. فكيف ضاعت الليلة ؟ وما الذي ضيعها ؟

أهو الضباب ؟ انه الضباب وشيء آخر . لقد انتقمت السماء للغريب الاسمر الهزيل ذي الصوت المستعطف بان تركتها ضائعة تائهة لا تجد مخرجا لها في هذا الضباب . ورفعت رأسها تستجير بالسماء فلم تجدها . ومع ذلك فقد صلت لها وطلبت منها ان ترسل لها من تسأله عن الطريق، واذا بها تختم صلاتها بالتعهد له بأنها لن تكلم غريبا مستوحشا بلهجة قاسية بعد الان .

وحجب الضباب الكثيف وصول صلاتها الى السماء فوقفت تنتظر .. وطال انتظارها ففكرت بالعودة علها تجد معالم الطريق الى غرفتها بالفهقري فلم تدر كيف تتجه ، وخيل لها انها ستبقى تائهة الى الصباح. ثم قررت ان تستسلم للقدر لعل الاستسلام له يرضيه . ووقفت فترة لا تدري طولها قبل ان تسمع صوت اقدام . لم تسمح لنفسها بالفرح خوف ان يكون سمعها يخدعها ولكن الصوت المطمئن وضح .. نعم انها صوت اقدام ، وسحبت المنديل الصوفي عن رأسها تمتع اذنيها بصوت حركة بشرية ، ولم تفكر اول الامر بالقادم ، يكفي ان تجد انسانا تكلمه وتسأله عن الطريق فيدلها عليه : وحين اقتربت الاقدام أحست بفرح وخوف معا : فقد ميزت فيما رأت شبح شخص طويل القامة عريض الكتفين وتمنت لو كان شرطيا .. ولكن القادم لم يكن شرطيا ومر بها دون ان يتوقف او يتكلم او ينظر اليها. وتطلعت اليه يبتعد عنها والخوف عاقد لسانها . وبجهد استطاعت ان تنطق وتناديه فعاد ووقف امامها يعرض عليها مساعدته . سألته عن شارع بيتها فأخبرها عن عدد الامتار التي يجب ان تسيرها قبل ان تستدير الى اليمين ثم عدد المنعطفات التي يجب ان تترك قبل ان تستدير الى اليسار وختم كلامه معلقا على الجو : انه ضباب كثيف .

وكانت لا تزال تتمتم بعد قائلة : نعم انه ضباب كثيف ، حين سمعته يتمنى لها ليلة سعيدة .

وبالرغم من انها عرفت طريقها ، فقد ظلت تحس بأن الضباب يملأ عينيها وقلبها وروحها .

لندن — **ديزي الامير**



الوضع الادبي في السودان

بقلم عمر ابراهيم

تحية طيبة وبعد ،

طالعتنا مجلة الآداب في عددها الثاني اول فبراير ١٩٦٣ بكلمة قيمة عن جمهوريتنا ـ السودان ـ ركز الكاتب فيها حول قضية الادب في السودان نلخصها في الآتي :

« الجرائد في السودان تعد على اصابع اليد تضحي بعضها لا كلها في خلال الاسبوع بصفحة واحدة تمنحها للخواطر الادبية التي تتلقاها من شهداء الكلمات (السجينة) .

محررو الصحف ليسوا من أهل الادبولذلكلا يهتمون بقضيةالادب.

الانتاج الادبي ضحل .. والحياة الادبية مؤلة تحتاج الى جهود جبارة ..

عدم وجود مجلة أدبية في السودان له أثر كبير في ركود الحياة الادبية .. ولهذا لا بد من قيام مجلة ادبية وهي بداية فقط » .

ولي تعليق موجز حول هذه النقاط الهامة التي اثارها الكاتب ...

فقلة الجرائد في السودان ترجع اولا واخيرا الى الوضع السياسي القائم في هذه الجمهورية المترامية الاطراف . فقد كانت هنالك عدة صحف تخصص صفحات اسبوعية للنتاج الادبي ، ومناقشة قضايا الادب المختلفة .. نذكر منها على سبيل المثال : جريدة الايام .. الصحافة .. الصراحة .. وجرائد الاحزاب الوطني الاتحادي .. الشعب الديمقراطي .. والاخوان .. والجبهة .. وحزب الامة وله صحيفتان جريدة النيل والامة وقد كانت جريدة النيل من أنشط الصحف السودانية في دفع الحركة الادبية ..

وكل هذه الصحف كانت تصدر يوميا . ولكل صحيفة صفحتها الادبية الاسبوعية ... ومن المجلات مجلة المنار .. وصوت المرأة .. والصباح الجديد .. وهنا ام درمان .. ومجلة القصة ... وقد اختفت جميع الصحف اليومية والمجلات بعد حركة انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ . وبقيت ثلاث صحف يومية هي الرأي العام .. والسودان الجديد .. والثورة ، وهي جريدة حكومية تصدرها وزارة الاستعلامات والعمل .. وهناك بعض صحف اسبوعية مثل جريدة الاخبار ومجلة واحدة هي مجلة الاذاعة السودانية وهي مجلة حكومية تصدرها وزارة الاستعلامات ..

وقد اسهم الادباء السودانيون بالكثير في تحرير هذه الصحف بنشر نتاجهم في مجالات الادب المختلفة ، وباشرافهمالمباشر في تحرير الصفحات الادبية في الجرائد اليومية والاسبوعية .. اما اليوم فقد تغير الوضع في البلاد وقلت الصحف بعدما كانت تقارب العشرين من مجلة وجريدة يومية واسبوعية فاصبح بذلك مجال الصحف الموجودة حاليا لا يسع كل ما يقدمه الادباء والامل معقود الان في اتحاد الهيئات الادبية الوليدة .. فلعله يقدم على اصدار مجلة ادبية تعكس نشاط الادباء ولتكن هذه المجلة (بداية فقط) .

اما عن محرري الصحف فليس صحيحا انهم ليسوا من اهل الادب. كما ذكر الكاتب . فكل الصحف السودانية منذ قيامها كانت اهدافها الى جانب العمل السياسي ـ الذي تفرضه تلك الفترة الحرجة فترة الحكم الاستعماري ـ العناية بالنهضة الادبية والاخذ بيد ناشئة الادب والفكر في السودان .. وقد ظهرت على صفحاتها مناقشات ادبية في مستوى رفيع لا يقل عن مستوى ادباء القاهرة الذين كانوا على صلة دائمة بالادباء السودانيين . وقد تأثر الادباء السودانيون بالادب المصري في فترة طويلة من تاريخ السودان فالمناقشات التي تدور في القاهرة تعكسها الصحف السودانية في الخرطوم .. وجميع محرري الصحف كانوا الرواد الاوائل للنهضة الادبية والفكرية .. ولا نود ان نذكر تاريخ الصحافة والادب منذ عهد عرفات محمد عبدالله .. ومحمد عزيز الصديق واخيه عبدالله ومعاوية نور وغيرهم فالمجال لا يسع .. وموعدنا في فرصة اخرى ـ ويكفينا ان نقول ان محرري الصحف الثلاث التي تصدر حاليا كانوا من ابكار الخريجين الذين اسهموا بنصيب وافر في تحرير البلاد من قبضة المستعمرين وارساء قواعد الحكم الديمقراطي . الى جانب اعمالهم الادبية الممتازة . فمثلا اسماعيل العتباني كان احد اعضاء (مؤتمر الخريجين) واحد اعضاء (الجمعية الادبية) بمدني .. وهو الان رئيس تحرير جريدة الرأي العام يساعده كبار الادباء امثال حسن نجيله الاديب والمؤرخ الذي اضاف للمكتبة العربية كتاب (ملامح من المجتمع السوداني) وهو كتاب قيم جمع بين الحقائق التاريخية والانشاء الادبي الرفيع ـ .. وما يقال عن رئيس تحرير الرأي العام يقال عن رئيس تحرير السودان الجديد .. والثورة .. والاخبار ومجلة الاذاعة السودانية السيد محمد مفتاح الفيتوري صاحب ديوان (اغاني افريقيا) . فتاريخ الصحافة في بلادنا تاريخ حافل .. ومحررو الصحف ادباء مجيدون اشتغلوا بالادب قبل الصحافة وانشأوا الجمعيات الادبية وراسلوا الادباء خارج الحدود وناقشوهم وناظروهم في شتى الموضوعات الادبية . ودفعوا الثمن غاليا في سبيل الادب والفكر والحرية ...

ونحن مع ايماننا بهذه الحقائق لا ننكر موقف الصحف في هذا العهد . فقد اصبحت تجارية تعنى بالاعلان اكثر من المواد الادبية وذلك لضيق صفحاتها .. وهذا ما ادى الى ركود الحياة الادبية .. وما ينشر في الصحف اليوم ـ على قلته ـ من ادب هو ادب فاتر لا يعبر عن الحياة بقدر ما يسير في موكب النفاق والتملق. وهنا محنة الادب فيالسودان.

وفي حديثنا عن دور الصحف لا ننسى دور الجمعيات الادبية مثل جماعة الادب السوداني .. والندوة الادبية .. والجمعيات الادبية في جامعة الخرطوم . وجامعة القاهرة فرع الخرطوم .. وجماعة الادب المتجدد .. ونادي القصة .. فهذه الجمعيات تعمل جاهدة في دفع الحركة الادبية .. فقد قامت جماعة الادب السوداني بالاحتفال بذكرى شاعر الروح والوجدان التجاني يوسف بشير واخرجت كتابا يحتوي على دراسات قيمة عن هذا الشاعر العظيم .. ومـا زالت تحضر لمهرجانات ادبية كبرى ودراسات حول الادب الشعبي السوداني .. كما قامت بالدعوة الى اتحاد يجمع الهيئات الادبية المختلفة في صف واحد.. فقد تكون هذا الاتحاد واحتفل قبل ايام بذكرى الشاعر السوداني الكبير محمد سعيد العباسي ..

وعلى كل حال فقد بدأت بوادر نهضة ادبية حديثة تظهر في أفق الحياة الادبية في السودان بالرغم من المضايقات التي يجدها الكتاب والادباء وهم يعانون آلام الكلمة ويتعذبون في سبيلها ..

وختاما ارجو ان اكون قد وضعت النقط فوق الحروف ... مع تحياتي وتقديري للاداب والى اللقاء في فرصة سانحة وشكرا .

ردان

بقلم حسين علي صعب

من التعسف أن نطلق احكامنا جزافا ، وفق ما تقتضيه اهـواؤنا، على الاعمال الادبية وخاصة الشعرية ، فنعمل على تهشيمها ان لم ترض ذوقنا ، وعلى الافاضة بالمديح ان هي تعرت لنا ، كاشفة عن ذاتها للمرة الاولى من قراءتها ، دون مشقة وجهد ، ونكتفي حينئذ بتوجيه النصح والارشاد ، من عل ، الى الذين لسوء حظهم ، ساقتهم الاقدار لنحكم على نتاجهم الفني بالتعثر من غير ان نحس بحرارة الجهد الذي بذلوه حتى اخرجوا تجاربهم من حالة المعاناة الغائمة الى واقع التجسيد الواضح.

لعل ما ذكرت سمة واضحة من سمات نقدنا الحديث . فالناقـد، عندما يتصدى لعمل فني ، يبدي رأيه فيه ، ينظر اليه من زاويته الخاصة لذلك يجيء تقييمه له ناقصا وجزئيا .. منحصرا في جانب واحد من جوانبه المتعددة التي تشكله .

وانا لا انكر ان مطلق قصيدة ، كعمل ادبي يراد نقده ، خالية من العيوب . ولكن الذي ارفضه بشدة هو ان يقف الناقد عند هذا العيب، ويعمى عن اكتشاف الطبقات الفنية الاخرى الموجودة في تلك القصيدة.

ويصبح الرفض حادا ، والمشكلة اكثر تعقيدا وانحرافا ، اذا لـم يكلف الناقد نفسه ، او كلفها وعجز ، عناء البحث عن العيب والتأكـد منه ، قبل التشبث به، واخذه معولا لتهديم بنيان القصيدة وبعثـرة اجزائها لتظهر وكأنها شلو خمدت فيه نار الحياة .

دفعني الى هذا القول ما كتبه السيد جميل حسن حول قصيـدتي (الى عام ١٩٦٣) المنشورة في عدد شباط من مجلة الاداب الغـراء.

فقد قال : « واما القصيدة الرابعة (الى عام ١٩٦٣) لحسين صعـب، فاني اعتذر للشاعر عن انني لم استطع ان اتبين لها صورة كافية، وانني لاقيت صعوبة بالغة في قراءتها بسبب اضطراب وزنهـا هذ الاضطراب الكبير . ولعل الاضطراب حاصل من الغلط في توزيع التفعيلات عـلى الابيات ، فالشاعر يرص تفعيلة البحر الكامل « متفاعلن » وراء بعضهـا دون توقف ويقسمها بين اخر البيت السابق واول البيت اللاحق عـلى التوالي ... »

يستشف من ادعاء الناقد في حكمه على قصيدتي انه لم يفهم مضمونها ورموزها .. وتزول الدهشة اذا علمنا انه لم يحسن قـراءتها.. لم يعرف اين يبتدىء البيت واين ينتهي ، لذلك زعم بانها مضطـربة الوزن . وانا اتحداه ان يستشهد ببيت واحد خارج عى اوزان الشعر العربية ، ما عدا بيتين، المطبعة سبب الخطأ فيهما ، هما :

١ ـ السور حطم والشمس رأيتها ،
تنساب انهارا ،
وليل الموت أقمارا
على وجه التلال .
٢ ـ عادت الي عزيمتي ،
اعضائي ...؟
نهضت كمارد قد نام أعواما طوال

والصواب :

١ ـ السور حطم والشموس رأيتها ،
تنساب انهارا ،
وليل الموت اقمارا ،
على وجه التلال .
٢ ـ عادت الي عزيمتي ،
اعضائي ألتمت ،
نهضت كمارد قد نام أعواما طوال .

فهو يظن ، ولست اعلم السبب بالضبط ، ربما لانه ليس من انصار الشعر الحر، وبالتالي ليس من الذين يهتمون بقضاياه ، وبالتطـورات التي لحقته ، أن البيت الواحد ينتهي عند الفاصله . وهذا ظن غريب لان الناقد لو قدر له ان يقرأ البيت مرات متتابعة لوجد انه ينتهي عند النقطة ويظل معناه مرتبطا بالبيت الذي يليه . واعتقد انه قرأه عـلى الشكل الاتي :

أقبل عواصف تهدم الجدران عن وجهي ، بيت
تعري جبهتي للشمس ، بيت
يلثم نورها شم الجبال . بيت

والحقيقة ان قارئا واعيا يدرك ان هذه الاجزاء الاخذة برقاب بعضها، ليست سوى بيت واحد متموج النغم ، ينتهي معناه عند لفظة (الجبال) الساكنة الاخر .

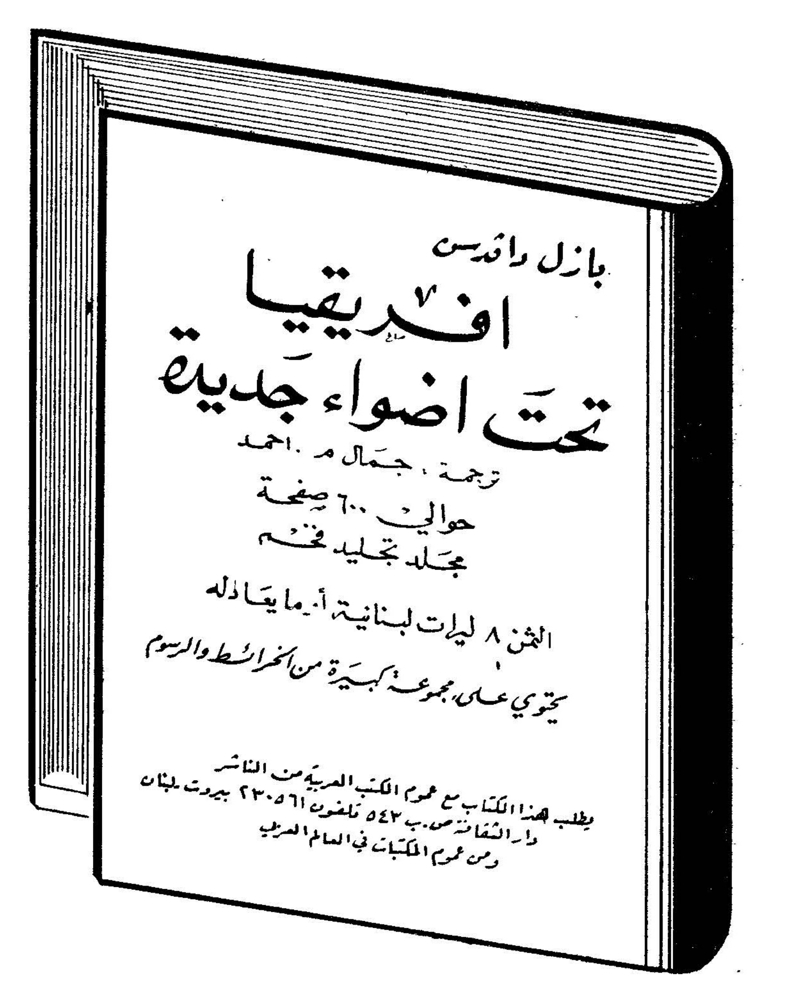
وللايضاح يجب ان يقرأ هكذا :

أقبل عواصف تهدمالجدران عن وجهي، تعري جبهتي للشمس، يلثم نورها شم الجبال .

مستفعلن ـ متفاعلن ـ مستفعلن ـ مستفعلن ـ مستفعلن ـ مستفعلن ـ متفاعلن ـ مستفعلاتن .

ولنفترض ان قصيدتي قطعة نثرية ، أفليس من واجب الناقد الكريم أن يشير ولو بكلمة الى موضوعها ، ولكنها طريقته في النقـد ، بل مسربه الذي لا يفضي به الا الى دراسة العروض ، وكأن القصيدة ليست شيئـا اخر سواه .

اما النظرة الثاقبة الشاملة الى القصيدة ، لتحيط بها من جميـع نواحيها وابعادها ، كاشفة عن مواطن الجمال ومواضع الاسفاف والقبح فيها ، فلم نلمح لها اثرا يذكر في المقال كله غير لمحات ضئيلة من اشارات عابرة ، تتصف بالتعميم . أي اننا نستطيع ان نشير بها الى اية قصيـدة كانت كقوله عن قصيدة فاروقشوشة « هذه القصيدة اللطيفة العـذبة الغنية بالعاطفة والرومانتيك الملحن .. » أو قوله عن قصيدة حسن فتح



الباب « لؤلؤة عذراء » « لقد اراد الشاعر ان يستعمل الرمز فيها ، الا انه لم يكن بارعا في اخفاء الصنعة واكساب الرمز صفـة الايحاء التي يتمناها .. » أما أين هو الرمز ، وما هي دلالته ، وكيف أخفق الشاعر عندما أراد ان يجعله موحيا فلم يتعرض الناقد لهذا كله بل اكتفى بـذكر الاخطاء العروضية . وكفى الله المؤمنين القتال .

— الرد الثاني —

لا أحاول في ردي هذا على كلمة السيد صبحي شحروري المنشورة في مجلة « الاداب » العدد الثاني ١٩٦٣ أن ابين الاخطاء الفادحة التي تصم الشعر الحديث ، والتي وجدها المناهضون لحركته ، ثغرات يوجهون من خلالها الطعنات اليه ، وانما ان اعترف اننا ، في مجالاتنا المختلفـة، الاجتماعية والسياسية والفنية ما نزال نسير مدفوعين بالعاطفة لا نترك لعقولنا مجالا تتجلى فيه فعاليتها بحيث نشعر الاخرين بان ما نمـدحه او نذمه ، هو ، في جوهره ، مستقل عن ذواتنا حري به ان يحترم او يزدرى . فالسيد شحروري، بدافع الصداقة ، والرابطة الادبية، يقـرر في دفاعه عن امين شنار انني استعملت ، من غير ان اشعر ، اسـلوب الاستاذ جوزيف نجيم في كلمتي « حول الشعر الحديث » اي انني هاجمت الشعر الحديث بينما قصدت أن ادافع عنه. تأويل عجيب، قادته اليـه عاطفته ، لما ذكرت في كلمتي التي ليس فيها سطر واحد يحمل غير معناه الخارجي. قلت : (واذا كانت هناك نماذج رديئـة مثل ـ الوحـش والمئذنة ـ على طيبة نيات أصحابها تفاجئنا في المجلات والصحف فلا بد من الاعتراف بان العجز واقع في الشعراء انفسهم لا في الشعر ، وبـان اتخاذ وسيلة منها لمحاربة الشعر الحديث عمل بعيـد كل البـعد عـن الموضوعية والمنطقية) . واعود فأقول بارادة ووعي ، لا دون ان اشعـر كما يدعي ، ان ـ الوحش والمئذنه ـ تمثل نموذجا رديئا ولا احاول دعم حكمي هذا بتحليل مقتضب لها ، لا اعتقادي انها هي ذاتهـا ، وبشـرح السيد شحروري الذي زاد على الطين بله ، خير شاهد على ما ذهبت اليه.

أما زعمه : « ليست قصيدة الشاعر امين شنار ولا الدفاع عنهـا موضوع هذه الكامة ، وانما هم هذه الكلمة ان تشير الى اننا نعيب على غيرنا اخطاء نقترفها نحن ... » فباطل يدحضه ما ورد في كلمته مـن مديح للشاعر وثناء على قصائده التي استشهد بمقاطع منها ، دون ان تقتضي ضرورة ما بذلك سوى انتشال الشاعر من الهوة التي قـذفه اليها ، بشرحه لقصيدته ـ الوحش والمئذنة ـ شرحا يدعم رأيي فيهـا، وان جاء مستترا تحت قناع المثال على الطريقة الصالحة في اصـدار الحكم على الاعمال الفنية . وارجو ان تكون هذه الاخطاء النحوية قـد وقعت سهوا ، ولم ينتبه لها الكاتب : ان في القصيدة مخاطبا ، وليس مخاطب" ـ انه يتحمل في سبيل ذلك الصعاب ويصادف الاهوال لان جواذب وقيودا وليس وقيود" الى هذا الحد تجني الذاتية عـلى فكرنا فتجعلنا نقلب المفاهيم رأسا على عقب ، متذرعين بان هدفنا ، في الكتابة ، تقويم اتجاه غيرنا ، ليتبع الطريقة الفضلى التي ندعي باننا نسلكها بموضوعية ووعي ، محاولين اخفاء عمليات الزيف والتمويه ، باقنعـة لا تلبث ان تضمحل وتتعفى تحت اضواء العقل الفاضحة . وهنا يصدق علينا قـول ابي العلاء المعري :

ومما ادام الرزء تكذيب صادق ... على خبرة منا وتصديق كاذب

بنت جبيل

حسين علي صعب

حول تحليل « السمـان والخريف »

بقلم صلاح عيسى

كتب الاستاذ رجاء النقاش في العدد الماضي من « الآداب » (عدد مارس ١٩٦٣) مقالا عن « السمان والخريف » رواية نجيب محفـوظ الاخيرة .

وفي البداية أحب أن أبرز أهم العيوب التي تبرز للناقد في هـذا المقـال :

لقد القى الكاتب في وجهنا بقضاياه واحكامه العامة دون تدليـل « فالمرحلة الاولى في أدب نجيب محفوظ ، والتي انتهت بظهور الثلاثية، هي المرحلة التي التزم فيها نجيب الاتجاه الطبيعـي » و « كان نجيب محفوظ بلا شك تلميذا نابغا من تلاميذ المدرسة الطبيعية » هذه بعـض الاحكام العامة التي يطرحها رجاء ، وكأنها قضايا مفروغ منها ومتفـق عليها ، دون ان يكلف نفسه مشقة التدليل العلمي على صحتها ، مكتفيا ببعض الحكايات عن فلوبير وبلزاك وزولا !

لقد تناول رجاء جزئية من الرواية محاولا التدليل عليها وهي ان أزمة عيسى أزمة وجودية ، ولكنه فصلها فصلا مبشرا عن بقية الرواية،

وعن ظروفها التاريخية ، ومع تسليمنا بحق رجاء في أن يفصل جزئية ويحللها ، فان (عزل) هذه الجزئية وتناولها من خلال فراغ ـ هو ما لا نوافق عليه .

ولقد ناقض رجاء ناقض نفسه بنفسه ، فأورد الموقف الاخير من الرواية ، وهو موقف لا وجودي على الاطلاق ، وهو وحده كاف لهدم كل ما كتبه !

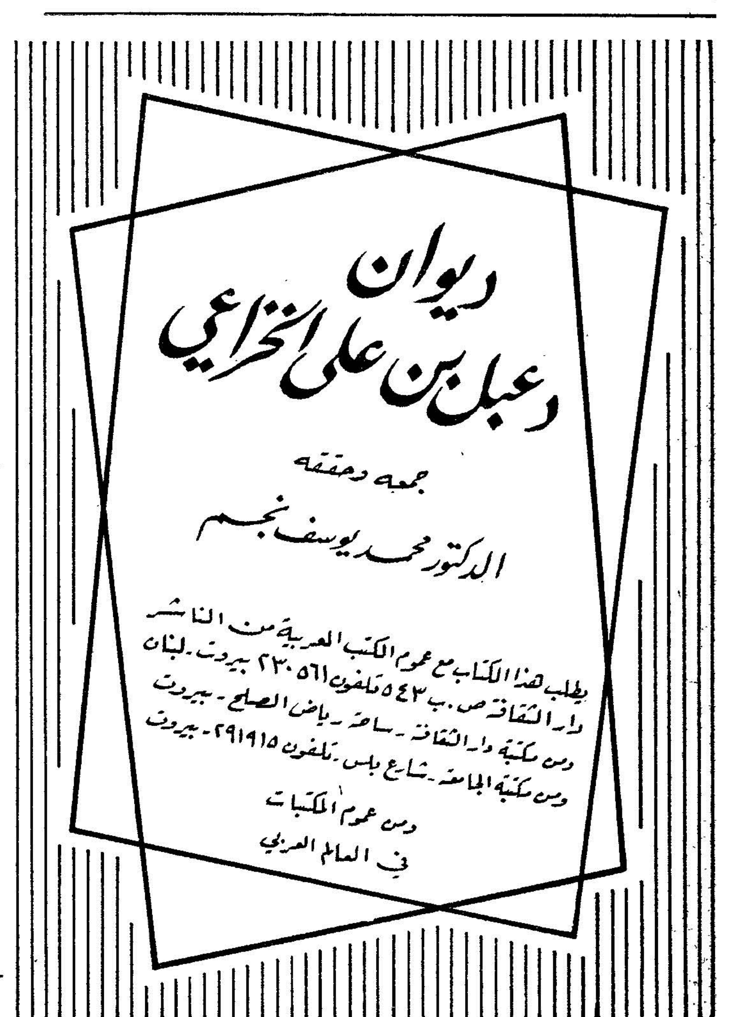
ان أزمة عيسى كما يصورها الكاتب هي :

١ ـ مشكلة الاحساس بالغربة ، وعدم الانتماء ، او الاحساس بأن الانسان مطرود من هذا العالم فهو يعاني مأساة السقوط والخطيئة .

٢ ـ ان المعنى الوجودي لهذه الازمة يتضح في موقفين اولهما حاجة عيسى الى مسكن ، والثاني انكار ابنته له !

٣ ـ ان احد الادلة الهامة على وجودية الرواية استعمال التعبيرات الشائعة عند الوجوديين ، مثل المنفى ، والعبث ، والاحساس بأن الانسان ((زائد عن الحاجة في هذا العالم)) !

فاما الادعاء بأن نجيب محفوظ هو من المدرسة الطبيعية فيبدو أنه ينطلق بدون تقدير للاحساس الفلسفي للطبيعية ، لقد ارتبطت الطبيعية في الفكر الفرنسي بموقف تاريخي معين ، فعند ظهورها في اواسط القرن الثامن عشر ، كانت فرنسا تعيش في تناقضات حادة ، نابليون الثالث قد انهار ومعه نظامه البرجوازي ، كوميون باريس أول حركة تقدمية قد انهار ، الاشتراكية العلمية تتسلل كجحافل النور ، وحفاظا على كيان الذين كانت لهم مصالح ظهرت حملة رجعية تعيد ترميم الحياة الرجعية بأحدث الاساليب ، رجعية في السياسة ازدهر معها الفريق الملكي الاوتوقراطي وبدأ الهجوم على الثورة الفرنسية مثالية في الفلسفة ، طبيعية في الفن .



في الفلسفة بدأ ترميم المثالية التي كانت تتهاوى تحت أقدام الواقعية ، وسرق الفلاسفة المثاليون مصطلحات العلم ، فظهرت الوضعية على يد أوجست كونت لكي تقول : ان العلم والفلسفة يصفان الظواهر دون تفسيرها ، اننا ندرس الاشياء كما هي لا كما ينبغي ان تكون ، اننا لا نفهم التاريخ ، ولا المجتمع ، اننا نصف ما امامنا فقط !.. وبعبارة اكثر صراحة ان الاوضاع التي امامنا هي هكذا ، ولا نعرفها سوى هكذا ، ولا يمكن ان نغيرها لاننا لا نعرف قوانينها .. وانعكست الوضعية على الفن، فرأت أن دوره يقتصر على تجميع وتصفيف الظواهر المختلفة ، ومن هنا فان الفنان ينبغي ان يظل محايدا بازاء الاحداث ، وان يمسك عن حكمه عليها، وفي هذه الفترة كتب بلزاك وفلوبير وزولا، متأثرين بالعلم الوضعي نفسه ، الذي ابرزه اذ ذاك البيولوجيا ، فحفلت قصصهم بالفوتوغرافية، وبالتركيز على الجزئيات والقول بفكرة الوراثة ..... الخ.

الطبيعية اذن رجعية مستترة ، وان كانت في مجال الفن قد مهدت لظهور الواقعية الاشتراكية فذلك لان الفكر الفرنسي كان يغرق في الرومانسية حتى أذنيه ، فكان النزول الى أرض الواقع ـ وان كان بصورة رجعية ـ تمهيدا للنزول اليه بالفهم العلمي السليم ..

وعلى ضوء هذا العرض السريع للطبيعية ، هل يمكن أن نعتبر نجيب محفوظ ((تلميذا نابغة من تلاميذ المدرسة الطبيعية)) ؟ ان الدور العظيم الذي قام به نجيب محفوظ هو أنه قدم لنا المجتمع المصري من خلال رؤية تؤمن بالتطور ، وتحدد عوامله ، وقواه ، وتسير بها الى منتهاه ، ومن هنا كان التاريخ جزءا من مناخه الروائي ، لا لانه مؤرخ، بل لان التاريخ هو قالب الوجود الاجتماعي في لحظة معينة . وفي كل لحظة تاريخ ، أستطاع نجيب محفوظ ان يقدم لنا ببراعة القوى المتصارعة التي تصنع الحركة نحو الامام ، وعوامل الجزر والمد من الداخل والخارج . وفي غياب أي فهم علمي للمجتمع المصري قام نجيب بدوره كفنان وعالم ومؤرخ في لحظة متمازجة كلية فاستطاع ان يقدم هذا المجتمع في رؤية صحيحة ، وقد التجأ للانماط لكي يبرز القوى المتصارعة مجمعا ملامحها فينماذج مفردة، يكون سلوكها وأزمتها ابرازا لسلوك وأزمة القوى المتصارعة من أجل التطور . ان رؤية الواقع في تطوره هو الخط الكلي الذي يمكن ان نراه خلال ادب نجيبمحفوظ، واذا كانت ((الطبيعية)) قد أثرت فيه من ناحية اهتمامه بالتفاصيل الدقيقة ، فهو يستخدم هذه التفاصيل كاطار للواقع الذي يصوره . ان التأثر هنا تأثر شكلي ، وليس تأثرا مضمونيا ! هذا هو المهم !

* *

ما هي الروافد التي تنبع منها أزمة عيسى الصباغ ، وما هي طبيعة الرحلة البطولية الخارقة البطولة التي قام بها لكي يحل تناقضاته الناتجة من موقف تاريخي معين ؟! وهل هي أزمة وجودية ؟؟ ان النظر لازمة عيسى ينبغي ان يكون من خلال رؤية كلية لشخصيته وتطورها ، لا من خلال جزئيات ، وكلمات مبتورة .

السمان والخريف رحلة مليئة بالبطولة الخيالية ، يقوم بها فرد ، لكي يحل تناقضاته الداخلية الناتجة من موقف حضاري معين ، هو لحظة تطور تاريخية هدمت كل الماضي ، وكل ما يحويه ، وكل من يرتبط به. عيسى فرد له أرضية ، وكيان ، وتاريخ ، وهو لا يقذف في وجهنا بكل تناقضاته وكأنه محكوم عليه بها ، وانما هو واحد من ابناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، المرحوم والده ((عاش ومات موظفا صغيرا مغمورا)) (١) ، وهو ـ سنة ١٩٥٢ ـ في الثلاثين من عمره ـ أي انه احد مواليد ما بعد الثورة المصرية القومية ، وتاريخ حياته بعد ذلك هو تاريخ حياة الكثيرين من الذين شاركوا في الكفاح ضد الاستعمار ، لقد مرت به ((فترة حية من نبض القلب ، هدير يخلد في الاسماع ، وهراوات الجنود كالصواريخ ، والحماس المهلك للانفس)) (٢) كان عيسى وطنيا يؤمن بقضيته ، أعطاها نفسه ، ووهب لها حياته ، وتحمل في سبيل ذلك الكثير ، ثم جاءت لحظات ((الاغراء الموهن للهمم ، وزحف الفتور كالمرض))

(١) ص ١٩ (٢) ص ٢١ (٣) ص ٢١

فارتشى عيسى ، وتوسط لمجرمين ، وزحف حتى وصل الى الدرجة الثانية وهو في الثلاثين من عمره ورشح للوزارة ، لقد بدأ بطلا .. وانتهى بالرصيد ٣٤١٢٣ بنك مصر. نحن اذن امام احد ابناء الطبقة البرجوازية الصغيرة ، طبقة اللامنتمي الخالدة ، حيث يسود المحتوى الاقتصادي غير الثابت ، وتصبح الخيوط التي تشد مصالح الناس في تجمع طبقي غير موجودة ، هنا يسود التذبذب والانهيار .. والضياع ، على ان عيسى قد ارتبط بقضية ، وفي الطريق لحلها سقط ، كما سقطت الطبقة التي قامت ثورة ١٩١٩ عندما لم تستطع ان تواجه الحلف المعادي الذي كان يقف لها بالمرصاد حلف العداء من الملك وكبار ملاك الارض والانجليز .

..... ثم جاء « الزلزال دون نذير كاذب » (٤) عندما قامت حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وتبين لعيسى « ان ذلك الماضي يتبلور الان في صدره فقاعه لن تلبث ان تنفجر ، وان وجها جديدا للحياة يسفر عن صفحته رويدا رويدا ، حافلا بالجدة والغرابة ، وان بوسعه ان يتعرف على هذا الوجه لانه سبق له ان لمحه هنا او هناك ، ولكن من أين لهذا الوجه ان يتعرف عليه هو داخل الفقاعة المتفجرة » (٥) ، ان الجديد الذي أتى ، شيء مر في احلام عيسى ، ولكن المشكلة ، كيف يتعرف عليه هو داخل الفقاعة المنفجرة ، تلك الفقاعة التي قامت لتلتهم كل ما للماضي من أمجاد . وتنبه عيسى لان الزوبعة التي قامت « ستقتلع الجذور التي ثبتته بأرضه جذرا بعد جذر » (٦)

وهنا تتبلور أزمة عيسى في احساس مبهم ، انه يتساءل « أين الايام الطاهرة أين ؟! اما الختام فهدايا محرمة ، وفساد ثم الضياع ، وانت على عتبة المناصب العالية المؤدية الى كرسي الوزارة ، وكيف تعيش في دنيا من الناسين والمتجاهلين ، والشامتين، وقد طويت الامجاد، كأن لم تكن ، ونشرت الاخطاء كالاعلام » (٧)

.... هذه هي أزمة عيسى ، ان ماضيه الرائع ، قد نسي ، وماضيه القذر ينتشر كالاعلام ..

لحظة تطور واثبة ، تقذف من فوق الارض ضحاياها .

ان ازمة عيسى ، هي أنه قد عاش احساسه بماضيه اكثر مما عاشه غيره ، كان يؤمن ان الجوانب الخيرة في هذا الماضي يجب أن تبقى.

ولهذا رفض أن يتبع سبيل صديقه ابراهيم خيرت ، المنافق ، الذي طلق الماضي ، والحاضر ، وسار بلا مبدأ ، هذا هو اللامنتمي الحقيقي.. ورفض ان يتصوف مثل سمير عبد الباقي الذي « هرب » هروبا حقيقيا عندما تصوف وارتبط بالفراغ او باللاشيء . اما عيسى فقد اختار الهروب « داخل الواقع » لكي يمارس تناقضاته حتى يجد لها حلا .

وكانت رحلة عيسى بعد ذلك هي رحلة مضنية وشاقة لحل هذا التناقض الذي يعيشه ، تناقض بين ارتباطه بقضايا وطنه ، واحساسه بالهزيمة الشخصية ، وفي سبيل حل هذا التناقض مر عيسى بمراحل متعددة ، بدأت بحيرة ضبابية يختلط فيها الجنس بالخمر، ثم يمر بثلاث تجارب تساعده على حل تناقضاته ، تجربته مع ريري ، وتجربته مع العدوان وتجربته مع ابنته ، ثم يحل التناقض عندما يسقط الماضي خلال عملية نقد ، ونقد ذاتي قاسية ، ويرتبط عيسى بالمستقبل .

* *

ان مرحلة الحيرة تبدأ بادراك اللحظة التاريخية ادراكا فرديا ، انه يتساءل « لماذا قدر عليه ان يحارب التاريخ في موكبه المتدفق منذ الازل» (٨) ، وهو يحاول « النفاذ الى بواطن الادميين المتلكئين في القهوة لغير ما سبب واضح ، وجرى في الماضي ملايين السنين بين الدهشة والارتياع، فرأى شحاذا واقفا وراءه ليرمقهم بنظرة مستعطفة ، وقد انقطع المطر فقال لاصحابه

ــ تصوروا ان هؤلاء الآدميين انحدروا في الاصل من السمك

ــ لكن الاسماك ما زالت تزحم المحيطات بملايين الملايين

(٤) ص ٤٨ (٥) ص (٦) ص ٤٨

(٧) ص ٥٨ (٨) ص ٦٨

فقال بيقين :

ــ وهذا هو سر مأساتنا الحقيقي » (٩)

ها هو يحس بمأساته ، انه واحد من السمك القديم ، ظن انه النهائي ، لكن الواقع يلطمه ، فيتساءل في حيرة ، ان الاسماك كلها ستتحول الى آدميين باستمرار ، وسيوجد دوما مأساة ضحايا لحظة التاريخ التي يظهر فيها من البحر اسماك ، تميت السمك القديم !.. وبين كل لحظة واخرى ينظر الى امرأة بنهم جنسي، او تنطلق منه ضحكة ذات شرارة جنسية .

انه يعيش بهذا الاحساس كرمز حقيقي لمأساته ، انه يهتف : « ألا لعنة الله على التاريخ » (١٠) وهو يرثي لضحايا التاريخ بقلب متأوه ، ويرى انه يتلقى على يافوخه انقاض العالم القديم الذي يتقوض (١١)

ومن خلال تجربته مع ريري ، يبدأ بنفي الواقع في التعبير عن وجوده في نفسه ، انه يقول « ان استقلالها الحقيقي هو أن تتحرر من الحاجة الي أنا وامثالي » (١٢) ، واذا كان ينهي هذه التجربة بموقف هروبي ، جباني ، الا ان هذا الانتهاء بداية لمرحلة جديدة ، تزيد من احساسه الحاد بالجوانب المظلمة في حياته ، في القاهرة يراقص فتاة ايطالية فيتأثر بجمالها ، ويحزن لامتهانه « ولكنه قال ان قيما تميته غير الجمال ، تلقى نفس المصير ، كالحرية ، والادمية ، وحتى الدين يتاجر به أناس بلا حياء ، انها في الحقيقة مأساة واحدة وهو نفسه وقع في نفس العبث في ماضيه فهضم الوانا من الفساد وشارك فيه ، ولا يزال رصيده في البنك شاهدا على ذلك ، فلم لا يسود النقاء ، وما الذي حال دون ذلك طوال القرون ، وهل يوجد في مكان ما من الارض انسان يعيش بلا خوف ، ولا رذائل » (١٣)

هنا تتسلل بذور جديدة الى فكر عيسى ، ويبدأ اتجاه جديد تجاه تجربة جديدة : الزواج « لقد راوده حلم بتغيير جذري في حياته » (١٤)

ان تجربة الزواج تكشف عن اشياء جديدة . سأله سمير :

« ــ كيف وجدت الزواج ؟

ــ عال ولكن ..

ــ ولكن أشك في أن انسانا يهضمه بلا عمل ، وبلا اطفال » (١٥)

ان اتجاهه الى الارتباط بالعوامل الايجابية يتحدد تدريجيا !! بعد كل تجربة ، ان التجربة الثالثة هي تجربة عامة ، تجربة الوجود الوطني كله، العدوان الثلاثي « انفعل بالنبأ لحد الهذيان ودار رأسه بالافكار ، حتى أصابه الدوار ، غضب الغضبة الجديرة بالوطني القديم ، الذي تعذب بالرغم من تلوثه من أجل مصر ، وتشبثت قدماه بحافة الهاوية التي تهدد وطنه بالضياع ، وأبعد عن فكرة الثورة ومصيرها ليحتفظ بمشاعره في أوج انفعالها » (١٦) انه يعاني لحظة التأزم التي يرتفع فيها التناقض الى مرحلة التطاحن بفعل تجربة جديدة ، وحية ، وثرية ، انه يرى ان من واجبه « ان ينصر شطره المتكلم على شطره الصامت ، وان يحتقر المهاجمين بلا حياء اعرابا عن احتقاره لشطره الصامت ، ماذا أدى بنا الى هذه الحالة المحزنة حقا ؟! الا من سبيل الى نسيان الهزائم الشخصية » (١٧)

في فترة الغارات والاظلام أتاح له البقاء في المنزل « فرصة اكبر لتأمل الموقف وللتشبع بالخطر ، والحنين للنصر ، واسكات شطره الخفي، فتحرك في أعماقه نبع للحماس ، اوشك ان يدفعه للتضحية . وعند تسكعه نهارا قرأ في مئات الوجوه مشاعر كالتي تشده الى الحياة رغم الغبار والفناء » (١٨) من خلال هذه التجربة الموضوعية الآتية من الخارج، يبدأ عيسى في الارتباط بالحاضر ، انه يخطو الخطوة النهائية للانطلاق.. وبعد المعركة بدأ عيسى في النظر الى موقفه في محاولة تغيير شامل ومعالجة متناقضاته بوعي حقيقي « لكل انسان عمل وهو بلا عمل ، ولكل

(٩) ص ٦٩ (١٠) ص ٩٢ (١١) ص ٩٤ ، ٩٥

(١٢) ص ١٦ (١٣) ص ١٣٠ (١٤) ص ١٣٣

(١٥) ص ١٤٤ (١٦) ص ١٤٤ (١٧) ص ١٤٩ (١٨) ص ١٥٩

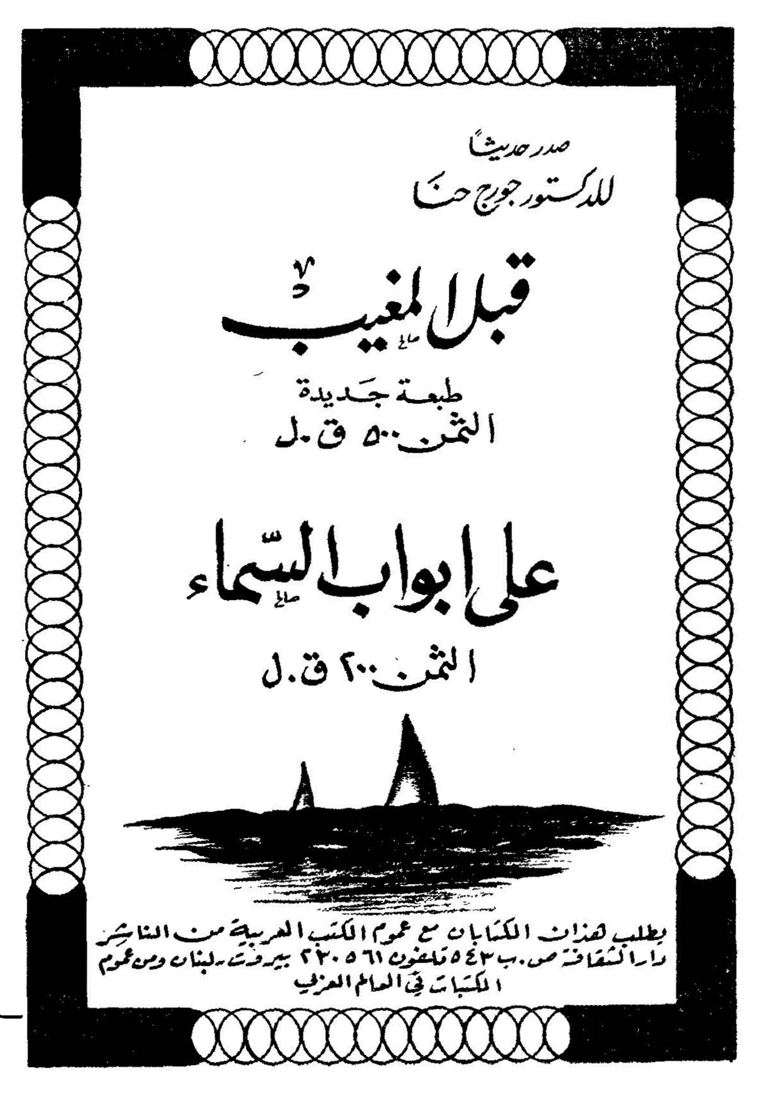
زوج ذرية ، وهو بلا ذرية ، ولكل مواطن مستقر وهو منفي في وطنه ، وماذا بعد الدورات الهروبية المعتادة ؟ » (١٩) ان يتأمل وجوده تأملا واعيا .. ويفقد ماضيه بقسوة ، ويشجب حاضره الانهزامي. انه يتساءل في انكار .. كيف تلوث الوفد ، هرب كلا ثم كلا، كيف انهزم بعد ١٩٣٦ ، انه يرفض القول بأنه كان خير الجميع حتى النهاية ، لان النسبية ليست هي المقياس ، ولانه لم يكن كذلك فعلا بعدما ارتمى في احضان حلفه المعادي ، الملاك الكبار للارض والسراي والانجليز .

وعندما علم بأن رجال حزبه القديم ذهبوا لكي يفاوضوا في التسليم خلال العدوان الثلاثي وثبت الى ذهنه صورة المندوب السامي ، انه يراهم اعداء ، انهم يتهاوون ، ان الماضي يسقط ولكنه ما زال هو وغيره بلا دور ، « السياسة تصنع لهم وهم كالاغوات (٢٠) وبقسوة يفقد سلوكه ويرى نفسه « يرتبط بامرأة ليسرقها لا ليحبها » (١) ويتساءل « ألا توجد افكار من نوع آخر تفتح الصدر للحياة » (٢١)

وتأتي آخر تجربة لكي تنهي موقفه ، انها تجربة اكتشاف ان له ابنة ، هذه هي نقطة نصره العظيم ، انطلاق تحقيق وجوده مواجهة صريحة مع نفسه .

« لقد اعتاد ان يهرب مرات في اليوم الواحد ، ولكنه لن يهرب امام هذه الحقيقة الجديدة التي اجتاحت مستنقع حياته الراكدة فتفجر عن ينابيع حارة لعلها دعوة اخيرة يائسة الى حياة ذات معنى في حياة أعياه ان يجد لها معنى ، لن يهرب ، وليس في مقدوره ان يهرب وسيواجه الحقيقة بوجه متحد وبأي ثمن ، أجل بأي ثمن ، وسيرحب بذلك أيما ترحيب » (٢٢) ان ابنته هي رمز المستقبل الجديد ، ويبدأ

(١٩) ص (٢٠) ص ١٧٧ (٢١) ص ١٩٢
(٢٢) ص ١٩٢



في العمل الايجابي للارتباط فتهتف به .

« لست أبا .. أنت جبان .. لا يمكن أن تكون أبا » (٢٣)

انه جبان لانه انغلق على ذاته ، أكله الماضي ، لم يرتبط بالابن ، بالمستقبل .

ان الابنة تتحول من كيان الى رمز .

« هذه الصغيرة شاهد على سخف كثير من المخاوف ، شاهد للطبيعة عندما تضرب لنا المثل على امكان التغلب على المفاسد، الان تستطيع ان تخلق من احزانك وخسائرك وهزائمك نصرا ولو بسيطا، وما هو بالنادر ولا بالجديد ، فهذا البحر الذي احتفظ بصورته ملايين السنين قد شهد أمثلة على ذلك لا حصر لها » (٢٤).

هنا يحل عيسى تناقضاته من خلال تجاربه الملتحمة مع الحياة والواقع ، ويبلغ وعي عيسى بقضيته الشخصية والعامة القمة ، ثم يأتي المستقبل ووردته الحمراء بين اصبعيه ، فيسير عيسى في طريقه .. سائرا مع التطور الى منتهاه !

هذا هو عيسى ، بطل يحل أزمته وتناقضاتها بتفاعل مع الحياة من خلال تجاريب شخصية ، انه لا يهرب في التصوف مثل سمير ، ولا يتقهقر مثل ابراهيم خيرت ، ولا يخون مثل السلهوبي ، كل أزمته لحظة تاريخ!

* *

ان « السمان والخريف » ليست كما يقول رجاء «قصةالانسانالذي أكل من التفاحة المحرمة ، قصة الانسان الضائع الذي وقع في الخطيئة واسلمته الخطيئة لعذاب كبير » عيسى ليس سيزيف ، ليست وليدة الالهة الغاضبة ، ليست حتمية ، لم تلق في وجوهنا بكل أزماتها، وانما القيت ومعها تاريخها ، انها ازمة لحظة ، وهي تتطور بوعي نحو الارتباط بالقيم الرائعة للحياة ، وهي تشجب في قسوة أ ليمة هذا الانهيار، والتفسخ المهتريء. انها لا تدافع عن العبث ، وهي ايضا ليست نوعا من ابقاء المتناقضات في حالةتوازن ، انها تبدأ بتمرد ميتافيزيقي وتنتهي بتمرد تاريخي ، ان لحظة التمرد الميتافيزيقي - كما يقول به كامو - في هذه القصة هي احتجاج عيسى على نفسه، ونفيه لها، معبرا عن احساسه بالخطيئة - وان كانت هنا لحظية - وبالظلم ، ثم ينتهي هذا التمرد الى تمرد تاريخي : ارتباط بالقوىالتي تصنع التطور اللانهائي ..

ان وجودية كامو ترفض التمرد التاريخي ، لانهم يرفضون ، ان التمرد عندهم ليس نفيا مطلقا ولا ايجابا مطلقا ، ولكنه وسط متوتر ، بين السلب والايجاب ، وان الانسان المتمرد عند كامو ليس هو الذييؤكد «الوعي» على حساب «العالم» بل هو الوتر المشدود بين الوعي والعالم ! محاولة اخرى لتجميد المتناقضات ، لتمييعها ، وهذا هو الدور الذي تقوم به اليوم الوجودية والوضعية المنطقية والبرجسونية ، انها فلسفات ضد التطور ، انها تصور مهاوي الازمة التي ينحدر اليها عصرالامبريالية، وتحاول ان تبقي عالمها المنهار حتى اخر لحظة ، ان الابطال الوجوديين هم مخلوقات معذبة ، رغم انها تحاول ان تلقي على عذابها ستارا من الفلسفة ، مخلوقات عنكبوتية المحتوى ، يصرخ الفراغوالخراب داخلها بشعارات مجرد شعارات عن الحرية والكبرياء وامتلاك المصير ، كل القيم التي تعمل الوجودية حقيقة على هدمها عندما تسلب من الانسان قوانين التطور وترميه بالخطيئة، وتحمله صخرة يقضي حياته صاعدا هابطا بها.. ثم تقتله ، تميته ، هاربا من الوجود بعد حياة غريبة .. مهزومة..ضائعة!

ليس هكذا نجيب محفوظ، وليس هكذا عيسى الصباغ .

لا يجب ان نحكم على نجيب من سطح الوعي ، من خلال كلمات والفاظ وجمل ومشابهات ضئيلة ..

وليست السمان والخريف هي اول رواية لنجيب تنتهي بدعوة الى التخلص من أزمته .. ان صوت احمد شوكت في «السكرية» دعا كمال الى التخلص من ازمته ، ونهاية « بداية ونهاية » تكشف لحسين انه كان يمكنان توجد نهاية اخرى.. ولا بد انتعيد قراءة نجيبيا عزيزي رجاء..

القاهرة — صلاح عيسى

(٢٣) ص ١٩٢ . (٢٤) ص ١٩٣ .

النشاط الثقافي في الوطن العربي

لبنان

منظمة حرية الثقافة .. ايضا !

لايزال نشاط « منظمة حرية الثقافة » المشبوه في لبنان يثير اهتمام الادباء والنقاد عندنا ، باعتبار ان هذا النشاط يسيء الى سمعة النتاج الوطني الرصين ، مادامت هذه المنظمة تفسح في مجلاتها الاجنبية اوسع مجال للدعاية الصهيونية وتمجيد اسرائيل ومهاجمة العرب في قوميتهم وثقافتهم .

ولا شك في ان الحملة التي قامت بها الصحافة الوطنية في لبنان على نشاط هذه المنظمة قد كان له صدى كبير في مختلف اوساط المثقفين العرب ، في جميع البلدان العربية ، حتى ان رئاسة تحرير مجلة « حوار » التي تصدر في بيروت عن هذه المنظمة اصبحت تشكو مر الشكوى من امتناع معظم ادباء العربية عن التعاون معها والكتابة فيها ، بالرغم من التعويضات المادية المغرية التي تعرضها المجلة على الادباء مقابل مقالاتهم ...

وقد ارتاحت الاوساط الادبية في لبنان للمقالات التي كتبت اخيرا في صحف الجمهورية العربية المتحدة في فضح نشاط منظمة حرية الثقافة ، بالرغم من ان هذه المقالات قد جاءت متأخرة ... ولكن اوساط المثقفين في الجمهورية العربية المتحدة بدأوا يلمسون الاضرار التي تنشأ عن ترك هذه المنظمة تمارس نشاطها بمختلف وجوهه فأخذوا ينبهون الى اخطارها ويطالبون بوقف نشاطها . ومن المؤسف ان بعض المفكرين مايزالون يصمون آذانهم ويتجاهلون هذا الامر ..

هذا وقد دعا النادي الثقافي العربي في بيروت الى جلستين عقدهما في مقره وشهدهما عدد من الادباء اللبنانيين وقد ناقشوا في هاتين الجلستين قضية المنظمة نقاشا رصينا واستعرضوا نشاطها وتساءلوا عن مصادر تمويلها ، كما اطلعوا على ماتنشره مجلاتها الاجنبية من الدعاية للصهيونية واسرائيل . وتقرر في النهاية اصدار بيان حول هذا النشاط يوقعه الادباء اللبنانيون ، وسننشره في العدد القادم .

نداء من اصدقاء الكتاب

جاءنا من جمعية اصدقاء الكتاب النداء التالي في سبيل مكتبة جامعة الجزائر :

لقد كان من أهم المآسي الحضارية التي نزلت بالشعب الجزائري الباسل في حربه التحررية اقدام المستعمرين على نسف مكتبة جامعة الجزائر ، واحراق مئات الالوف من الكتب النفيسة التي كانت تضمها . والحكومة الجزائرية والشعب الجزائري يعملون الآن ، في خضم معركتهما التعميرية الضخمة ، على اعادة بناء تلك المكتبة وتزويدها بالكتب التي تحتاج اليها جامعة الجزائر لاداء مهمتها الثقافية للشباب الجزائري الناهض .

فتضامنا مع هذا المجهود الثقافي النبيل الذي يقوم به شعب عربي شقيق ، تدعو جمعية أصدقاء الكتاب في لبنان المؤلفين والناشرين واصحاب المكتبات والقيمين على دور الكتب وسائر المواطنين الى التبرع بالكتب والمؤلفات لتقديمها الى مكتبة جامعة الجزائر فيؤدون بذلك خدمة هي من صميم رسالة لبنان . يرجى من المتبرعين الاتصال بجمعية اصدقاء الكتاب (تلفون ٢٩١٠٢٧) لتتسلم الكتب وتتولى ارسالها باسمهم .



الرجل والكلمات

لمراسل الاداب الخاص

●

مات لطفي السيد عن واحد وتسعين عاما .

ولطفي السيد كما يسمونه عندنا في مصر هو أستاذ الجيل . لانه استاذ طه حسين والعقاد والحكيم وهيكل والمازني وكل اعلام الجيل الاول من كتاب مصر .

ولطفي السيد يحتل عن جدارة مكانة عظيمة في الفكر العربي في مصر ، فهو الرجل الذي عقد الزواج الشرعي بين مصر العربية وبين الغرب ، ولولا هذا الزواج لكنا مازلنا حتى اليوم نتخبط في الظلال السوداء التي تركها على حياتنا الحكم العثماني المليء بالظلم والظلام ، والذي لم يكن يحمل معه يوما أي معنى من معاني التقدم او الحضارة.

ويمكننا ان نفهم الدور الكبير الذي لعبه لطفي السيد في حياتنا اذا رجعنا الى الكلمات الاساسية التي كان يرددها ويستخدمها دائما .

واذا راجعنا كتاباته وأهمها كتابه الكبير « صفحات مطوية » الذي صدر في مصر سنة ١٩٤٦ ، والذي يضم مجموعة من المقالات كتبها لطفي السيد مابين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٢ ... اذا راجعنا هذا الكتاب ادركنا بوضوح ان الكلمات الرئيسية التي تشغل لطفي السيد هي :

الديموقراطية - الدستور - الحرية - الفرد .

وهذه الكلمات الاربع الخطيرة هي محور فلسفة لطفي السيد . ولم يكن هو بالطبع اول من دعا للدستور وللنظام الديموقراطي البرلماني، فهذه الدعوة قائمة في مصر منذ ايام الخديوي اسماعيل ، ولقد كانت الثورة العرابية في جوهرها دعوة الى الديموقراطية البرلمانية والدستور الذي يعطي للشعب حق انتخاب ممثليه وحكامه . ولكن لطفي السيد هو الذي سهر على هذه المعاني وبذل مجهودا ضخما لبلورة مفهومها العلمي ، ولجعلها حقيقة عامة مفهومة ومعروفة امام الحركة الوطنية المصرية كلها .

ولا شك ان لطفي السيد استطاع ان يساهم مساهمة كبرى في « شحن » العقل العام بهذه المعاني ، حتى قامت ثورة ١٩١٩ وهي مجموعة من المعاني الواضحة المحددة امام الجميع ، وبعد انتهاء الثورة كان من اهم اهدافها التي تحققت اعلان الدستور والنظام البرلماني سنة ١٩٢٣ .

وكان لطفي السيد مؤمنا بالحرية بمعناها الغربي « الليبرالي » . وقد دفعه هذا الايمان - كما أوضح الدكتور لويس عوض في مقاله القيم عنه بعدد ١٥ مارس من الاهرام ، الى ان ينادي بالحرية الاقتصادية ويرفض رفضا واضحا أي نوع من انواع تدخل الدولة في توجيه الانتاج . فالدولة في ذلك الوقت كانت تمثل مجموعة من الاقطاعيين والاستعماريين الذين لاتتفق مصلحتهم مع مصلحة الشعب ، بل تتناقض مع هذه المصالح تناقضا واضحا ... مما كان يؤكد ان تدخل الدولة سوف يؤدي حتما الى الاساءة لحقوق الشعب والاضرار بها .

اما الفرد ، فكان يؤمن به ايمانا كاملا ، وكان ايمانه بالفرد راجعا الى ان التراث الذي استند اليه في تحديد مفهومه عن المجتمع هو تراث « الفكر الثوري » البورجوازي في اوروبا في القرن التاسع عشر، لقد اخذ هذا المفهوم عن روسو وغيره من مفكري الثورة الفرنسية . وكانت هذه الافكار التي حملها الينا لطفي السيد بفهم وحماس كاملين أفكارا ثورية اذا نظرنا اليها في ضوء مجتمعنا القديم منذ خمسين سنة.

فالتطور الثوري الذي حدث في الفكر الاوروبي قائم على انكار الحقوق المقدسة لاي فئة من فئات المجتمع مثل الاقطاعيين والاشراف وغيرهم من العناصر السائدة في المجتمع الاوروبي قبل الثورة الفرنسية.

وانكار هذه الحقوق المقدسة يقوم على اساس ان لكل فرد في المجتمع له حق في الحياة المستقلة الحرة دون رق أو استعباد او ضغط، من اقطاعي او شريف او ملك او رجل من رجال الكنيسة ، وعند هذه النقطة من الفكر الثوري الاوروبي وقف لطفي السيد ... فدعا الى الايمان بالفرد ، ورتب على هذه الدعوة : دعوته الواسعة الى التعليم، ودعوته الواسعة الى تحرير المرأة ، ودعوته الواسعة الى الحرية السياسية الكاملة والحرية الاقتصادية الكاملة .

وبذلك اصبح لطفي هو العقل الذي استطاع ان يساهم اكبر المساهمة في اخراجنا من ظروف المجتمع الاقطاعي الخاضع للاستعمار الى مجتمع بورجوازي مدني معاصر . وكانت هذه الانتقالة ولا شك هي التي مهدت الاساس الاكبر لقيام مجتمع يمكن ان تقوم فيه ثورة مختلفة ومتقدمة بأفكارها ومبادئها على افكار لطفي السيد ومبادئه، فالدعوة الى الاشتراكية لم يكن من السهل ان تظهر وتنتصر لولا وجود المجتمع المدني الذي نشأ في بلادنا قبل ثورة ١٩٥٢ .

وهكذا ساهم لطفي السيد في ايجاد موجة تحررية حضارية واسعة .. هي الموجة التي أنشأت الجامعات ، وحررت المرأة ، وساهمت في تدعيم كل المؤسسات الحضارية التي اخرجتنا من ظلام الاقطاع والعصر الاقطاعي .

واليوم ...

يمكننا ان نأخذ على لطفي السيد كثيرا من آرائه اذا نظرنا اليها بمنهجنا الحالي ... بمنهجنا الاشتراكي ومفاهيمه المختلفة عن الحرية والديموقراطية والتقدم ، يمكننا ان نأخذ عليه دعوته الى الديموقراطية البرلمانية واستبعاده للتفسير الاقتصادي للديموقراطية ، فالاشتراكية لاتؤمن بالمساواة امام صناديق الانتخاب فقط وانما تؤمن بالمساواة الاقتصادية قبل كل شيء .

يمكننا ان نأخذ عليه أخطاء مثل رأيه في عرابي والثورة العرابية.. فقد هاجم عرابي عندما نظر الى هذا الزعيم لا نظرة الثورة وانما نظرة الاصلاحي الذي يؤمن بالتطور التدريجي البطيء . ويمكننا ان نأخذ عليه رأيه في فتحي زغلول مثلا : فقد مجد فتحي زغلول واعتبره رجلا عظيما ، وفتحي زغلول هذا هو الرجل الذي اشترك في محكمة دنشواي المشهورة وحكم على الفلاحين بالاعدام .

ذلك لان لطفي السيد نظر الى فتحي زغلول كفرد ولم ينظر الى « دوره » في الحياة العامة . نظر اليه واعتبره عالما كبيرا من علماء القانون والادب . ولم ينظر اليه في ارتباطه بواقع مجتمعه .. ومن هنا كان خطأ لطفي السيد في فهم الاشخاص وتقدير دورهم .

يمكننا ان نأخذ على لطفي السيد مثل هذه الاخطاء ، ولكننا نظلمه بمثل هذا الموقف ونظام التاريخ . فلطفي السيد كان اماما من أئمة التقدم في عصره . لقد فعل اقصى مايمكن ان يفعله العقل الكبير في سبيل تقدم بلاده التي كانت غارقة في ظلام مخيف نسجه الاقطاعيون والقصر الخديوي والانجليز . ولذلك فمن حق لطفي السيد ان نقول عنه اليوم وقد رحل عن دنيانا :

لقد رحل عنا رجل عظيم ، عاش طيلة حياته من اجل كلمات عظيمة فهمها بعمق ودافع عنها بعمق ، وأثمر فهمه ودفاعه خير الثمرات .

ومن اعظم الثمرات التي أثمرها فكر لطفي السيد : اننا اليوم قادرون على فهمه واستيعابه ... وقادرون بعد ذلك على نقده وتجاوزه. فهو الاب الروحي الحقيقي لكل ماأصابته بلادنا من تعليم وتفتح على الحضارة الغربية .

الجمهورية العربية اليمنية

الاسطورة .. والرمز .. والثورة ..

منذ عامين تقريبا اصدر الاستاذ محمد محمود الزبيري كتابا أسماه « مأساة واق الواق » .. وهي قصة كتبها بأسلوب رمزي يعبر فيها عن سخط الالهة والملائكة وشعوب الارض جميعا على بيت حميد الدين وعلى رأسهم الافعى الطاغية يحيى حميد الدين الذي اغتاله الاحرار عام ١٩٤٨ .. ومجمل القصة ان « العزى » ـ أي المؤلف ـ والعزى لقب لمحمد كان يقال عز الاسلام الخ » ذهب الى الازهر فوجد مجموعة من العلماء يتدارسون مشاكل الارض وحين اقبل عليهم .حيوه ببشاشتهم المعهودة وضحكوا منه حين اخبرهم انه من بلد « الواق الواق » ولم يصدقوا ان أسطورة الواق الواق يمكن ان توجد في القرن العشرين .. في عالم الاقمار والصواريخ وسفن الفضاء واتفقوا معه على الذهاب الى المنوم المغناطيسي لكي يطلق روحه الحبيسة تتحدث عن احدى عجائب القرن العشرين « يمن الواق الواق السعيدة » .. وتنطلق الروح مع الملائكة الى الجنة تلتقي بالشهداء الاحرار الذين سقطوا صرعى السيف كالبطل العراقي جميل جمال والبطل الجزائري الفضيل الورتلاني وغيرهم من الابطال أمثال الموشكي والحورشي والمسمري .. وينتهي المطاف بالروح لتلتقي في صلب الجحيم « بالعماد » (والعماد لقب للامام يحيى ـ وكل اسم في اليمن له مرادف في الالقاب) وتنتهي رحلة الروح بعد ان تكون قد تحاورت وتداورت مع الملائكة والشهداء والطغاة ..

هذا هو مجمل القصة الرمزية التي كتبها شاعر اليمن الزبيري.. وهي تعتبر اول حدث من نوعه استطاع بها الزبيري ان يتسرب الى قلوب المتطلعين الى الحرية في اليمن .. ووجد فيها الشعب سلواه فحفظها بعضهم ظهرا عن قلب .. وفي اعتقادي انها اصلح وانجح عمل ادبي قدمه الادباء الثوار للشعب العربي في اليمن .. انها شيء جديد يمكن لكل اديب عربي ان يحتذيه في معالجة مشاكل الاستبداد والرق والعبودية الكامنةفي الجزيرة العربية وعلىسواحل الخليج العربي ـوحتى لدى الاقليات التي تثير بعض المشاكل في الوطن العربي كأقلية الاشوريين في العراق والبرابرة في شمال افريقيا العربية .

انها أنجح عمل لانها تحرض على الثورة ضد كل عفونة بنفس منطق الذين يلدون العفن ويستمدون البقاء منه .. كتبها الزبيري ليقاوم بها أساليب الطغاة وهو يقول :

« ان أنجح عمل لمقاومة الطغيان في اليمن العربي هو اتباع نفس الاسلوب الذي يحذر الطغيان به الشعب .. بيت « حميد الدين »يحكمون اليمن باسم الدين فلنجرب مقاومتهم عن طريق الدين نفسه .. شعبنا البدائي اليوم لايعرف معنى الحرية او معنى الاستبداد .. ولن يعرفها عن طريق الخطب والنشرات الرنانة .. بل عن الطريق الوحيد الذي يمس شغاف قلبه .. الدين » ..

كانت هذه هي كلمات الزبيري في مجملها وهو يبرر رمزيته الجديدة « واق الواق » يوم صدورها .. من واقع الشعب نفسه استمد الزبيري مادة كتابه وهو الواقع المؤلم .. واقع الصراع بين الزيود والشوافع.. واقع الدجالين اصحاب العمائم الذين كانوا يمسكون المصاحف الشريفة والرشاوي في آن واحد .. وها هو الزبيري يطوف بجهنم .. يلتقي بالمعممين والقضاة « فاذا عمائمهم الجهنمية تقتلع جماجمهم ثم تأكل ادمغتهم ووجوههم حتى تبلغ الى رقابهم فيسقطون .

ولما نهض واحد منهم بعد صرعته بادره العزى محمود قائلا :

ـ من أنت ..؟

ـ من أنا ...؟ لا احب ان اذكر لك اسمي حتى تذكر لي اسمك..

ـ أنا العزى محمود ...

وصاح هذا المعمم بأعلى صوته صيحة الويل والثبور :

ـ وأسفاه انك انت وصحبك الاحرار أردتم ان تحررونا من العبودية فلم نتحرر وآثرنا ان نبقى عبيدا للطاغية « العماد » ثم لابنه من بعده ورضينا ان نكون اذنابا للطغاة وآلة في أيديهم لتعذيب الشعب .. الخ »

لقد التقى الزبيري في رحلته الخيالية بالفئات العديدة منالدجالين والقضاة والمخرفين من الاذناب الذين أعانوا بيت حميد الدين وأسهموا في التنكيل بالشعب العربي في اليمن .. لقد التقى بهؤلاء وكان مكان اللقاء جهنم .. في جهنم التقى بمشاهير جهنم أمثال نيرون وجنكيزخان و « العماد » ولم يجد اهل الجحيم اسما يطلقونه على الطاغية «العماد» .. وهنا تبلغ المأساة قمتها.. والسخرية ذروتها .. بكل مرارة .. بكل سخرية من القاهرة وصحافتها يوم كانت تغض الانظار عن أبشع ظلم حل بالانسان العربي في اليمن برغم بدء سياسة « اللامهادنة » .. أهل الجحيم يحجمون عن ذكر اسم الطاغية فيقول لهم الزبيري معاتبا : « داخل الجحيم » ..

ـ انكم انتم السبب في احجامي عن ذكر اسمه الاشهر .

ـ أنحن السبب ؟

ـ لستم السبب أنتم بالذات بل الصحافيون الاحياء والناشرون وأصحاب المطابع .. انني لو ذكرت اسمه الكامل لامتنع الصحفيون عن ذكر كلمة واحدة عن كتابي وامتنع الناشرون والموزعون وأصحاب المطابع عن طبعه وتوزيعه وهكذا نجد نفوذه الشيطاني حيث كنا »

وبمثل هذه الرمزية الرائعة يمكن أن نعالج المشاكل المماثلة في الوطن العربي اذا اتبعنا هذا الاسلوب الادبي الجديد .. لقد تسربت الرمزية بكل تفاصيلها الى شعبنا العربي في اليمن .. وتأثر بها وبأبطالها .. وقدمت له جوانب الحياة نفسها كما تدور في القصور وبين صفوف الشعب وان كان رمز القصور هو الجحيم نفسه .. أما الشعب فقد التقى به الزبيري في الجنة .

كانت الرمزية تلائم أذواقا معينة .. وهذه الاذواق هي التي لم تتمتع بالادب أو الفكر يوما .. فنجحت الرمزية في اليمن نجاحا رائعا .. أقول هذا برغم أنها ليس فيها ما يشد القارىء العربي العادي الى متابعتها .. ولكن الفراغ والجدب والتخلف الذي عاناه الشعب العربي في اليمن هو الذي أكسبها قوتها ونجاحها ..

لم تكن مسرحية بالمعنى الواسع ـ كما أسمتها الدكتوره بنت الشاطىء ـ لانها لا تمت الى المسرح بصلة لا في شكلها العام ولا حتى الحوار الذي دار على ألسن الابطال .. بل هي أقرب الى الاسلوب التقريري الذي يغلب عليه الوصف .. « يبلغ الارهاص الثوري فيها ذروته وتعتبر طليعة البعث الادبي ودعاء الفجر الجديد » .

لقد كتب الزبيري هذه الرمزية في أحلك أيامه واليأس يدب في قلبه .. منذ عامين يوم كان يعاني الضياع والتشرد والمحنة في شقة على السطوح .. كتبها على أنها الطريق الاخير أو آخر وسيلة لافهام الشعب أن لا بد أن يثور على حكامه ..

لم يكن فيها من الارهاص الثوري شيء سوى معاناة الضياع والتشرد معا .. لان الارهاص يعقبه خصب .. الارهاص تمهيد للفكر ومرحلة منه ينتقل بعدها الفكر الى الغزارة والانتاج .. والامة العربية في مرحلة ارهاص يبدأ بعده البعث المنتظر .. هذا هو مفهوم الارهاص كما أتصوره وحتى (رواية) الزبيري الرمزية .. لو قرأها المثقف العادي لما أحس لها قيمة أدبية أو تذوق فيها شيئا .. مجرد رمزية دينية كتبت للذين يعانون الظلم باسم الدين .. كتبها الزبيري في مرحلة بدأ يفكر فيها عن مراحل جديدة للنضال ضد الملكية المتعفنة .. في وقت زادت أسوار العزلة .. وزاد الفساد .. وزاد تغاضي أنظار الاصدقاء الاحرار .. كتبها ليشير بها في نفس الوقت لاصدقائه الاحرار معاتبا ليقول .. « حتى أنت يا بروتس » !!.. ولم يكن « بروتس » هذا

ليكترث للزبيري أو لعتاب مئات المثقفين أمثال الزبيري .. لقد كان «بروتس» يتصور ان بالامكان مقاومة العفن بأقناع العفن نفسه أن يتخلى عن نفسه وبهذه النظرة الخيالية مضى « بروتس » يقاوم العفن .. ولا يسمح للاحرار أعداء العفن حتى بالقاء اقتراح .. مجرد اقتراح .. مجاملة للعفن .. والمتعفنين .. كتبها الزبيري على أنها طريق آخر من طرق افهام الشعب وتنويره .. ولم تكن هي من أسباب الثورة المباشرة أو اللامباشرة حتى (يبلغ الارهاص الثوري فيها ذروته) .. لان الشعب كان يعاني فراغا ما بعده فراغ .. الشعب كان أشبه بحلقة وسطي بين القرون الاولى وهذا القرن .. كان يعيش في دوامة من الفراغ الهائل القاتل .. المقابر خارج صنعاء ثلاثة أضعافها .. والاحياء داخل أسوارها أشباه موتى جياع عراة حفاة .. وعشرات المعممين فقط هم الذين تمتعوا في ظل الحكم المتوكلي بحياة القرنين التاسع عشر والعشرين وهؤلاء ارتدى بعضهم ثياب القرن العشرين وبعضهم وصلت اليه كتب القرن العشرين . أما الشعب .. الشعب بمعناه الواسع .. الملايين الخمسة العربية فقد كانت جائعة وعارية .. كانت الملايين كلها حلقة وسطي بين فلول آدم في القرون الاولى وفلول حواء في القرون الاخيرة .. « فلول حواء هي الظاهرة على القرن العشرين بما فيه من مدنية ومساواة وخير وجمال »!!

لقد استعار الزبيري في هذه الرواية الاماكن وبعض أسماء أفاضل الاسلام أمثال « علي بن ابي طالب » .. وبعض الشهداء .. واستعار بعض الاماكن والاسماء الحقيقية ومزج الكل في رمزية أعطى لها عنوانا رمزيا يناسبها هو « واق الواق » .. بكل ما فيها من بدائية وبهيمية ودجل وعرى وفقر وذل جذور مأساة اليمن كلها .. تحسسها الزبيري وأدركها في آونة من آونات النضال المصبوغ باليأس والتحدي المشبوب باليأس أيضا ..

ظروف النضال عام ١٩٥٨ تميزت بالنسبة لليمن العربية بانقسامات وتمزق في صفوف طلائعها الثائرة الشابة .. بعض هذه الطلائع دخلت مراحل الالتزام العقائدي مسايرة لركب الامة العربية الثائرة .. وبعضها ارتد ليساير ظروف الدين وليتخلف بعقليته عن تمييز الدين والقومية .. وبعضها تطاول الى أبعد من ذلك ليرى في العالم كله أناسا بلا تمييز ولا فرق ..... أقول انقسمت طلائع النضال الى أقسام تتفاوت في العقلية والمبدأ ... وحتى الزمن .. ورأي الزبيري في هذا نكبة الحركة الوطنية نفسها فآمن بالمبادىء العربية العقائدية أو تسربت الى نفسه وكفر بالاحزاب والحزبية .. وحافظ على ثوريته (المصبوغة بالدينية) ليساير الركب الاخر .. وتغلغلت في أعماق الافكار الاشتراكية ولكنه لم يكن يؤمن أو يحبذ اهتمام الثائرين من الشباب ومشاركتهم لاحداث الوطن العربي .. كان يرى أن يكون اليمن العربي أولا هو أحق بالاهتمام .. والاهتمام به هو الاهتمام بالعروبة كلها .. كان يرى أن العمل من أجل اليمن هو العمل من أجل العروبة كلها ولم يكن يستطيع هو نفسه أن يصرف نفسه عن أحداث الوطن العربي .. لم تشغله أحداث اليمن وبؤسها عن الانفعال للاعاصير الثائرة التي تجتاح الوطن العربي والامة العربية .. وزادت النكبة أن تمزق « الاتحاد اليمني » الى أن كان مصيره أن أغلقته سلطات الاحتلال في عاصمة اليمن الجنوبية ـ عدن ـ.. وهكذا تميزت تلك الظروف عن عمل من جانبه وحده .. لم يعد له سوى طريقه الفردي (رغم الحاجه للشباب بالعمل الجماعي) لاصدار النشرات والدواوين الشعرية والرمزية المذكورة ..

جاءت « واق الواق » لتؤكد أن العمل من أجل قضية الشعب العربي في اليمن يجب أن يبدأ فورا..وأن القضية هي قضية الساعة..

كانت تعبيرا فرديا وطريقا للنضال باسلوب جديد وطريق جديد أيضا يلائم الاذواق البائسة هناك .. يؤكد فساد الحكم الامامي وفساد الائمة أنفسهم بنفس الاسماء والاستعارات والاماكن الرمزية ..

فالملوك في الجحيم بكل من عاونهم وتذيل وتزلف اليهم .. جموع المعممين الذين اقترنت عمائمهم بالدجل والنفاق والعفن حتى أصبحت « العمة » رمزا لهذا كله تقترن بكل مساوىء الماضي وما فيه من عفن.

من ناحيتها الادبية ـ رمزية الزبيري ـ كانت رمزية ممجوجة تثير الضيق والملل فلم تكن طليعة بعث أدبي ـ كما أسمتها الدكتوره بنت الشاطىء .. مع شديد احترامي لها ـ .. لقد انصرف عن قراءتها المثقفون من شباب اليمن العربي وملوها وعدوها طريقا قديما من طرق معالجة القضية .. ليس فيها ما يثير .. وليس فيها أي جديد قدمه الزبيري.. سوى تقديم القضية في شكلها الرمزي الديني .. لقد كان اليأس والضياع ـ وحتى البؤس ـ احد عوامل الاجداب التي عاناها الزبيري في فترات تشرده في القاهرة .. فلم يلتفت اليه أحد .. أوحت اليه أحزانه أن يتأمل في أحزان الشعب .. أن يطلق روحه من عقالها لتحلق في الفضاء المطلق لترى أن الملوك في الجحيم ومصيرهم النار حتما .. أما الشعب البائس فالى جنة الرضوان ... علامة ـ في المضمون ـ من علامات تطمين الشعب وتصبيره على البؤس والذل .. يريد الزبيري برمزيته أن يقول للشعب :

ـ اصبروا .. ها نحن برغم التمزيق والفرق نؤدي واجبنا فاذا لم نفلح فالطغاة ذاهبون الى الجحيم حتما .. أما أنتم فالى الجنة التي كنتم بها توعدون ..

لم يكن الزبيري متوقعا انتنشب الثورة لتحطم العفن منجذوره بعد عامين ولم يكن يتوقع نشوبها الا بعد أعوام طويلة .. أو بمعجزة .. كان مستسلما وحزينا في نفس الوقت .. لقد قال في نهاية كتابه وكأنه يخاطب المقادير :

(« وكل تلك انما كانت رموزا لحقائق الحياة في وطني المجهول : (واق الواق) وطني الذي أرجو أن تكون لي رحلة أخرى اليه .. اما في الاحلام كالرحلة التي سجلها هذا الكتاب .. أو رحلة في الواقع .. في موكب العائدين الاحرار ») وحقا .. لم يكن الزبيري يدري الى أي رحلة سيذهب .. ولم يكن متوقعا أنه بعد عامين سيذهب في رحلة الواقع مع العائدين الاحرار ليبدأ النضال الاخر .. نضال تحرير العقلية العربية في اليمن العربي .

محمد الزرقه

السـودان

جانب من أزمتنا الفكرية

●

من الاشياء الواضحة للعيان وضوح الشمس في منتصف نهار الصيف عندنا .. أننا في هذه الاونة نكابد من أزمة فكرية حادة وتلفعنا بضبابها الكثيف الذي يزداد كل يوم تفاقما حتى بات الكثيرون يخشون، وهم محقون في ذلك ، ان تصيبنا بركود وجدب يستحيل معهما فيما بعد أي نوع من أنواع العلاج تماما كشأن أي داء ، مهما كان بسيطا ، ان لم يبحث له عن تشخيص وعلاج سريعين سيتطور لا محالة الى وباء معد خطير .

وهذه الازمة التي نحن الان بصدد الحديث عن بعض اسبابها الهامة ليست وليدة ظروف بسيطة عابرة حتى يمكن ان نظن انها سحابة صيف قد تنقشع في أية لحظة ، ولكنها وليدة جذور متشعبة ، ولكي نحاول أن نضع أيدينا على مكمن تلك الازمة بقدر الامكان .. علينا ان نرجع الى الوراء ونوغل في تاريخنا الحديث الى فترة زمنية تمتد الى ثلث قرن تقريبا . ففي تلك الفترة الهامة من تاريخ هذا البلد وأعني بها فترة الثلاثينيات وما قبلها بقليل كان الحال يختلف كثيرا عما هو عليه الان اذ كانت احوالنا الادبية والفكرية في غاية الحيوية وفي نمو صاعد، وكان المثقفون في تلك الفترة الحرجة لا يألون جهدا او يدخرون وسعا في النهل من الثقافة والفكر وينيرون الطريق أمام مواطنيهم الطيبين البسطاء وذلك بالرغم من وجود المستعمر وتكميمه للافواه ووضعه العراقيل العديدة من مطاردةوسجن وتشريد وغير ذلك من ضروب التعسف والتنكيل التي يجيدها دائما المستعمرون في كل زمان ومكان ، ولكن مثقفينا لم تهن عزائمهم اطلاقا واستمروا في طريقهم الشاق الطويل ويجدون عن طريق مصر ما يريدون من روافد الثقافة وغيرها وظهرت مجلات عديدة ومنها مجلتا النهضة ١٩٣١ ، والفجر ١٩٣٤ وشهدتا نهضة ادبية وخاصة في مجال الشعر .

واستمر الحال على ذلك المنوال ، بين صعود وانخفاض ولكن بدون توقف ، الى ان قدر لهذه البلاد ان تنال استقلالها وخرج المستعمرون الى غير رجعة وصارت البلاد خالصة لبنيها لكي يديروا دفتها بأنفسهم .
وكانت التجربة .

التجربة التي كان واضحا ان مثقفينا آنذاك لم يحسبوا لها حسابا وذلك لان المستعمر عندما كان موجودا ، كان للمثقفين هدف واضح محدد وهو خروج ذلك المستعمر وتحرير البلاد من نيره وعندما تم ذلك كان لا بد ان تواجه اولئك المثقفين تلك الفترة الحرجة والتي هي دائما من اشق واصعب الفترات في تاريخ الامم التي ابتليت بذلك الداء، اذ كانت تقع على عاتقهم مهمة الاضطلاع بمسؤولية مرحلة ما بعد الاستقلال وبلورتها سواء في مضمار الاقتصاد او الثقافة وغير ذلك ، ولكن مثقفينا بدلا من ان يقوموا بذلك الواجب الكبير الملقى على اكتافهم ظنوا ، ما عدا قلة لا تكاد تذكر ، ان دورهم قد انتهى بخروج المستعمر ولا شيء غير ذلك ، وعليهم اذن ان يركنوا للدعة والخمول وتجميد كافة نشاطهم الثقافي والفكري ، وآثر بعضهم الجري وراء الوظائف والمكاسب الشخصية وآثر آخرون الانزواء في ابراجهم العاجية او الزجاجية لست أدري ، وصار لا هم لهم سوى مضيعة الوقت في التفاهات والدوران في متاهات التمزق والضياع واللامبالاة وبالتالي خرجوا على الدوام فيما يختص بمشاكلنا الفكرية وغيرها بالصمت عن لا أو نعم تماما كانتى بشار الخالدة وتناسوا تماما ان دور الفكر هو ان يحمل التبعات الكبرى في حياة الانسان من اجل تنظيم خطوط واقعة المتشابكة حتى يتضح امامه طريق حياته . ان الفكر هو أشرق ما في الانسان وليس من الطبيعي ان يتخلى الانسان عن أشرق ما فيه كما قال بحق الاديب العربي رجاء النقاش ولكن الواضح ومنذ أمد طويل ان مثقفينا قد تخلوا عن أشرق ما فيهم ولم يعد يهمهم شيء .

وهذا الموقف المخجل الذي يقفه مثقفونا والذي لا يمكن ان يرضاه مخلص كثيرا ما أثار ويثير ضدهم عواصف اللوم والتقريع من حين لاخر، واقرب مثال في هذا الصدد ما قامت به احدى صحفنا اذ ذهبت الى بعضهم واخذت تسألهم عن السبب في انزوائهم وعدم مساهمتهم بالكتابة حتى في صحفنا المحلية وبالمحاضرات والندوات في سبيل تنوير مواطنيهم فكريا ، وسمعنا منهم عجبا على طريقة صمت دهرا ونطق كفرا ، اذ وضح من حديثهم انهم يرمون اللوم على غيرهم في ذلك ويعفون انفسهم – وهذا دأبهم دائما – من كل تبعة او واجبات ، واخذوا يتعللون بأن السبب في انزوائهم هو امتلاء ميدان الادب والصحافة بكل من هب ودب من غير المؤهلين ثقافيا بما في ذلك صحفيينا انفسهم ! ولذا – والحال كذلك – فهم قد آثروا الانزواء والصمت .

ولا حاجة بنا الى القول بأن هذه حجج متهافتة لا تقوى على الوقوف على قدميها .. وتبرير ضعيف واه . وقبل ان نجيب على هذا الادعاء نود ان نطرح سؤالا بسيطا ، وهو ، اذا فرضنا جدلا ان الميدان امتلأ بالجهلاء وكل من هب ودب فما السبب في ذلك يا ترى ؟؟ السبب في ذلك ، بلا مراء ، هو بعدهم وانزواؤهم عن ميادنينا الفكرية وبالتالي صار لا مناص او مفر من أن تمتلىء بكل من هب ودب ، كما يقولون ، وذلك على اساس نظرية الفراغ الفيزيائية المعروفة ، وبداهة ان ذلك الميدان لو وجد من يملأه منهم وساهموا بأقلامهم وافكارهم في ذلك الصدد لما وجد اولئك الدخلاء مجالا – بطبيعة الحال – ولوقفوا بعيدا وتركوا المجال لغيرهم ، اما ان ينزوي اولئك المثقفون بمحض ارادتهم ثم يتحسروا بعد ذلك ويمصمصوا شفاههم على المجال الذي امتلأ بكل من هب ودب فأمر يدعو للعجب والاسف .

هذا تقريبا موقف معظم المثقفين السودانيين ولا غرو اذن اذا ما ران علينا ضباب الجمود والركود اللذين اوشكا ان ينحدرا بنا الى هوة بعيدة الغور .

وأما بقية العاملين في الحقل الادبي وهم قلة ويساهمون حسب ظروفهم بالمحاضرات والندوات والكتابة في الصحف من حين لآخر ويعانون من وطأة مشاكل صعبة للغاية فيما يتعلق بطبع نتاجهم الذي يقبع منذ زمن طويل في طوايا الظلام لصعوبة النشر وتكاليفه ، ويقيننا ان النتاج الذي طبع اخيرا من دواوين شعرية وغيرها .. كان سيلاقي نفس المصير لولا مساعدات الدكتور الانسان أحسان عباس غير المحدودة ومجهوداته التي ذللت الكثير من الصعاب في ذلك الصدد .

ولعل من أعوص العقبات التي تقف في سبيل تطورنا الادبي مشكلة النشر المستحكمة والتي تزداد كل يوم استفحالا وتفاقما دون ان تلوح في الافق بارقة من حل لها ، ومن طريق المفارقات ان ادباءنا فيما يختص بنشر نتاجهم ينقسمون الى قسمين ، قسم لديه نتاج جيد ولكنه لا يستطيع ان يخرج به للنور لضيق ذات اليد ، وقسم آخر لديه نتاج متهافت ضعيف ولكن افراده لديهم بعض الامكانيات المادية التي تمكنهم من طبعه ولذا كثيرا ما نراهم يتأبطون نتاجهم ذاك ويهرعون به الى القاهرة او بيروت لطبعه فيخرج نتاجا شائها وغير مكتمل فنيا وهذا ما وضح جليا في بعض القصص التي طبعت مؤخرا والتي يبدو ان اصحابها مغرمون فقط برؤية اسمائهم الكريمة مطبوعة على أغلفة كتبهم ولا شيء غير ذلك .

وهنا قد يتساءل البعض عن دور النقد عندنا ولماذا لا يرصد الطريق أمام هؤلاء الادعياء والذين يسيئون الى حركتنا الادبية بطبع مثل ذلك النتاج الضعيف الركيك ، ويتناول نتاجهم ذاك بالنقد الركز الحازم حتى يجعلهم يفكرون بروية مرات ومرات قبل الاقدام على طبع نتاجهم ؟؟

سؤال جميل ولا شك ، وهذا ما كان ينبغي ان يقوم به نقـادنا فعلا . ولكنهم ، بدلا من القيام بذلك ، مشغولون تماما بالنيل من بعضهم البعض بالسباب والتجريح والتعصب للاصدقاء والمعارف وحتى صار النقـد عندنا عموما يسير على طريقه :

وعين الرضا عن كل عيب كليله   كما أن عين السخط تبدي المساويا

وتكون النتيجة الحتمية لتلك النظرة الضيقة لمفهوم النقد عراكا ومهاترات ونشر الغسيل القذر في العراء ، وذلك ما وضح جليـا في المساجلات العنيفة العديدة التي نشبت منذ فترة ، وآخرها ما جرى بين الاستاذين محيي الدين فارس ومحمد محمد علي وانصارهما حول الغموض في شعر التجاني يوسف بشير وكانت النتيجة ان تـرك المتعاركـان الفاضلان التجاني وشعره جانبا وتناولا بعضهما جملة وتفصيلا .

وتفتقت مخيلة بعض أدبائنا الاخرين عن نوع طريف من النقـد المهترىء العابث واطلقوا عليه « محكمة الادب » ونصبوا أنفسهم قضاة للادب مما يذكرنا بقضاة ومحاكم التفتيش ، وصرنا من حين لاخر نسمع عن ذلك العبث الذي يمتص وقتهم الضائع في ترهات ومماحكات يبعد عنها الادب الحق الجاد كل البعد . وآخر الامثلة لذلك تلك « المحكمة » التي شكلت لاحد صحفيينا الشعراء لانه تجرأ وأخذ يكتب بعض الشعر على النمط الجديد . وكأنما كتابة الشعر الجديد صارت جريمـة لا تغتفر . وهكذا الوقت الثمين يمضي ببعض ادبائنا وهم لاهون وبينما ينكب ادباء آخرون في البلاد العربية الاخرى على ترجمة أرقى الثقافات وتصنيف المؤلفات والمقالات الجادة القيمة فيغذون أدبـهم وينفعـون أمتـهم .

وأما هيئاتنا الادبية والتي كانت الآمال معقودة عليها ، فقد أصابتها عدوى الركود وأخذت تظهر حينا وتختفي احيانا . وحتى الندوة الادبيـة بأم درمان والتي كانت تعتبر من أنشط هيئاتنا وجمعياتنا الادبية اصابتها جرثومة الركود واصابت كذلك قراراتها الهامة التـي اتخـذتهـا في مهرجانها السنوي الذي عقد في سنة ١٩٦٠ (*) ولا بأس ان نذكرها مرة أخرى :

١ ــ تشجيع قيام جمعيات أدبية في اقاليم السودان المختلفـة ، والعمل على ربطها ، وتقوية الرحلات ، والتعاون بينها .

٢ ــ العمل على انشاء دار نشر سودانية يكون اساسها مجلة أدبية سودانيـة .

٣ ــ اقامة مؤتمر آخر للادباء السودانيين تتمثل فيه كل الجمعيات الادبية السودانية لبحث الخطوات العملية لتنفيذ المشروعات الادبية .

٤ ــ الاتصال في الخارج بالادباء والجمعيات الادبية ، والصحافة وتدعيم الصلات بين الادباء ، ونشر الادب السوداني في نطاق عالمي .

وكما قلنا فان هذه القرارات الهامة لم تزل نائمة بالرغم من مضي عامين كاملين عليها وقد كان الكثيرون يعقدون عليها الامـال في انتشال ادبنا من وهدته وخاصة فيما يتعلق بانشاء دار للنشر لاننا للان نفتقد تماما مثل تلك الدار مع الاسف .

هذه تقريبا صوره سريعة مجملة للموقف الراهن ، وهي صورة قد تكون قاتمة بعض الشيء وقد لا تعجب الكثيرين من « المتفائلين » ولكنها على كل حال الحقيقة المجردة كما لمستها عن قرب رضينا أم لم نرض . وعلينا ان اردنا معالجة قضايانا ومشاكلنا الادبية او غيرها الا نمـارس سياسة دفن الرؤوس في الرمال ، ولكن علينا ابراز مشاكلنـا تلـك وتسليط ضوء كاف عليها حتى يتسنى لنا ــ ان كنا مخلصين جادين ــ ان نضع ايدينا على مكمن الضعف ثم نبحث بعد ذلك عن الدواء .

بور سودان   حسن احمد حسان

(*) الاداب ــ العدد التاسع ــ السنة الثامنة ــ ايلول ١٩٦٠ (النشاط الثقافي في الوطن العربي) .

« الآداب » والانفصال

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٩ ـ

كأني نقمة شلاء او طين
بلعنه هذه الاسوار مرهون
ومن يدري ؟
لعل غدا يطل مجنحا حرا
الى بيتي
وفي عينيه ، بين يديه ، في بسماته مايشبه البشرى
بانك ياسما لابد ان تأتي
وانك قد هدمت عليهم الاسوار وارتحت
من الاسر
واني عدت حيا ثائرا من غربة الموت
لاحرق في دمي قبري .

وفي العدد التاسع (ايلول) ١٩٦٢ قصة رمزية لمطاع صفدي بعنوان « المذبحه عام ١٩٣٦ صيفا لا شتاء» يصور فيها الظلم والتنكيل والاضطهاد الذي كان ينزله زبانية الانفصال بالعمال في سوريا ، والنضال العظيم الذي كان يقوم به هؤلاء العمال دفاعا عن حقوقهم .ومكاسبهم . كما ان الكاتب نفسه قد كتب في العدد الحادي عشر ١٩٦٢ مقالا هاما بعنوان « الثورية ومنطق التجربة والنكسة »حلل فيه الوضع في سوريا وفضح مخططات الرجعية والانفصال.

وفي العدد العاشر (تشرين الاول) كتب رئيس التحرير مقالا بعنوان « الاديب العربي امام الاحداث » تعرض فيه الى موقف بعض الادباء السوريين الذين باعوا ضمائرهم للشيطان وتخلوا عن مسؤولياتهم امام الوضع الانفصالي، ومما جاء في المقال :

« امامنا الان بيان طويل وقعه عدد كبير من الادباء يهاجمون فيه ذلك العهد (يعني عهد الوحدة) ويتهمونه بكل نقيصة ، وليس في هؤلاء الادباء الا عدد قليل جدا جرؤوا على ان يقولوا كلمتهم في اثناء قيام ذلك العهد . أفما كان الاجدر بكرامة الفكر والادب أن يظل اولئك الذين صمتوا من قبل على صمتهم الان ؟ »

وكتب علي بدور في العدد الاول (كانون الثاني)١٩٦٣ مقالا طويلا بعنوان « القومية العربية في طريق الامل : من ظلام التجزئة الى فجر الوحدة » كان ردا عنيفا على روح الانفصال الرجعية في سورية .

وقد شارك عدد من الشعراء السوريين في التعبير الرمزي عن تلك النكسة بقصائد مختلفة ومنهم علي كنعان وماجد حكواتي وفواز عيد وسواهم .

وحدث ان سلطات الانفصال قد اوقفت العدد الماضي من « الاداب » وهو الذي خصص الصفحات الاولى لتمجيد ثورة ١٤ رمضان في العراق ، بسبب المقالات والقصائد الكثيرة التي تحيي تلك الثورة ، وبسبب مهاجمة رئيس التحرير لروح « التجزئة والانفصال » وتنبؤه بقرب زوال ذلك العهد . ثم اصدرت السلطات في دمشق قرارا بمنع دخول « الاداب » في يوم ٧ اذار الماضي ، اي قبل الثورة العظيمة بيوم واحد . وفي ٩ اذار عادت المجلة تدخل دمشق ، فترحب بها دمشق كأنما هي تستجيب لابتهالها منذ عام ونصف : « رحماك يادمشق » ..

« الاداب »